مفاهيم في العقيدة

الجزء الأول

# مفهوم الظن
# في القرآن الكريم وعلاقته باليقين

ثائر سلامة ( أبو مالك )

الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

# :: مفاهيم في العقيدة ::

## القول الفصل في آيات طال حولها الجدل

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾

﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾

﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾

الجزء الأول

# مفهوم الظن

## في القرآن الكريم وعلاقته باليقين

### علاقة الظن باليقين
### إثبات تهافت قول المفسرين
### بأن الظن قد يأتي بمعنى اليقين

الطبعة الثانية: مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ

# الفهرس

الفهرس ........................................................................ ٣

مفهوم الظن في القران الكريم وعلاقته باليقين ........................................ ٦

مفهوم الظن: ................................................................... ١٢

فصل: آية : "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً" ........................................................................ ٢٨

باب: ما أراه في الآية الكريمة: ................................................... ٣٨

فصل: علاقة الظن باليقين: .......................................................... ٤٩

فصل: "وظنوا أنهم أحيط بهم" ........................................................ ٦٠

فصل: "وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ" ........................................................ ٦٥

فصل: "وظنوا أنه واقع بهم"، "وتظنون إن لبثتم إلا قليلا"، "وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ".. ٦٩

فصل: "تظن أن يُفعل بها فاقرة"، "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا"، "وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ" .............................................................. ٧٥

فصل: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (٤٦ البقرة) ....................... ٨٨

(وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ............................................................ ٩٧

باب: ما أراه في الآية الكريمة: ................................................... ١٠٦

فصل: "الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ" ........................................ ١٣٣

فصل: "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ" (الحاقة: ٢٠) ............................ ١٣٥

باب: ما أراه في الآية ........................................................ ١٤١
فصل: "وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ" ...................................... ١٤٦
فصل: "إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ الله" ...................................................... ١٤٨
فصل: "وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ" ........................................................... ١٥٢
فصل: "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا" .................................................... ١٥٤
فصل: "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا" ..................................... ١٥٥
باب: رأي الإمام ابن تيمية رحمه الله في المسألة وهو أدق تفسير لها والله أعلم............. ١٦٤
الرأي الذي أذهب إليه في تفسير هذه الآية الكريمة ........................................ ١٧٢
فصل: "فظن أن لن نقدر عليه" دفاع عن رسول الله يونس عليه السلام.................... ١٨٢
باب: ما أراه في القصة:........................................................ ١٩٣
فصل: "وإنا لنظنك من الكاذبين" ، "وإني لأظنه كاذباً" ...................................... ٢١٨
فصل: "وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ" دفاع عن نبي الله داود عليه السلام ........................ ٢٢٠
المطلب الأول: إثبات أن محور الآيات ليس فيه شيء عن القصة الفرية ..................... ٢٢٨
المطلب الثاني من البحث هو محاولة الاقتراب من أجواء الآيات أكثر ...................... ٢٣٤
أما الوجه الثاني لتفسير هذه الآيات فيما أراه ............................................ ٢٤٣
الوجه الثالث: مغزى الآيات وشأن الحكم والعبادة:........................................ ٢٤٩
فصل: "مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ" ............................................... ٢٥٠
فصل: "وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ" "فما ظنكم برب العالمين" ..................... ٢٥٣
فصل: "وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ" ، "وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون" ، "إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ" ، "أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ" ............................................... ٢٦٠

فصل: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ........ ٢٧٢
فصل "وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً" ........ ٢٧٤
فصل: الشواهد الشعرية ........ ٢٨٣
الخلاصة ........ ٢٩٦
خاتمة ........ ٣٠٠
المراجع ........ ٣٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

# مفهوم الظن في القران الكريم وعلاقته باليقين

## تفسير الآيات التي ورد فيها الظن في القران الكريم من قبل المؤمنين وبيان أن الظن فيها لا يمكن أن يكون بمعنى اليقين

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيبًا طاهرًا زاكيًا يليق بجلال وجهه العظيم، وعظيم سلطانه حتى يرضى جل شأنه، والحمد لله بعد الرضى، حمداً يوازي نعمه ويكافئ مزيده، حتى يرضى عنا وعمن له حق علينا، وعن المسلمين، ويدخلنا برحمته في رحمته إنه على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيد الخلق هادينا إلى الحق، قائدنا أنعم عليه وأكرم يا رب وآته الوسيلة والفضيلة، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ومن اقتفى أثره واتبع سنته إلى يوم الدين. وبعد..

يقول الحق سبحانه وتعالى: "الم ١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" ٥ البقرة؛ ويقول عز من قائل "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ

إن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ٣٣ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ" ٣٤ الجاثية، من هذه الآيات نتبين أن الظن لا يُقبل في موضوع الاعتقاد وأن من جاء الله يوم القيامة ظانّاً في عقيدته فإن له الخلود في النار.

إلا أنه جاءت آيات أخرى تبين أن المؤمنين "يظنون" في قضايا معينة تأوَّل جمهور المفسرين يرحمهم الله على أن الظن فيها بمعنى اليقين، مُصرِّين على أن الظن فيها كان ظناً بالبعث، كقول الحق سبحانه "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة؛ وقول الحق سبحانه "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠ الحاقة؛ وقول الله جل جلاله عن المجرمين في موضع قال المفسرون أنهم يعلمون فيه أنهم مواقعو النار "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا" ٥٣ الكهف؛ وما إلى ذلك من استعمال الظن في القران الكريم؛ وحيث أنه لا يتصور أن يظن مؤمن بالبعث؛ بمعنى أن يكون احتمال النقيض –وهو عدم إمكانية حدوثه وارداً- فقد قالوا أن في ذلك قرينة على أن الظن بمعنى اليقين.

وقد تتبعت الآيات كلها في كتاب الله تعالى وتبين لي أن الظن فيها لا يمكن أن يكون بمعنى اليقين، وأنه ليس بحال من الأحوال ظناً بالبعث، بل

إنـي أرى أنـه علـى العكـس ممـا قـال بـه جمهـور المفسـرين فـأقول أن هـذه القرينة المشار إليها لا تصلح قرينة على أن الظن بمعنى اليقين بل الصـحيح أنها قرينة على أن الآيات لا تتحدث عن البعث والظن به أو اليقين بـه، أي أن القرينة فهمت على عكـس مـا كـان يجـب أن تفهـم! ولمـا كـان الله تعـالى لا يقبل من أحد في عقيدته ظنًا كـان السـؤال الكبيـر: هـل كـان مـا ذهـب إليـه المفسرون من أن الظن هنا بمعنى اليقين حق؟

أما وقد قال المولى عز وجل: "وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِـي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ" ٣٦ يونس. وكلمة الظن هنـا اسـم جنس محلى بالألف واللام يستغرق كل جنس الظن فلا يغني أي ظن مـن أي علم شيئاً؛ فمن هنا كان القول بأن معنى الظن فـي هـذه الآيـات هـو اليقـين (مجازاً) قول بعيد جداً عن الحق ولا بـد مـن إعـادة النظـر فيـه خاصـة ونحـن نعلم شدة حـرص الإسـلام علـى تـدقيق المصـطلحات المسـتخدمة فـي كـل مفاهيمه كقول الحق سـبحانه "يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـواْ لاَ تَقُولُـواْ رَاعِنَـا وَقُولُـواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِـيمٌ" ١٠٤البقـرة، ونظيـر الـذي ذكـر عـن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قـال: " لَـا تَقُولُـوا الْكَـرْمُ وَلَكِـنْ قُولُـوا الْحَبْلَـةُ يَعْنِي الْعِنَـبَ" رواه مسلم، والدارمي "حَدَّثَ أَبَو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِـيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ اسْـقِ رَبَّـكَ وَلْيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَـامِي"

رواه البخاري؛ فكيف يُظن بعد ذلك أنه يخلط بين مصطلحات العقيدة وهي أس الدين وأساسه؟

ولئن كان قد اشتبه على معظم المفسرين تفسير الآيات التي جاء الظن فيها في موضع اشتبه عليهم أنه بمعنى اليقين فقد تبين في هذا البحث أن للظن معانيَ أدق وألصق بالآيات وبما حولها تقوى معه دلالتها على الموضوع الذي تتناوله الآيات ويصرف عن هذا الذي ذهبوا إليه تأوُّلا وصرفًا لمعنى الظن الحقيقي إلى غيره من غير صارف.

وأرى أنه لا بد من إثبات المجاز في القران والحمل عليه إذا تعذرت الحقيقة بما يناسب النص.

فلنتساءل أولا ونحن نعلم أن القران الكريم دائمًا يضع المصطلح المناسب واللفظ الدقيق لبيان المعنى المطلوب في موضعه، فلماذا لم يقل الحق سبحانه هنا: الذين يعلمون أنهم ملاقو ربهم، لتكون أكثر دلالة على المعنى من لفظ طالما هاجم الفكر الإسلامي بأدلة متكررة من القران معتنقيه؟ لماذا يلبس إذن المفاهيم؟

ومن هنا يقوى الظن بأن ما ذهبوا إليه خطأ، والله أعلم! فلا يمكن أن يناقض القران نفسه فيبين أول البقرة أن اليقين هو سبيل الفلاح ثم يستعمل الظن في البعث بمعنى اليقين هنا ثم يبين مصير الظانين بالبعث

بأنه النار، في غير موضع من القران، فلا بد أن المقصود هنا من الظن معنى آخر غير الذي ذهب إليه سادتنا أئمة التفسير يرحمهم اللّه.

وقد قسمت البحث في العقيدة إلى أربعة كتب: الأول وأسميته: (القول الفصل في مفهوم الإيمان شرعا) في الايمان والاعتقاد واليقين وتفاضل الايمان ومفهوم المؤمن والمسلم، وفرقت فيه بين الظن واليقين والشك والريب، وأوضحت بالأدلة ما يُقبل من الإيمان وما لا يُغني عن صاحبه شيئًا، وعرجت على الأدلة الظنية ومدى قبولها في العقائد، في الجزء الثاني منه والذي أسميته "أدلة الاعتقاد"، وبينت الفرق بين العقيدة والحكم الشرعي، في أدلة كل منهما ودللت على ذلك بآيات كثيرة من كتاب اللّه الكريم؛ وبحثت في خبر الآحاد والاستدلال به، وفي الكتاب الثالث هنا فسرت الآيات التي جاء الظن فيها في القران بموضع تأوَّله السابقون على أنه اليقين؛ وبينت التفسير الذي أراه أدق والصق بالآيات؛ ثم ناقشت أقوال المفسرين في قصتي يونس وداود عليهما السلام لالتصاق مفهوم الظن بهما؛ وأفردت فصلا لمناقشة الشواهد الشعرية التي منها انطلق المفسرون للقول بأن الظن هو اليقين، وبينت تهافت استدلالهم، والكتاب الرابع كان في منهج التعامل مع مسائل الصفات.

ولكن نلاحظ هنا ملاحظة هامة جدا تتصل بموضوعنا، وهي أن الحق سبحانه بين في كتابه أنه لا يقبل الظن في البعث، وبين مصير الظانين

بالبعث في غير موضع من كتابه العزيز، فلو جاز أن يكون من معاني الظن في لغة العرب اليقين، وكان كلام علماء اللغة القائلين بهذا القول صحيحاً، فإن إنزال هذا المعنى على واقع الآيات التي سنناقشها ولا شك كان خاطئاً، فليس موضوع واحدة منها الظن بمعنى اليقين، ولا الظن بالبعث بمعنى احتمال عدم وجوده، بل كان الظن مقصوداً بعينه، وموضوعه ليس البعث، فنحن نقول بأن إنزالهم لمعنى الظن على أنه اليقين عليها خطأ محض والله أعلم.

والله ولي التوفيق وهو المستعان اللهم اجعل عملنا هذا خالصًا لوجهك الكريم ولا تجعل فيه حظًا للشيطان، وعلمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمسلمين أجمعين.

والدين النصيحة فهذه عناويني الإلكترونية على الإنترنت لمن أراد النصح مأجوراً بإذن الله.

أبو مالك

imammalek@hotmail.com

# مفهوم الظن:

الظن: قال الزمخشري: "ظن؛ ظننت به الخير فكان عند ظني؛ قال النابغة:

وهم ساروا لحُجْرٍ في خميسٍ        وكانوا يوم ذلك عند ظني

وهو مَظِنَّة للخير؛ وهو من مَظانّه؛ وأنا كظنك إن فعلت كذا؛ وقال امرؤ القيس:

أبلغ سُبيعاً إن عرضت رسالة        أني كظنّك إن عشوت أمامي

وليس الأمر بالتظني ولا بالتمني؛ ورجل ظنين: متهم؛ وفيه ظِنّة؛ وعنده ظِنّتي؛ وهو ظِنّتي: أي موضع تهمتي؛ وبئر ظنون: لا يوثق بمائها؛ ورجل ظنون: لا يوثق بخيره؛ ودَين ظنون: لا يوثق بقضائه"[1].

الظن: "هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، وقيل الظن: أحد طرفي الشك بصفة الرجحان"[2] "والظن اسم لما يحصل عن أمارة"[3] والاعتقاد هنا المقصود به التصديق فحسب أي معناه اللغوي.

---

١) أساس البلاغة. معجم في اللغة والبلاغة. للإمام جار الله أبي القاسم الزمخشري ص ٢٨٦
٢) الإستدلال بالظني في العقيدة، فتحي سليم ص ٢٠

قال الفيروز ابادي: "الظن: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم؛ [والصواب غير الجازم] جمع: ظنون وأظانين، وقد يوضع موضع العلم. والظِّنَّةُ، بالكسر: التهمة؛ والظَّنين: المتَّهم، وأظَنَّه: اتّهمه، وقول ابن سيرين: لم يكن علي يُظَّنُّ في قتل عثمانَ، يُفْتَعَلُ: من تظَنَّنَ، فأدغم، والتَّظَنِّي: إعمال الظن؛ وأصله التَّظَنُّنُ ومَظِنَّةُ الشيء: بكسر الظاء: موضع يُظنُّ فيه وجوده؛ وأظْنَنْتُهُ: عرّضته للتهمة." [٤]

وقال ابن عطية: "والظن ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا برهان." [٥]

وقد اختلف علماء اللغة والأصول في الظن وعلاقته بالشك وباليقين، وإليك بعض التفصيل:

يقول العلامة ابن تيمية في تفسير قوله تعالى "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" ١١٠ يوسف يقول رحمه الله: "والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح كما في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم،

---

٣) مفردات ألفاظ القران. الراغب الأصفهاني ص٥٣٩

٤) القاموس المحيط/ الفيروز ابادي. ص١٥٦٦

٥) تفسير ابن عطية ١٤/١٠٥.

ويسمون الاعتقاد المرجوح وهمًا، بل "قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَأْثُرُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ" رواه البخاري[٦] وقد قال تعالى "وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" ٢٨النجم، فالاعتقاد المرجوح هو ظن وهو وهم"[٧]

ويقول العلامة ابن قيم الجوزية في الصواعق المرسلة: "الوجه السابع والأربعون: إن القائل بأن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين، إما أن يقول: إنها تفيد ظناً أولا تفيد علمًا ولا ظنًا، فإن قال: لا تفيد علمًا ولا ظنًا فهو مع مكابرته للعقل والسمع والفطرة الإنسانية، من أعظم الناس كفرًا وإلحادًا وإن قال بل تفيد ظنًا غالبًا وإن لم تفد يقينًا قيل له: فاللّه تعالى قد ذم الظن المجرد وأهله، فقال تعالى: "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" ٢٨النجم؛ فأخبر أن الظن لا يوافق الحق ولا يطابقه، وقال تعالى "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى" ٢٣ النجم؛ وقال أهل النار "إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" ٣٢ الجاثية؛ فلو كان ما أخبر اللّه به عن أسمائه وصفاته واليوم الآخر وأحوال الأمم وعقوباتهم لا تفيد إلا ظنًا لكان المؤمنون إن يظنون إلا ظنًا وما هم

---

٦) البخاري/ كتاب الوصايا، مسلم/كتاب البر، الترمذي/كتاب البر، مسند أحمد/٣/٣٤٥

٧) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق د. محمد السيد الجليد ٣/٣٠٢

بمستيقنين، ولكان قول اللّه تعالى "وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" ٤ البقرة؛ خبراً غير مطابق للواقع، فان علمهم بالآخرة إنما استفادوه من الأدلة اللفظية لا سيما وجمهور المتكلمين يصرحون بأن المعاد إنما عُلم بالنقل فإذا كان النقل لا يفيد يقينًا لم يكن في الأمة من يوقن بالآخرة إذ الأدلة العقلية لا مدخل لها فيها وكفى بهذا بطلانًا وفسادًا.

واللّه تعالى لم يكتف من عباده بالظن بل أمرهم بالعلم كقوله "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" ١٩ محمد؛ وقوله "اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" ٩٨ المائدة؛ وقوله "وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ" ٢٢٣ البقرة؛ ونظائر ذلك وإنما يجوز الظن في بعض المواضع للحاجة كحادثة يخفى على المجتهد حكمها [أي في العمليات لا العقائد] أو في الأمور الجزئية كتقويم السلع ونحوها، وأما ما بينه اللّه في كتابه على لسان رسوله فمن لم يتيقنه بل ظنه ظنًا فهو من أهل الوعيد ليس من أهل الإيمان، فلو كانت الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين لكان ما بيّنه اللّه ورسوله بالكتاب والسنة لم يتيقنه أحد من الأمة" [٨]

---

٨) مختصر الصواعق المرسلة. ابن القيم ص٧٦

وباستقراء تفسير العلامة الألوسي، نجده لا يمنع أن يكون الظن بمعنى اليقين لكنه يقول: "وقيل يطلق الظن على العلم حقيقة وهو ظاهر كلام الرضي في أفعال القلوب، وفيه نظر."[٩].

قال الفخر الرازي في المحصول: "في تحديد العلم والظن: هذا المقصود إنما يتحقق ببحثين: الأول: أن حكم الذهن بأمر على أمر إما أن يكون جازماً أو لا يكون؛ فإن كان جازماً فإما أن يكون مطابقاً للمحكوم عليه أو لا يكون؛ فإن كان مطابقاً فإما أن يكون لموجب أو لا يكون؛ فإن كان لموجِب فالموجب إما أن يكون حسياً أو عقلياً أو مركباً منهما؛ فإن كان حسياً فهو العلم الحاصل من الحواس الخمسة، ويقرب منه العلم بالأمور الوجدانية كاللذة والألم؛ وإن كان عقلياً فإما أن يكون الموجِب مجرد تصور طَرَفي القضية أو لا بد من شيء آخر من القضايا: فالأول هو البديهيات والثاني: النظريات.

وأما إن كان الموجِب مركباً من الحس والعقل: فإما أن يكون من السمع والعقل وهو المتواترات؛ أو من سائر الحواس والعقل: وهو التجريبيات والحدسيات؛ وأما الذي لا يكون لموجِب فهو: اعتقاد المقلد؛ وأما الجازم غير

---

٩) روح المعاني. تفسير القران للألوسي ١٦ /٨١-٨٢

المطابق فهو الجهل؛ وأما الذي لا يكون جازماً: فالتردد بين الطرفين: إن كان على السوية فهو الشك؛ وإلا: فالراجح ظن والمرجوح وهم.

... ثم العبارة المحرَّرة أن الظن: تغليب لأحد مُجَوَّزين ظاهري التجويز، وهنا دقيقة: وهي أن التغليب إما أن يكون في المُعتَقَد أو في الاعتقاد؛ أما الذي في المعتقَد: فهو أن يكون الشيء ممكن الوجود والعدم إلا أن أحد الطرفين به أولى، كالغيم الرطب: فإن نزول المطر منه وعدم نزوله ممكنان لكن النزول أولى؛ وأما الذي يكون في الاعتقاد فهو أن يحصل اعتقاد الوقوع واعتقاد اللاوقوع كل واحد مع تجويز النقيض؛ لكن اعتقاد الوقوع يكون أظهر عنده من اعتقاد اللاوقوع فظهر أن اعتقاد رجحان الوقوع مغاير لاعتقاد رجحان اللاوقوع فهذا الثاني هو الظن فإن كان مطابقاً للمظنون: كان ظناً صادقاً وإلا كان ظناً كاذباً. وأما الأول: وهو اعتقاد رجحان الوقوع: فإن كان مطابقاً للمعتقَد كان علماً أو تقليداً على التفصيل المتقدم وإلا كان جهلاً. والله أعلم. إهـ."[١٠]

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: ..."ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات: الأول: أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك؛ الثاني: أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه

١٠) المحصول في علم أصول الفقه. الفخر الرازي ١/٩-١٦

ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول، كما إذا سُئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح، ومع هذا فأنت تُجوّز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريرته، فهذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه، فهذه الحالة تسمى ظناً.

الثالث: أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع، حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها؛ ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله.

الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء [المتكلمين]... وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً؛ فشرط إطلاق

هذا الاسم عندهم عدم الشك ... وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك."[١١]

وقال الزركشي في البحر المحيط: ضَابِطٌ: [ الْإِدْرَاكُ ] الْإِدْرَاكُ بِلَا حُكْمٍ تَصَوُّرٌ، وَمَعَ الْحُكْمِ تَصْدِيقٌ، لَكِنْ مَجْمُوعُهُمَا أَوْ الْحُكْمُ وَحْدَهُ فِيهِ خِلَافٌ، فَذَهَبَ الْقُدَمَاءُ إلَى أَنَّهُ الْحُكْمُ. وَاخْتَارَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ أَنَّهُ الْمَجْمُوعُ. وَمَالَ إلَيْهِ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ فِي شَرْحِ الْعُنْوَانِ "، وَهُوَ جَهْلٌ، إنْ كَانَ جَازِمًا غَيْرَ مُطَابِقٍ، وَتَقْلِيدٌ إنْ طَابَقَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِمُوجِبٍ، وَعِلْمٌ إنْ كَانَ لِمُوجِبٍ عَقْلِيٍّ أَوْ حِسِّيٍّ، أَوْ مُرَكَّبٍ مِنْهُمَا وَهُوَ الْمُتَوَاتِرَات، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَازِمًا فَإِنْ تَسَاوَى طَرَفَاهُ، فَهُوَ الشَّكُّ، وَإِلَّا فَالرَّاجِحُ ظَنٌّ صَادِقٌ إنْ طَابَقَ، أَوْ كَاذِبٌ إنْ لَمْ يُطَابِقْ، وَالْمَرْجُوحُ وَهْمٌ.[١٢]

وقال الزركشي أيضا في البحر المحيط: مسألة الظن:

الظَّنُّ هُوَ الِاعْتِقَادُ الرَّاجِحُ مِنْ اعْتِقَادَيْ الطَّرَفَيْنِ، وَكَذَا رُجْحَانُ الِاعْتِقَادِ لَا اعْتِقَادُ الرَّاجِحِ أَوْ الرُّجْحَانِ، فَاعْتِقَادُ الرُّجْحَانِ لِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إمَّا مُحَقَّقٌ عَنْ بُرْهَانٍ، وَهُوَ الْعِلْمُ، أَوْ لَا، وَهُوَ التَّقْلِيدُ وَالْجَهْلُ. فَهُوَ مُتَعَلَّقُ نَفْسِ الرُّجْحَانِ،

---

١١) إحياء علوم الدين. للإمام أبي حامد الغزالي. المجلد ١ ص ٨٨-٨٩

١٢) البحر المحيط > المقدمات > مفهوم النظر > أقسام النظر > مسألة النظر الفاسد لا يستلزم الجهل

وَهُوَ فِي نَفْسِهِ ثَابِتٌ لا رُجْحَانَ فِيهِ، وَأَمَّا رُجْحَانُ الاعْتِقَادِ بِأَنْ يَكُونَ فِي النَّفْسِ احْتِمَالانِ مُتَعَارِضَانِ إلا أَنَّ أَحَدَهُمَا أَرْجَح فِي نَظَرِهِ، فَالأَوَّلُ قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا فِي الْخَارِجِ، وَأَمَّا الثَّانِي فَلا يُتَصَوَّرُ إلا فِي الذِّهْنِ، وَقِيلَ: تَجْوِيزُ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَقْوَى مِنْ الآخَر. وَنُقِضَ بِالْجَزْمِ تَجْوِيزُ أَمْرَيْنِ وَلَيْس بِظَنٍّ. وَقِيلَ: تَغْلِيبُ أَحَدِ الْمُجَوَّزَيْنِ وَفِيهِ إجْمَالٌ ; لأَنَّ التَّغْلِيبَ إمَّا فِي نَفْسِ الْمُجَوَّز، وَإِمَّا فِي نَفْسِ الأَمْر، وَقَدْ يَكُونُ جَزْمًا وَقَدْ لا يَكُونُ، وَالثَّانِي قَرِيبٌ. وَقَالَ الآمِدِيُّ أَخِيرًا: إنَّهُ تَرَجُّح أَحَدِ مُمْكِنَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ فِي النَّفْسِ عَلَى الآخَر مِنْ غَيْر قَطْعٍ، وَتَارَةً: إنَّهُ تَرَجُّحُ وُقُوعِ أَحَدِ مُمْكِنَيْنِ عَلَى الآخَر مِنْ غَيْر قَطْعٍ. وَقَوْلُهُ: " مِنْ غَيْر قَطْعٍ ": يَعْنِي عِنْدَ ذِكْر الاحْتِمَالِ إلا أَنْ يُرِيدَ مِنْ غَيْر قَطْعٍ بِالتَّرْجِيحِ. وَحِينَئِذٍ فَهُوَ تَرَدُّدٌ بَيْنَ إرَادَةِ رُجْحَانِ الاعْتِقَادِ، وَهُوَ الْحَقُّ، وَبَيْنَ رُجْحَانِ الْمُعْتَقَدِ، أَوْ اعْتِقَادِ الرُّجْحَانِ وَلَيْس ذَلِكَ ظَنًّا.[١٣]

وقال الزركشي أيضا في البحر المحيط: مَسْأَلَةٌ [ اسْتِعْمَالُ الظَّنِّ بِمَعْنَى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ مَجَازٌ ] الْمَشْهُورُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الظَّنِّ بِمَعْنَى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ مَجَازٌ. وَيَتَلَخَّصُ مِنْ كَلامِ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ فِيهِ ثَلاثَةُ مَذَاهِبَ: أَحَدُهَا: أَنَّه حَقِيقَةٌ فِي الشَّكِّ مَجَازٌ فِي الْيَقِين، وَالثَّانِي: أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا فَيَكُونُ مُشْتَرَكًا. وَعَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ يَنْشَأُ خِلافٌ فِيمَا إذَا قُلْت: ظَنَنْت ظَنًّا. هَلْ يَتَعَيَّنُ لِلْيَقِين

---

١٣) البحر المحيط للزركشي مسألة الظن.

بِالتَّأْكِيدِ أَوْ الِاحْتِمَالُ بَاقٍ ؛ لِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا لَا حَقِيقَةٌ وَمَجَازٌ؟ وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ لَا يُسْتَعْمَلُ إلَّا فِي الشَّكِّ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ الْعَبْدَرِيِّ وَقَالَ: وَلَا يُعَوَّلُ عَلَى حِكَايَةِ مَنْ حَكَى " ظَنَّ ": بِمَعْنَى " تَيَقَّنَ " بَلْ الظَّنُّ وَالْيَقِينُ مُتَنَافِيَانِ.[١٤]

أما جمهور المفسرين وعلماء اللغة فقد ذهبوا إلى أن الظن إما أن يكون شكًا أو يقينًا؛ وأذكر أولا أقوالهم ثم أناقشها في فصل لاحق، كما أنني بحول الله سأناقش في فصل الشواهد الشعرية الأبيات المذكورة:

يقول ابن منظور في لسان العرب: "والظن شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر وأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم، ... والظن يقين وشك أنشد أبو عبيده:

ظنّي بهم كعسى وهم بتنوفة  يتنازعون جوائز الأمثال

يقول: اليقين منهم كعسى، وعسى شك قال أبو عمرو: معناه ما يظن بهم من الخير فهو واجب، وعسى من الله واجب، وفي التنزيل العزيز "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ" ٢٠ الحاقة أي علمت وقوله عز وجل "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ" أي علموا يعني الرسل أن قومهم قد كذبوهم فلا يصدقونهم،

---

١٤) البحر المحيط > المقدمات > فصل في مراتب العلوم > مسألة استعمال الظن بمعنى العلم

وفسرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على ما ذكرناه؛ قال الجوهري: الظن معروف وقد يوضع موضع العلم قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجَّج         سراتهمُ في الفارسيِّ المسرّد

أي استيقنوا، وإنما يخوِّف عدوه باليقين لا بالشك"[١٥] وقال أبو جعفر: "إن العرب قد تسمي اليقين ظنًا، والشك ظنًا نظير تسميتهم الظلمة سُدفة، والضياء سُدفة، كقول عميرة بن طارق:

بأن يَغْتَزوا قومي وأقعد فيكم         وأجعل مِنِّي الظن غيبًا مُرَجَّما

يعني: وأجعل مني اليقين غيبًا مرجمًا"[١٦] "وأصل الظن وقاعدته: الشك مع ميل إلى أحد معتقديه (يعني التصديق أو التكذيب) وقد يوقع موقع اليقين كما في الآية: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ" ٤٦ البقرة وكقول أبي داود:

رُبّ همّ فرّجته بغريم         وغيوبٍ كشفتها بظنون

---

١٥) لسان العرب. ابن منظور ج١٣ ص٢٧٢

١٦) جامع البيان في تفسير القران. الطبري. الريان للتراث. ج١ ص٢٠٦

لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس لا تقول العرب في رجل حاضر مرئي: أظن هذا إنساناً وإنما تجعل الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد كقوله تعالى: "فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا""[١٧]

"وقال أبو بكر الأنباري: وقد حدثنا أحمد بن يحيى النحوي: أن العرب تجعل الظن علماً وشكًا وكذبًا وقال: إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظن يقين، وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظن شك، وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظن كذب، قال الله تعالى: "وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ" ٧٨البقرة يعني يكذبون" [١٨]

"قال الضحاك: كل ظن في القران من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك وقال مجاهد: ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك"[١٩]. ويقول الأصفهاني: "الظن اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم، ومتى قوي أو تُصوِّر تَصوُّر القوي استعمل معه أنَّ المشددة و(أنِ) المخففة منها ومتى ضعف استعمال أنِ

---

١٧) الجامع لأحكام القران. القرطبي. ج١ص٣٧٤
١٨) الجامع لأحكام القران. القرطبي. ج٢ص٦
١٩) الجامع لأحكام القران. القرطبي. ج١٨ص٢٧٠

المختصة بالمعدومين من القول والفعل[٢٠] فقوله "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة و"يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ" ٢٤٩ البقرة فمن اليقين، "وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ" ٢٨ القيامة وقوله "أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ" ٤ المطففين، وهو نهاية في ذمهم ومعناه: ألا يكون منهم ظن لذلك تنبيهًا أن أمارات البعث ظاهرة، وقوله "وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ" ٢٤ يونس، تنبيهًا أنهم صاروا في حكم العالمين لفرط طمعهم وأملهم، وقوله "وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ" ٢٤ ص، أي علم، وقوله "وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ" ٨٧ الأنبياء فقد قيل:

الأولى أن يكون من الظن الذي هو التوهم، أي ظن أن لن نضيق عليه، وقوله "وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ" ٣٩ القصص، فإنه استعمل أنّ المستعمل مع الظن الذي هو للعلم تنبيهاً أنهم اعتقدوا ذلك الشيء اعتقادهم للشيء المُتَيَقَّن وإن لم يكن ذلك مُتَيَقَّناً، وقوله "يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ" ١٥٤ آل عمران أي يظنون أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يَصدُقهم فيما أخبرهم به كما ظن الجاهلية، تنبيهاً أن هؤلاء المنافقين هم في حيز الكفار وقوله "وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم" ٢ الحشر أي اعتقدوا اعتقاداً كانوا منه في حكم

---

٢٠) في الهامش: هذا النقل حرفياً في البصائر٣/٥٤٥ وعمدة الحفاظ: ظن.

المتيقنين وعلى هذا قوله "وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ" ٢٢فصلت، وقوله "الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ" ٦ الفتح هو مُفَسَّر بما بعده وهو قوله "بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ" ١٢ الفتح "إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" ٣٢ الجاثية والظن في كثير من الأمور مذموم ولذلك قال تعالى "وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا" ٣٦ يونس "وإِنَّ الظَّنَّ" ٢٨ النجم "وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ" ٧ الجن ؛وقُرئ "وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ" ٢٤التكوير أي بمتهم، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ودويس"[٢١] وقال العلامة اللغوي الشيخ أحمد رضا: "الظن: شك ويقين، ليس يقين عيان بل يقين تدبر؛ الشك الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم، حالة من الاعتقاد دون اليقين وفوق الشك"[٢٢] وقال السمين الحلبي: "...والظن: ترجيح أحد الطرفين على الآخر نفياً وإثباتاً وقد يعبر به عن اليقين والعلم كما يعبر بالعلم عنه مجازاً ...قال بعضهم: إنما جاز استعمال كل من الظن والعلم في موضع الآخر لعلاقة أنّ كلا منهما فيه رجحان أحد الطرفين إما جزما –وهو العلم- وإما ترددا –وهو الظن-."[٢٣]

---

٢١) مفردات ألفاظ القران. الراغب الأصفهاني ص٥٣٩-٥٤٠

٢٢) معجم متن اللغة. للعلامة اللغوي أحمد رضا. المجلد الثالث ص ٦٦٧

٢٣) عمدة الحفاظ. السمين الحلبي. ج٣ ص١٩-٢٠ والصواب غير الجازم، "غير" موغلة في التنكير

أما الشيخ أبو النصر السمرقندي الحدادي فيقول: "إن سُئل عن قوله تعالى: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦البقرة أليس هذا صفة للمؤمنين؟ والظن هو الشك فكيف يجوز وصف الموقنين بالشك؟ الجواب وبالله التوفيق: إن حد الظن هو الوقوف بين النقيضين فهو اسم من أسماء الأضداد فالظن هو اليقين والشك معًا لأن أحد طرفيه شك والثاني يقين، وارد في القران وفي أشعار العرب موجود: أما نظيره في القران: فقوله تعالى "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠الحاقة أي أيقنت فهذه بمعنى اليقين، وأما بمعنى الشك فكقوله تعالى "وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا" ٧الجن وقوله تعالى "وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ" ٢٣ فصلت وأشباه ذلك من المتضادين من قول العرب: الصبح صريم والليل صريم"[٢٤]

ويرى الأستاذ فتحي سليم أنه "يخطئ من يقول بأن كلمة الظن من الأضداد، أي أنها تفيد الظن وتفيد العلم، سواء كان القائل بهذا من علماء اللغة أو غيرها فإن هذا مردود بأبسط الأمور إذ كيف نقول بذلك الرأي، مع اجتماع الكلمتين على طرفي النقيض في أكثر من آية واحدة، كقوله تعالى "وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" ٢٤ الجاثية، وقوله "قُلْ هَلْ

---

٢٤) المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى. لأبي النصر الحدادي ١٩٧-١٩٨

عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ" ١٤٨ الأنعام وقوله "مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ" ١٥٧النساء، وآيات مثلها كثيرة فكيف تفيد كلمة الظن: العلم والظن معاً، ككلمة القرء مثلا (الطهر والحيض) فهذا بعيد جداً، ولو كانت كذلك لما وردت الكلمتان في آية واحدة.

أما قول محمد بن القاسم الأنباري بأن كلمة الظن هي من الأضداد؛ أي أنها تفيد الشك واليقين، ويأتي بشواهد على ذلك ولكنه يختتم كلامه بقوله: (وقال أبو العباس إنما جاز أن يقع الظن واليقين لأنه قول بالقلب، فإذا صحت دلائل الحق وقامت أماراته كان يقيناً، وإذا قامت دلائل الشك وبطلت دلائل اليقين كان كذبًا وإذا اعتدلت دلائل اليقين والشك كان على بابه لا يقينًا ولا كذبًا) فهو هنا يخرج بالخلاصة التي قلنا بها، وهي وجود الأمارات والقرائن التي ترفع الظن إلى مرتبة اليقين أو تهبط به إلى مستوى الشك أو التكذيب ولذلك يبقى الظن ليس من الأضداد بل يبقى على طبيعته من حيث دلالته اللغوية وهي إفادة الاحتمالين مع ترجيح أحدهما."[٢٥].

---

٢٥) الإستدلال بالظني في العقيدة، فتحي سليم ص٣٤ عن الأضداد للأنباري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

# فصل: آية : "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا"

## (النساء : ١٥٧)

أقول: بل قد جاءت كل الألفاظ مجتمعة في آية واحدة لتبين تمايزها "وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا" ١٥٧ النساء.

يقول العلامة الألوسي رحمه اللّه: "لفي شك منه: أي لفي تردد، وأصل الشك أن يُستعمل في تساوي الطرفين، وقد يُستعمل في لازم معناه وهو التردد مطلقًا، وإن لم يترجح أحد طرفيه وهو المراد هنا، ولذا أكّده بنفي العلم الشامل لذلك أيضاً بقوله سبحانه "مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ" والاستثناء منقطع أي: لكنهم يتبعون الظن [أرجو ملاحظة هذه الملاحظة الهامة] وجُوِّزَ أن يُفسّر الشك بالجهل، والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره؟ فالاستثناء حينئذ متصل، وإليه ذهب ابن عطيّة إلا أنه خلاف المشهور وما قيل: إن اتباع الظن ليس من العلم قطعاً، فلا يُتصوَّر

اتصاله، فمدفوع بأن من جعله بمعنى الظن المتَّبَع **(وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا)**، الضمير لعيسى عليه السلام كما هو الظاهر أي ما قتلوه قتلا يقيناً، أو متيقنين، ولا يرد أن نفي القتل المُتَيَقَّن يقتضي ثبوت القتل المشكوك؛ لأنه لنفي القيد ولا مانع من أنه قَتْلٌ في ظنهم، فإنه يقتضي أنه ليس في نفس الأمر كذلك، فلا حاجة إلى التزام جعل يقيناً مفعولا مطلقًا لفعل محذوف، والتقدير: تيقنوا ذلك يقيناً.

وقيل: هو راجع إلى العلم، وإليه ذهب الفرّاء وابن قتيبة أي وما قتلوا العلم **(يقيناً)** من قولهم: قتلت العلم والرأي، وقتلت كذا علماً، إذا تبالغ علمك فيه وهو مجاز كما في الأساس، والمعنى: ما علموه يقيناً.

وقيل: الضمير للظن: أي ما قطعوا الظن **(يقيناً)**، ونقل ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والسدي، وحكى ابن الأنباري أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وأن **(يقيناً)** متعلق بقوله تعالى **(بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ)** أي بل رفعه سبحانه إليه يقيناً، وردّه في البحر بأنه قد نص الخليل على أنه لا يعمل ما بعد، بل فيما قبلها والكلام يرد، وإنكار لقتله وإثبات لرفعه عليه الصلاة والسلام وفيه تقدير مضاف عند أبي حيان أي إلى سمائه ..."[٢٦]

---

٢٦) روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني للعلامة محمود الألوسي ج٤ص١٨

قال الفخر الرازي: "واعلم أنه تعالى لما حكى عن اليهود أنهم زعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فاللّه تعالى كذّبهم في هذه الدعوى وقال: "**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ**" وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: قوله "شبه" مسند إلى ماذا؟ إن جعلته إلى المسيح فهو مُشَبَّهٌ به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر.

والجواب من وجهين: الأول أنه مسند إلى الجار والمجرور، وهو كقولك: خيّل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم الشبه.

الثاني: أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله "**وَمَا قَتَلُوهُ**" يدل على أنه وقع القتل على غيره فصار الغير مذكوراً بهذا الطريق فحسن إسناد "شبه" إليه"."[٢٧]

وقال في موضع آخر" "وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ" واعلم أن هذا اللفظ يحتمل وجهين:

أحدهما: يقين عدم القتل، والآخر: يقين عدم الفعل، فعلى التقدير الأول يكون المعنى: أنه تعالى أخبر أنهم شاكون في أنه هل قتلوه أم لا، ثم أخبر محمداً بأن اليقين حال بأنهم ما قتلوه، وعلى التقدير الثاني يكون المعنى

---

٢٧) التفسير الكبير. الفخر الرازي. الجزء ١١ ص ٢٦٠

أنهم شاكون في أنه هل قتلوه؟ ثم أكد ذلك بأنهم قتلوا ذلك الشخص الذي قتلوه لا على يقين أنه عيسى عليه السلام، بل حينما قتلوه كانوا شاكين في أنه هل هو عيسى أم لا، والاحتمال الأول أولى، لأنه تعالى قال بعده "**بل رفعه الله إليه**" وهذا الكلام إنما يصح إذا تقدم القطع واليقين بعدم القتل"[٢٨]

يقول ابن الجوزي: "وقوله تعالى "**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ**" في المختلفين قولان: أحدهما: أنهم اليهود، فعلى هذا في هاء "**فيه**" قولان، أحدهما: أنها كناية عن قتله، فاختلفوا هل قتلوه أم لا؟ وفي سبب اختلافهم في ذلك قولان: أحدهما أنهم لما قتلوا الشخص المشبَّه لهم كان الشبه قد أُلقي على وجهه دون جسده، فقالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره، ذكره ابن السائب، والثاني أنهم قالوا: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ يعنون الذي دخل في طلبه، هذا قول السدي.

والثاني: أن "الهاء" كناية عن عيسى، واختلافهم فيه قول بعضهم: هو ولد زنى، وقول بعضهم، هو ساحر.

---

٢٨) المرجع نفسه ص٢٦٢

والثاني: أن المختلفين النصارى، فعلى هذا في هاء "**فيه**" قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى قتله هل قُتل أم لا؛ والثاني: أنها ترجع إليه هل هو إله أم لا، وفي هاء "**منه**" قولان: أحدهما أنها ترجع إلى قتله، والثاني: إلى نفسه هل هو إله، أم لغير رشدة، أم هو ساحر.

قوله تعالى "**مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**" قال الزجاج: إتباع، منصوب بالاستثناء وهو استثناء ليس من الأول؛ والمعنى: ما لهم به من علم، إلا أنهم يتبعون الظن؛ وإن رُفع جاز على أن يجعل علمهم اتباع الظن كما تقول العرب: تحيتك الضرب [أرجو التفكر بهذا المعنى].

قوله تعالى: "**وَمَا قَتَلُوهُ**" في الهاء ثلاثة أقوال: أحدها؛ أنها ترجع إلى الظن فيكون المعنى: وما قتلوا ظنهم يقينًا؛ هذا قول ابن عباس؛ والثاني: أنها ترجع إلى العلم: أي ما قتلوا [العلم به] يقيناً؛ تقول: قتلته يقيناً وقتلته علماً هذا قول الفراء وابن قتيبة، وأصل هذا أن القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء وغلبة؛ يقول: فلم يكن علمهم بقتل المسيح علمًا أُحيط به، إنما كان ظنًا. والثالث: أنها ترجع إلى عيسى: فيكون المعنى: وما قتلوا عيسى حقاً هذا قول الحسن، وقال ابن الأنباري: اليقين مؤخَّر في المعنى فالتقدير: وما قتلوه بل رفعه الله إليه يقينًا"[٢٩]. "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ"

---

٢٩) زاد المسير في علم التفسير.ابن الجوزي ٢/٢١٨-٢١٩

المقتول والمصلوب وهو صاحبهم عيسى أي ألقى الله عليه شبهه فظنوه إياه "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ" أي في عيسى "لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ" من قتله: حيث قال بعضهم لما رأوا المقتول: الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده، فليس به وقال آخرون: بل هو هو "مَا لَهُم بِهِ" بقتله "مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ" استثناء منقطع أي لكن يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه "وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا" حال مؤكدة لنفي القتل"[٣٠]. وقال الشيخ رشيد رضا: ""وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ" أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي شك من حقيقة أمره أي في حيرة وتردد، ما لهم به من علم ثابت قطعي، لكنهم يتبعون الظن أي القرائن التي ترجح بعض الآراء الخلافية على بعض.

فالشك الذي هو التردد بين أمرين شامل لمجموعهم لا لكل فرد من أفرادهم، هذا إذا كان –كما يقول علماء المنطق- لا يستعمل إلا فيما تساوى طرفاه بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر، والذين يتبعون الظن في أمره هم أفراد رجحوا بعض ما وقع الاختلاف فيه على بعض بالقرائن أو بالهوى والميل.

---

٣٠) تفسير الجلالين. دار الكتب العلمية ص ١٤٢

والصواب أن هذا معنى اصطلاحي للشك وأما معناه في أصل اللغة فهو نحو من معنى الجهل، وعدم استبانة ما يجول في الذهن من الأمر، قال الركّاض الدبيري:

يشك عليك الأمر ما دام مقبلا وتعرف ما فيه إذا هو أدبرا

فجعل المعرفة في مقابل الشك. وقال ابن الأحمر:

وأشياء مما يعطف المرء ذا النهى تشك على قلبي فما أستبينها

وفي لسان العرب أن الشك ضد اليقين. فهو إذاً يشمل الظن في اصطلاح أهل المنطق: وهو ما ترجح أحد طرفيه. فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أكان هو المصلوب أم غيره؟ فبعض المختلفين في أمره الشاكين فيه يقول أنه هو، وبعضهم يقول أنه غيره وما لأحد منهما علم يقيني بذلك وإنما يتبعون الظن. وقوله تعالى "**إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**" **استثناء منقطع** كما علم من تفسيرنا له... "**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**" أي وما قتلوا عيسى بن مريم قتلا يقيناً أو متيقنين أنه هو بعينه، لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة ... "[٣١].

٣١) تفسير القران الحكيم الشهير بتفسير المنار. محمد رشيد رضا ٦/١٩-٢٠

قال العلامة محمد متولي الشعراوي في تفسيره: "النسب أنواع متعددة؛ فالعلم نسبة أجزم بها وهي واقعة وأستطيع أن أُدلل عليها ؛ فإن كنت غير جازم فإن كانت النسبة متأرجحة فالشك ؛وإن كانت راجحة فالظن أو مرجوحة فالوهم وفي هذه الآية كان الأمر لديهم بادئ الأمر شكاً ثم ترجح لديهم أن هذا الأمر قد حصل، فانتهى شكهم ليصل إلى الظن فالقرائن ترفع الشك إلى الظن فالعلم."[٣٢]

وقال الشوكاني في فتح القدير: "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ" أي في شأن عيسى فقال بعضهم: قتلناه، وقال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه[٣٣].."مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ" من زائدة لتوكيد نفي العلم [أقول الأولى أن نقول لنفي أي نوع من العلم مهما تضاءل] والاستثناء منقطع؛ أي لكنهم يتبعون الظن؛ وقيل: هو بدل بما قبله. والأولى أولى.

لا يقال: إن اتباع الظن ينافي الشك الذي اخبر اللّه عنهم أنهم فيه لأن المراد هنا بالشك: التردد كما قدمنا والظن نوع منه، وليس المراد به هنا: ترجيح أحد الجانبين.

---

٣٢) تفسير القران العظيم للشعراوي. الآية ٤٦ البقرة والآية ١٥٧ النساء
٣٣) فتح القدير من علم التفسير. الشوكاني ١/٨٤٢-٨٤٣

قوله: "وما قتلوه يقيناً" أي قتلا يقيناً على أنه صفة مصدر محذوف؛ أو متيقنين على أنه حال؛ وهذا على أن الضمير في قتلوه لعيسى، وقيل إنه يعود إلى الظن والمعنى: ما قتلوا ظنهم يقيناً كقولك قتلته علماً إذا علمته علماً تاماً، قال أبو عبيدة: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً، لقال وما قتلوه فقط.

وقيل: المعنى وما قتلوا الذي شبه لهم وقيل المعنى بل رفعه الله إليه يقيناً، وهو خطأ؛ لأنه لا يعمل لا بعد بل فيما قبلها، وأجاز ابن الأنباري نصب يقيناً بفعل مضمر هو جواب قسم، ويكون "بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ" كلاماً مستأنفاً ولا وجه لهذه الأقوال؛ والضمائر قبل قتلوه وبعده لعيسى؛ وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة"[٣٤]

وقال الزمخشري: ""إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ": استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم يعني ولكنهم يتبعون الظن، فإن قلت: قد وُصفوا بالشك والشك ألا يترجح أحد الجائزين، ثم وُصفوا بالظن؛ والظن أن يترجح أحدهما فكيف يكونون شاكّين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكّون ما لهم من علم قط،

---

٣٤ فتح القدير. الشوكاني تحقيق د. عبد الرحمن عميرة ١/٨٤٢-٨٤٣

ولكن أنّى لاحت لهم أمارة فظنوا فذاك (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) وما قتلوه قتلا يقيناً، أو ما قتلوه متيقنين كما ادّعوا "[٣٥]

جاء في اللباب في علوم الكتاب: "قوله "لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ" "مِّنْهُ" في محل جر صفة ل"شَكٍّ" يتعلق بمحذوف، ولا يجوز أن تتعلق فضلةٌ بنفس "شَكٍّ" لأن الشك إنما يتعدى ب"في" لا ب"من" ولا يقال: إن من بمعنى في فإن ذلك قول مرجوح.... "مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ" مرفوع بالفاعلية، والعامل أحد الجارّين: إما "لهم" وإما "به" وإذا جُعل أحدهما رافعاً له، تعلق الآخر بما تعلق به الرافع من الاستقرار المقدر، و"من" زائدة لوجود شرطي الزيادة؛ والوجه الثاني: أن يكون "مِنْ عِلْمٍ" مبتدأ زيدت فيه "من" أيضا وفي الخبر احتمالان: أحدهما: أن يكون "لهم" فيكون "به" إما حالا من الضمير المستكن في الخبر، والعامل فيها الاستقرار المقدر، وإما حالا من "علم" وإن كان نكرة، لتقدمها عليه، ولاعتماده على نفي، ... والاحتمال الثاني: أن يكون "به" هو الخبر، و"لهم" متعلق بالاستقرار، كما تقدم، ويجوز أن تكون اللام مبنية مخصَّصة كالتي في قوله "وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" ٤ الإخلاص"[٣٦]

---

٣٥) الكشاف. الزمخشري ٢/ ١٧٥-١٧٦

٣٦) اللباب في علوم الكتاب. الدمشقي الحنبلي. ١١٤/٧-١١٥.

## باب: ما أراه في الآية الكريمة:

**أقول وبالله المستعان**؛ منطلقًا من أن المصطلحات القرآنية منضبطة بشكل دقيق لا تختلط؛ وبناء على ما تقرر من حقيقة الشك والظن والعلم واليقين أرى تفسير الآية كالآتي:

أولا: علينا أن نقرر أن الآيات تتناول بشكل رئيس قضية قتل عيسى وصلبه وأنه شبه لهم، فمن هذا المحور نجد أن التأويلات التي تشعبت في الهاءات الواردة يجب أن تُحصر فيما يخدم السياق وواقعة القتل والصلب وبما يناسب ذلك من اعتقاد نشأ عن ذلك. الأمر الثاني: نستبعد الرأي القاضي بشكهم على أساس أن الجسد ليس بجسده، لأنهم ما كانوا يعرفونه ودلهم عليه الذي شُبه لهم وهم يقولون أنه يهوذا الإسخريوطي! والشك نشأ لدى اختفاء المسيح عليه السلام وبقاء المشبه وهو يرى عزمهم على القتل فيقول لهم أنا لست هو، فاحتاروا إن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وإن كان عيسى فأين صاحبنا؟

والأمر الآخر هو الربط بما سبق من آيات، فقد قال الله تعالى قبلها بآيتين: "فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ... ١٥٥" فدأبهم هو قتل الأنبياء وهنا حاولوا قتله، ولكن الله ينفي يقيناً أنهم قتلوه عليه السلام، ونلاحظ تكرار قول الحق "وما قتلوه" فقد قال "وما

قتلوه وما صلبوه" وقال "وما قتلوه يقيناً" فكأن في الكلام جملتين منقطعتين تؤكدان حقيقة عدم قتله: الأولى تصف الحادثة، والثانية تربط بالآية ١٥٥ أي أنهم قتلوا الأنبياء قبله لكنهم يقيناً لم يقتلوه هو "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ" هنا يبدأ تفنيد مزاعمهم من قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول اللّه؛ ثم يخبر بعد أن شبه اللّه لهم غيره كيف أنهم شكوا فيه أهو المسيح أم لا، فقد اختفى الذي دلهم عليه؛ فقد كانوا اثنين المسيح والمشبه، ثم لما قبضوا على المشتبه به لم يجدوا إلا واحداً، يقول لهم أنا لست عيسى وهو يرى عزمهم على قتله، فوقع الشك هنا إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى، وهنا استوى احتمال النقيضين لديهم وهو ما عبر عنه القران بالشك "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ" أهو عيسى أم صاحبنا "لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ" والفرق بين (منه وفيه) هنا، هو أنه لو قال: لفي شك فيه، لكان في طبيعته أهو إله مثلا، ولكن "لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ" أي من شخصه هل هو عيسى أم صاحبهم.

لاحظ كذلك أولا أن الحق سبحانه بدأ بذكر القتل قبل الصلب وبدأ بذكر الشك قبل العلم الذي صفته أنه ظن.

نلاحظ من قوله تعالى: "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ" أنها تشمل الفئات التالية: اليهود، وهم المتهمون بالجريمة، والمدّعون بأنهم قتلوا، فهؤلاء

اختلفوا فيه أهو عيسى أم أنه شبه لهم، وشكّوا، وقتلوا، ولم يقم لهم اعتقاد بناء على ذلك، ونفى الله تعالى يقيناً أن يكونوا قد قتلوا عيسى عليه السلام.

والفئة الثانية: النصارى من المعاصرين أو المشاهدين، وهم أيضاً شكّوا، ووقتها لم يقم اعتقاد لهم على أنه إله، أو بما قالت به النصارى بعد ذلك، وبعض الروايات تبين أنه أخبرهم عليه السلام بأن شبهه سيلقى على غيره، والفئة الثالثة: هي النصارى المتأخرون؛ وهؤلاء لم يشاهدوا ولم يصدقوا أن المقتول كان غير عيسى، بل كان عندهم اعتقاد بأن عيسى عليه سلام الله قتل وصلب، (على خلاف بينهم) ووصف الله اعتقادهم هذا بأنه ظن لا يغني من الحق شيئاً، وإن كان في نظرهم علماً.

لذلك عندما أخبر الحق سبحانه أنهم اختلفوا فيه بدأ بيان اختلافهم بشكهم منه، أهو عيسى أم صاحبهم.

الأمر الثاني هو ذكر (فيه) مقرونة بالاختلاف، والتي ناسبت الموضوع إذ أنه يتعلق بشكهم في شخصه وفي طبيعته ويدخل أيضاً هنا اعتقادهم، وهو الأهم لأن ذكر الصلب مقروناً بعيسى وبالنصارى لم يرد في القران إلا هنا، فمن الطبيعي إبراز علاقة الآية بالعقيدة التي يحملها النصارى، (ونلاحظ أن ذكر نفي الصلب بعد نفي القتل له أهميته، فكونه لم يُقتل يعني بالضرورة أنه لم يُصلب، ولكن تكرار النفي يبين ما لدور الاعتقاد من أهمية، فالآية

تتحدث عن القتل والصلب، أي عن القتل والاعتقاد الـذي بُنــي عليـه.)، لـذلك كان ذكر العلم الذي وصفه الحق بأنه الظـن تاليـاً بعـد ذكـر الشـك المتعلـق بالشك منه، فهو وصف للاعتقاد الناشئ بعد ذلك لديهم فيه عليه السلام.

إذن فاختلاف اليهود داخل في (**فيه**) فطبيعة اختلافهم فيه هـل هـو هـو أم غيره، وخصهم الله ببيان (شكهم منه)، لأنهم هم الذين قاموا بالجريمـة، ولا بد من إبراز أهم عنصر في هذه العملية، وهو الشـك، وأمـا النصـارى فقـد بنوا على هذه الحادثة عقيدة ادعوا أنها العلم، وبين الله لهـم أن هـذا العلـم ما هو إلا ظن، فلا علاقة بين الظن والشك، كما قال بعض المفسرين من أن شكهم ارتقى ليصير ظناً، فعلماً، بل الناظر الممعن يرى أن الظن ذُكِـرَ صـفةً لطبيعة العلم الذي عندهم، أي الاعتقاد، وهـو أن هـذا العلـم مـا هـو إلا ظـن، ليس بميزان الحق علماً أبداً.

من هنا كان هذا الوجه لتفسير الآية –وهو الـذي أراه- أن الشـك متعلـق بشخصه أهو هو أم غيره، وهو خاص باليهود وبالحادثة نفسها، أي بـالتحقق منه أهو هو أم غيره، وأما العلم الذي صفته في ميزان العلم أنـه "ظـن" فهـو خاص بالاعتقاد الذي بنى عليه النصارى إلى يوم الدين عقيدتهم من قولهم بالقتل والصلب. والله أعلم.

"وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ " لاحظ أنه ذكر القتل أولا وعلق عليه بالشك، ثم الصلب وهو الذي قامت عليه عقائد النصارى ثانياً، وعلق عليه بالظن الذي كان في نظرهم علماً بين أنه في ميزان الحق ظن لا يغني من الحق شيئاً.

ولا بد من ملاحظة مدى أهمية ذكر شكهم فيما يخص شخص المقتول أهو عيسى أم صاحبهم، فقد ابتدأ ب "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ" فذكر "فيه" في مجال خلافهم، ليدخل الخلاف والشك في طبيعته كما في شخصه، كما ذكر "**منه**" فيما يتعلق بالشك، لبيان مقدار توغل الشك في أساس عقيدتهم، وذلك لأنه في معرض إقامة الحجة على النصارى نبين أن هذا (العلم) بالقتل والصلب، ما كان مبنياً على يقين ولا حتى على ظن، لكيلا يُتوهم أن هذا الظن غالب قد يصل إلى اليقين، فكونه ابتداء قام على الشك، كان حتى الظن بالقتل من أنه تم على عيسى ما هو إلا ظن قريب من الشك.

والآية أساساً تتحدث عن القتل، وكان ذكر الشك لهذا الغرض والله أعلم.

الوجه الثاني –وله علاقة وثيقة بالأول-: ثم تستأنف الآية ما ابتدأت به من قول الحق سبحانه "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ" فيقول

"مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ" أي ما لهم بقتل عيسى وصلبه من علم إلا اتباع الظن، (وهذا أساس عقيدتهم في الصلب، فهي عقيدة مبنية على الظن)، وهذا يتضح من استخدام "به" في "مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ" فالباء تعود على: بقتله وصلبه أو على المقتول والمصلوب، فتخص القتل في الحالتين، وبالتالي الاعتقاد بالصلب -وهو كما أسلفنا محور الآيات- فهم (خاصة متأخروا النصارى) رجحوا أن من قُتل وصلب هو عيسى، فكان مبلغهم من العلم بالقتل والصلب هو اتباع الظن، فقالوا بالقتل بناء على اعتقاد أن عيسى قُتل، وهنا الفرق الدقيق بين ذكر الشك وذكر الظن، فالظن هنا متعلق بالاعتقاد الناتج بعد عملية القتل والصلب نفسها، والتي قامت على شكهم، **وعليها قام اعتقادهم**، وكونه ارتبط بعقيدة كان لا بد أن يترجح في نظرهم أنه ظن بل يقين، وصفه الله بالظن، أي أن يقينهم هذا لا يعدو كونه ظناً في أرقى الحالات، وذلك لأن متأخري النصارى بنوا أساس عقيدتهم على هذا الوهم، فكان الذي عند أصحاب الجريمة شكاً وعند بعضهم ظناً، كان عند متأخريهم يقيناً، لكنه في نظر الحق ظن لا يغني من الحق شيئاً، ولا مجال للحديث عن شك بالنسبة لهم بل هو اعتقاد، لكنه من نوع الخرص لأن اعتقادهم الظن، كما أن تحية البعض الضرب! من هنا كان استعمال العلم الذي صفته الظن أولى، خاصة وأن الحديث عن متأخري النصارى هو المهم، بالنسبة للمسلم الذي يخاطبه القران مبيناً ما الذي

حدث، فالشك خاص بالشخص الذي أمامهم: هل هو عيسى أم صاحبهم، فحادثة الشك كانت لدى قبضهم على المُشَبَّهِ لهم، والقتل والصلب قاما على الشك، ولا نقول بما فسرها البعض من أنهم ما كانوا ليقتلوه إلا بعد أن رجحوا أنه عيسى، ما صدقوا بإمكانية حدوث خوارق، فحصل لهم الظن بعد أن كان الشك هو العنصر الغالب، لأن الحق سبحانه لم يربط بين الظن والشك في الآية، بل جعل الشك طرفاً خاصاً بالقتل (هل قتلوه هو أم غيره) والتحقق من المقتول، وجعل العلم الذي صفته في ميزان الحق ظن لا يغني من الحق شيئاً طرفاً آخر خاصاً بالعقيدة التي نشأت عنه، فقال: "**ما لهم به من علم إلا اتباع الظن**" فلم يجعل الظن حالة نتجت بعد الشك، بل جعل الشك في حد والعلم الذي صفته أنه الظن في حد.

(أي هنالك موضوعان حدثا متتابعين كان العنصر الغالب في الأول الشك (وهو التحقق من شخص عيسى وكذلك القتل والصلب) وفي الثاني العلم الذي صفته الظن، (وهو الاعتقاد بالقتل والصلب) هذا من باب، ومن باب آخر كان الحديث المتعلق بالاعتقاد أساسه ادعاء بأنه علم، بين الحق أساسه البالي وأن هذا النوع من الخرص لا يعدو أن يكون ظناً لا يسمن من جوع) سواء أكان الاستثناء منقطعاً على أساس "مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ" نفي وجود العلم كلية "إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ" أي إلا أنهم يتبعون الظن؛ أو كان الاستثناء متصلا على أساس أن علمهم مبني على الظن فهم يحسبون هذا الذي

اعتقدوه علماً لكنه مبنيّ على الظن وأصلا ابتدأ بالشك، فلا يمكن أن يعتبر في ميزان الحق علماً؛ كما يعتقد أي غوي يتبع الظن أن ما عنده من خرص مبني على الظن ما هو إلا علم، فإن الميزان الحق العلمي الذي وضعه الله لوزن الأفكار والدعاوى لا يقيم وزناً لمثل هذه الترهات المبنية على الظن، فما بني على الظن لا يسمى علماً أبداً؛ وإن ادعى صاحبه أنه العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

وهنا الفرق بين العلم والظن، فلو كان العلم والظن مستويان في هذه الآية لكان اعتقادهم مقبولا، ولما كان موضع سخرية، باعتبار أن علمهم الظن، فالمقبول هو العلم العلم!

من هنا نرى أن الألفاظ كلها مجتمعة في آية واحدة فصلت بين الشك والظن والعلم واليقين فصلا تاماً فليست من الأضداد.

والتضاد: "وهو أن يُطلق اللفظ الواحد على المعنى وضده وهو فرع من المشترك اللفظي ولكنه مُيِّز عنه لأن المعنيين اللذين يحملهما اللفظ الواحد متقابلان، فسمي التضاد، وقد اختلف العلماء في وقوعه في اللغة؛ فقال قوم بعدم وروده في اللغة العربية وعملوا على تأويل أمثلته تأويلا يخرجها من هذا الباب، ومن أشهر هؤلاء "ابن دستويه" الذي جحد الأضداد جميعها، وكتب في ذلك تأليفاً خاصًا سماه "إبطال الأضداد"، وروى ابن سيده

في كتابه "المخصص" أن أحد شيوخه كان ينكر الأضداد التي حكاها أهل اللغة وأن تكون لفظة واحدة لشيء وضده. وذهب فريق آخر إلى كثرة وروده وضرب له عددًا كبيرًا من الأمثلة، ومن هؤلاء الخليل وسيبويه وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري وابن فارس وابن سيده وابن دريد والثعالبي والمبرد والسيوطي"[٣٧] ولنتابع بعض آراء علماء اللغة في لفظة من المتضاد وهي السُّدْفَة مثلا: "يقول أبو جعفر: إن العرب قد تسمي اليقين ظنًا والشك ظنًا نظير تسميتهم الظلمة سُدفة والضياء سُدفة"[٣٨] ويقول الثعالبي: "السُّدفة: ما بين المغرب والشفق، وما بين الفجر والصلاة (عن عمارة بن عقيل عن بلال بن جرير)"[٣٩] وفي نفس الكتاب يقول الثعالبي: "ساعات الليل: الشفق ثم الغسق ثم العتمة ثم السدفة ثم الفحمة ثم الزُّلّة ثم الزُّلْفة ثم البهرة ثم السحر ثم الفجر ثم الصبح ثم الصباح"[٤٠] ويقول السمرقندي: "من المتضادين من قول العرب: الصبح صريم والليل صريم لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه (قال ابن منظور: الصرم: القطع البائن والصريم: الصبح لانقطاعه عن الليل والصريم: الليل لانقطاعه عن النهار ويتابع السمرقندي:

---

٣٧) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القران. عودة خليل أبو عودة ص٦٠

٣٨) جامع البيان في تفسير القران. الطبري ٢٠٦/١

٣٩) فقه اللغة وسر العربية. الثعالبي ص٨٦

٤٠) نفس المرجع ص٣٣٧

وللضوء سدفة وللظلمة سدفة (قال الصغاني نقلا عن الأصمعي: السَّدفة والسُّدفة في لغة أهل نجد: الظلمة، وفي لغة غيرهم: الضوء وهما من الأضداد، وقال أبو عبيد: بعضهم يجعل السدفة اختلاط الضوء والظلمة معًا كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار –(العُباب /سَدَفَ) قال الخليل: السدفة وقت انفجار الصبح لأنه جمع بين ظلمة الليل وضوء النهار"[٤١]

وقد توافقني الرأي أن ثمة بعد عن الدقة في المفاهيم والمصطلحات وإنزالها على الواقع.

فقولهم: الليل صريم والصبح صريم لا يدل على أن صريم من الأضداد ففي القران وصف لجنة الذين تنادوا مصبحين بأنها أصبحت كالصريم، فهو وصف لحالها، لا دليل على أن صريم من الأضداد؛ فقد جاء في تفسيرها أن صريم: الرماد الأسود أو البستان منزوع الثمار أو الليل ...الخ فلو قلت رجل قوي وامرأة قوية هل يدل ذلك على أن قوي من الأضداد؟ فوصف الصريم جاء وصفاً لحالة انصرام الليل عن النهار والنهار عن الليل، كما وصف به البستان إذ طاف عليه طائف من ربك فبادت ثماره وانقطع منها، كذلك السدفة وقت جمع بين ظلمة الليل وضوء النهار وهذا يحدث وقت الغروب ووقت الشروق فأين التضاد؟ على كل ليس موضوعنا التحقق من وجود أو

---

٤١) المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى. لأبي النصر الحدادي ص١٩٧

عدم وجود التضاد في اللغة، ولكن نلاحظ هنا ملاحظة هامة جدا تتصل بموضوعنا، وهي أن الحق سبحانه بين في كتابه أنه لا يقبل الظن في البعث، وبين مصير الظانين بالبعث في غير موضع من كتابه العزيز، فلو جاز أن يكون من معاني الظن في لغة العرب اليقين، وكان كلام علماء اللغة القائلين بهذا القول صحيحاً، فإن إنزال هذا المعنى على واقع الآيات التي سنناقشها ولا شك كان خاطئاً، فليس موضوع واحدة منها الظن بمعنى اليقين، ولا الظن بالبعث بمعنى احتمال عدم وجوده، بل كان الظن مقصوداً بعينه، وموضوعه ليس البعث، فنحن نقول بأن إنزالهم لمعنى الظن على أنه اليقين عليها خطأ محض والله أعلم.

# فصل: علاقة الظن باليقين:

ولا بد لنا من وقفة نقاش مع آراء القائلين بان الظن قد يكون يقينًا أو شكًا لنوافق على بعض ما جاء فيها ونعترض على ما لا نوافق عليه:

فمثلا تفريقهم بين يقين التدبر ويقين العيان بقولهم: الظن يقين تدبر لا يقين عيان، وقولهم: ولا يوقع الظن موقع اليقين فيما قد خرج إلى الحس وقول أبي العباس: إنما جاز أن يقع الظن واليقين لأنه قول بالقلب، فهذا كله وأمثاله نوافق عليه لكن بطريقة أخرى في الطرح:

وذلك بنفي أن يكون المقصود من الظن هنا هو اليقين ولكنه _أي الظن_ وصف لأحوال لا يمكن الوصول بها إلى الكمال في الأداء فيما يختص بالأفعال، وإن كان المطلوب محاولة الوصول لهذه المنزلة، أي ممارسة الظن محاولة للوصول إلى اليقين، كأداء الصلاة بتمام كمالها؛ لوجود وساوس الشيطان وخطرات النفس وغيرها، فناسب المعنى المقصود استعمال لفظ الظن، كذا الظن بأمر سيحدث في المستقبل لا ينبغي وصف المتحدث لعلمه به باليقين، كقول يوسف عليه السلام: "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا" ٤٢ يوسف، إلى غير ذلك مما بسطت الحديث فيه في ثنايا البحث، فالظن مقصود لذاته، وعدم استعمال لفظ اليقين ودلالته أيضاً مقصود بدليل أنك لا تستطيع استبدال علم بـ"ظن" دون إخلال بالمعنى، بل أحياناً

ينقلب المعنى كلية؛ لذا قالوا يقين تدبر، ولا أجد مسوغاً لإحلال اليقين مكان الظن هنا، والله أعلم!

الأمر الثاني الذي نتفق معهم فيه بفهمنا المتمايز عن فهمهم هو قولهم: أن العرب تجعل الظن علمًا وشكًا وكذبًا، وقال: إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظن يقين وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك: فالظن شك وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين؛ فالظن كذب، وقول الأصفهاني: الظن اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم، وقول أبي العباس ( إنما جاز أن يقع الظن واليقين لأنه قول بالقلب فإذا صحت دلائل الحق وقامت أماراته كان يقيناً، وإذا قامت دلائل الشك وبطلت دلائل اليقين كان كذبًا وإذا اعتدلت دلائل اليقين والشك كان على بابه لا يقينًا ولا كذبًا)؛ فنتفق أولا على أن الدليل هو الذي يفرق بين اليقين والظن والشك والتوهم والتكذيب، فإذا كان الدليل قاطعًا؛ أقول يفضي إلى اليقين، وإذا كان غير قاطع ولكنه يدفع بأحد النقيضين إلى جانب يترجح فيه على نقيضه فانه الظن، وإذا اعتدل النقيضان ولم يستطع الدليل ترجيح أحدهما على الآخر فالشك، وإذا رجّح الدليل نقيض التكذيب أو السلب على دليل التصديق أو الإيجاب يحصل التوهم، وأما إذا قام الدليل القاطع على السلب

أي على التكذيب؛ أوصل إلى اليقين بأن الأمر كذب أي إلى التكذيب، فهذا هو ما ترجح لدي من الفهم.

أي أننا نملك خمس حالات محتملة للخبر أو لما يطلب الإيمان به: اليقين فالظن فالشك فالتوهم فالتكذيب، ولا تتقاطع مع بعضها أبدًا ولا يدل أحدها على الآخر أو يحل محله أبدًا.

هذا هو فهمي والذي أخذته عن جمهور العلماء، أما فهم علماء اللغة والقائلين بهذا القول من علماء الكلام، فهم لا يوضحون أبداً كيف يمكن وصف حال من وصله دليل غير قطعي جعله يميل إلى التصديق، أي تجاوز مرحلة الشك والتي فيها اعتدال النقيضين بلا ترجيح لأحدهما، أقول تجاوز الشك ولم يصل به الدليل إلى نفي النقيض نفياً تاماً، أي لم يصل به إلى الاعتقاد الجازم، هم يقولون أن الظن من الأضداد فإما أن يأتي بمعنى الشك أو اليقين؟.

فهذه الحالة هي التي وصفناها بالظن، كما قيل في تعريفه: الظن هو أحد طرفي الشك بصفة الرجحان أو الاعتقاد (التصديق) الراجح مع احتمال النقيض.

إذن فنحن لا نوافق على جعل الظن لفظاً من المتضاد فهو لا يكون يقينًا ولا يكون شكًا، بل هو مرحلة ما بين الشك واليقين.

كذلك لا نوافق على شواهدهم اللغوية الشعرية من قول العرب، وقد ناقشت هذه الأبيات في موضع لاحق من البحث وبينت أنها لا تصلح شواهد على أن الظن يكون بمعنى اليقين، بل على العكس لو فُهمت كذلك لضعف معنى البيت وأحيانًا لانقلب إلى عكس ما يريده قائله.

وأخيرًا فإن أكثر الآيات التي فسروا فيها الظن باليقين ما ناسبت أجواء السور التي هي فيها أو ما حولها من الآيات إذا ما أبدلنا اليقين بالظن.

على أنهم لا يملكون صارفاً يصرف معنى الظن إلى اليقين – إلا تفسيرهم الخاطئ – فيما نظن- بأن تفسير "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة على أنه يتيقنون- ونحن نقول بأن الظن يبقى على معناه الحقيقي اللغوي ما لم تأت قرينة أو صارف يصرفه عن هذا المعنى إلى غيره.

يقول العلامة ابن قيم الجوزية في صواعقه المرسلة: "فعلى المُتَأوِّل أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذي ذكره أولا، ويبين تعيين ذلك المعنى ثانياً، فإنه إذا خرج عن حقيقته، قد يكون له عدة معاني، فتعيين ذلك المعنى يحتاج إلى دليل.

الثاني: إقامة الدليل الصارف للفظ عن حقيقته وظاهره. فإن دليل المدعي للحقيقة والظاهر قائم، فلا يجوز العدول عنه إلا بدليل صارف يكون أقوى منه."[٤٢]

على أن الظن أيضاً يفترق عن الشك بأمور منها أن الظن غالباً ما يميل إلى جانب اليقين بالشيء أي إلى جانب التصديق؛ فإذا قلت: أظنه صادقًا فلا يعني ذلك أنه يستوي عندي صدقه وكذبه، بل معناه أنني أميل إلى جانب التصديق، لكن أُبقي احتمال الكذب وارداً وإن كان ضعيفًا، فالظن يسيطر أحيانًا على هواجس النفس وقد يستمر بصاحبه إذا كان عاقلا ليصل به إلى اليقين عن طريق التثبت من الأدلة، أما الشك فانه لا يحدث إلا الأثر السلبي في النظر إلى الأمور، فانه إذا استوت لدى الشاك أمارات الصدق والكذب فإنه على الغالب ينصرف عن التفكير بالموضوع.

وقد اقترن الشك باللعب كقول الحق سبحانه "بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩الدخان، كما اقترن الشك بالريب أي الاتهام، وبالتالي التكبر على الحق "وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ" ٩ إبراهيم "وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ" ٦٢ هود، وهذا ما يؤدي إلى الانصراف عن التفكير وبالتالي: إلى العمى عن إبصار الحق: "بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا

---

٤٢) مختصر الصواعق المرسلة. ابن القيم اختصار الشيخ الموصلي ص٣٢

عَمِونَ" ٦٦ النمل "بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ" ٨ ص أي أنهم انصرفوا عن التفكر وانشغلوا باللعب واللهو حتى جاءهم العذاب، فعرفوا أنهم خسروا خسرانًا مبينًا والعياذ بالله، فالفرق واضح بين الظن والشك.

وأما سبب حرصنا الكبير على عدم خلط مفهوم الظن بمفهوم اليقين خاصة، فذلك يرجع إلى أن موضوع الاعتقاد هو أساس الإسلام، فإذا كان الإسلام قد نهانا عن استعمال لفظ "**راعنا**" حتى لا تختلط بمعنى آخر لها في لغة يهود قصدوه عندما استعملوها في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، جاء في فتح القدير للإمام الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ" ١٠٤البقرة ما نصه:

"قوله "راعنا" أي راقبنا واحفظنا وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى (راعنا) ونرعاك واحفظنا ونحفظك وارقبنا ونرقبك، ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك أي فرغه لكلامنا، وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبًا، قيل أنه بلغتهم بمعنى اسمع لا سمعت وقيل غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا؛ طلبًا منهم أن يراعيهم من المراعاة، اغتنموا الفرصة وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه

وسلم كذلك، مظهرين أنهم يريدون المعنى، مبطنين أنهم يقصدون السب الذي هو معنى اللفظ في لغتهم، وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم، سداً للذريعة ودفعاً للوسيلة وقطعاً لمادة المفسدة والتطرق إليها، ثم أمرهم أن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض، فقال "وَقُولُواْ انظُرْنَا" أي أقبل علينا وانظر إلينا فهو من باب الحذف والإيصال ...وجاء في الصفحة نفسها: لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذي ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَا تَقُولُوا الْكَرْمُ وَلَكِنْ قُولُوا الْحَبْلَةُ يَعْنِي الْعِنَبَ" رواه مسلم، والدارمي؛ "حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ اسْقِ رَبَّكَ وَلْيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي" رواه البخاري وما أشبه ذلك"[٤٣]

أقول إذا كان الإسلام قد حرص على دقة استعمال المصطلح في كل الأحوال حتى في الأمور التي قد تبدوا عادية كقولك للعنب الكرم، فمن باب

---

٤٣) الديمقراطية وحكم الإسلام فيها حافظ صالح. دار النهضة الإسلامية. ص١٢٢ عن فتح القدير ١/٢٤٧-٢٤٩ الشوكاني.

أولى يجب الحرص على استعمال **الدقة الشديدة** في المصطلحات الخاصة بالاعتقاد، فلا يُتَصور أن يستعمل الظن في مكان اليقين خاصة وقد سبق بيان الأدلة الجازمة المستفيضة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في بيان أن الظن لا يغني من الحق شيئاً (في كتابنا الأول عن الايمان)، وحيث أن كلمة الظن هنا هي اسم جنس محلى بالألف واللام فإنها تعني بتاتاً أن أي ظن لا يغني من الحق شيئاً، سواء أطلقنا عليه اسم العلم الباطن، أو يقين التدبر، أو اليقين فيما لم يخرج إلى الحس، أو غير ذلك فالظن أكذب الحديث ولا يصلح صفة للإيمان أو الاعتقاد أو العلم بحال من الأحوال.

ولذلك كان هذا البحث، جهد المقل، والذي أرجو الله أن يتقبله وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، صائبًا وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم تنشر للبعض صحائف شهرة مد البصر لا تغني عنه من الله شيئًا والعياذ بالله.

ولا بد من الإشارة إلى أنني ارتأيت خلال تفسير بعض الآيات المتعلقة بنواح مهمة من حياة الداعية مثلا أن أتوسع في الموضوع إثراء له لا خروجاً عن الموضوع، وارتأيت في معرض تفسير الآيات المتعلقة برسول الله يونس عليه سلام الله أن أدافع عنه، فكان بحثاً موسعًا أسأل الله لي القبول، ولذلك فما خرج عن صلب موضوع الظن كان متعلقاً دائماً بآيات في موضوعه، إثراء

للموضوع وتذكرة للمتقين، ولأن الأفكار الجديدة التي جئت بها يمكن أن تطرح في هذه الأجواء نفعنا اللّه والمسلمين أجمعين بفضله من فضله إنه على كل شيء قدير.

أما المنهج الذي نهجته في تفسير الآيات فيقوم على أمور منها: وحدة النص في السورة أو في الجزء منها الذي تتعلق الآية أو الكلمة به، فلا بد من أن يعضد النص بعضه بعضًا، وأن تشد الكلمات أزر الآيات لتبرز المعنى والإعجاز إبرازًا قوياً معجزًا يناسب بلاغة القران وهديه.

وأنا أؤمن أن كل كلمة في القران بل كل حرف معجز في موضعه، وكل آية كذلك وأنه لا يمكن استبدال شيء من ذلك بغيره دونما إخلال بهذا الإعجاز أو بالمعنى المقصود من الآية، فلو قلّبت لسان العرب بحثاً عن لفظة تحل محل المنتقاة في كتاب اللّه عز وجل لما وجدت كما قال ابن عطية رحمه اللّه، وهذا هو الأمر الثاني المهم في منهجي، فلكل لفظة في القران سحرها وبيانها وعالمها الذي به تمتاز عن غيرها، فإلى جانب معناها الظاهري المعجمي للكلمة أبعاد داخلية، للكلمة جِرْس وظلال وموسيقى وتناسق وأداء ولون، لها قوة في التعبير عن المعنى تمتاز بهذا أو ببعضه عن غيرها بحيث تمنح النص أبعاداً وقوة ومزايا وإيحاءات وبيانًا وروعة، فالنظر في آية "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ" ٢٠ الحاقة مثلا باستبدال علمت ب"ظننت" يبين لنا مدى البعد عن المعنى الذي أدته، وعن جو الآيات

المحيطة بها بل عن الأحاديث الصحيحة التي تبين حال قائلها، عند من فسرها على أنها اليقين، فالضابط الذي اعتمدته كثيرا –أي استبدال علمت ب"ظننت"- كثيراً ما نقض قول المفسر الذي رأى أن المعنى المعجمي القاموسي لظن قد يكون علم (مجازاً)!!

ومن منهجي في التفسير: الابتعاد عن التقيد بالقواعد المعممة التي رأى واضعوها أنها تصلح خطأً عاماً لتفسير نظائرها أينما وردت في كتاب اللّه كقولهم: كل ظن في القران من المؤمن فهو يقين!! فأين إذن تفسير النص القائم على وحدته وبلاغته وإعجازه؟؟

ومن المنهج أيضا التذوق الأدبي الجمالي للآيات: فللسمع دوره وللعين دورها وللقلب دوره، فالمَشاهد التي تتعلق بالنفس وأحوالها لا بد للنفس من أن تعيشها لتستجلي معانيها، ولا بأس من أن يقف الخيال شاخصاً نحوها ليستجلي بعض ما خفي من معانيها.

إذن فإسلام عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه والطفيل بن عمرو الدوسي رضي اللّه عنه وغيرهم الكثيرين والناشئ عن عيشهم النصوص بأرواحهم، مع أنها قد تكون بضع آيات فقط، هو منهج في التفسير لا بد من الأخذ به ومراعاته، فالآيات التي تطرق أبواب الأفئدة الحساسة لتفتحها للنور أو لتجلو

عن الأعين غشاوتها، لا بد من أن تُعامل معاملة خاصة بعيدة كل البعد عن التفسير المعجمي المبني على قواعد مسبقة والله أعلم.

وبعد كل ذلك أرى أن ما ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ، فما كان فيه من خطأ أو زلل فمن نفسي وما كان صواباً فمن الله أحمده تعالى عليه وصلى الله وسلم وأنعم على خير خلقه محمد وجزى الله علماءنا السابقين واللاحقين خير الجزاء.

# فصل: "وظنوا أنهم أحيط بهم"

فلنحاول أولا أن نتلمس بعض ظلال الظن لنرى ما تتميز به عن اليقين، لنرى مناسبتها للآيات التي وردت فيها في كتاب اللّه العزيز:

بعد أن يورد اللّه سبحانه في سورة يونس بعض آياته في الكون، الدالة عليه، يحذر فيها الغافلين عن لقائه: "إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ٧ أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" ٨يونس ثم يُذكّر الناس باستعجالهم الخير، وكيف إذا مس الإنسان الضر دعا اللّه لجنبه أو قاعدًا أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا لضر مسه، ثم قضية التوحيد في أن النفع والضر بيد اللّه وحده إلى أن يصل إلى قوله "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" ٢٣يونس يضعنا النص أمام صورة حية نابضة لهذا الإنسان الغافل عن ربه، المطمئن بالحياة الدنيا، أول ما نلاحظه هو هذا الالتفات في البداية "يسيركم، كنتم" ثم

ينتقل للحديث بضمير الغائب "وجرين بهم" فما أن ينساب المرء في سيل الحياة الجارف حتى يوغل في البعد عن ربه (جرياً) وهنا ركب البحر متنعمًا بنعم الله الذي هيأ له البر لسكناه وسخر البحر له، وركوب البحر قد يكون في طلب الصيد أو الرزق، أو السفر إلى ما وراء البحر طلبًا لدعة الحياة ورغد العيش، ثم تلمس معي الظلال التي تلقيها "وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا"، فالفلك تجري بسرعة نحو عالم الدعة والهناء والراحة والريح مواتية والبحر يحتضن الفلك كأم رؤوم، ألم تر كيف اقترنت الريح بحرف الباء وكأنه يقول إن البحر يجر الفلك من يدها لفرط خوفه عليها، وذلك يبعث في النفس روح الطمأنينة –وهذا مَثَلُ الحياة الدنيا التي رضوا بها واطمأنوا بها فغفلوا عن لقاء ربهم وعن آياته- أقول: يترك ذلك الحال للخيال عنانه للتيه في عالم الأحلام، وبينا هم كذلك إذ تضرب فلكَهم ريحٌ عاصف، قذفت بهم من عالم الدعة والهناء والاطمئنان إلى دنيا القلق والخوف والاضطراب، ريح تُزمجر، تجعل الموج جبالا لتصبح الفلك فيه ريشة في مهب الريح الهائجة، تكاد الفلك تنقلب ميمنة فتنخلع قلوبهم ويتشبثوا بميسرة الفلك، وتضربهم الأمواج بقسوة في وجوههم فتقذفهم ليصطدموا بدفة الفلك، يحاط بهم، يأتيهم الموت من كل مكان، حتى الفلك التي من لحظات كانت تحتضنهم أصبحت تكيل لهم الضربة تلو الضربة إنهم ولا شك ينتظرون الموت!!

تختلف هنا لفظة الظن المستعملة في القران عـن لفظـة اليقـين معنـى وأداء، فالظن بأنه قد أحيط بهم وبأن الموت يأتيهم مـن كـل مكـان يختلـف عن اليقين بذلك: فالموت ما زال مندفعاً بأمـل تعطيـه لفظـة الظـن وتمنعـه لفظة اليقين أو العلم، فالذي يتيقن أن الموت قادم يقنط ويدفعه اليأس إلـى استعجال الموت بقذف نفسه في البحر مـا دام أن المـوت قـادم لا محالـة وأن فيه الخلاص من هذا الـبلاء العظـيم (المـوت البطـيء)، أمـا الظـان فـلا يـزال متشبثاً بأمل بالنجاة مهما ضؤل.

والأهم هو أنهم ما داموا قد دعوا الله بأن ينجيهم فهذا يعني أنهم لم يتيقنوا الموت، فلا يمكن أن يدعو المرء ربه بالنجاة وقلبه فـارغ مـن أي أمـل مهما كان صغيراً بإمكانية حدوثها، وهـذا هـو مـا نسـميه "الظـن" أي تـرجح احتمال الموت مع بقاء أمل مهما كان صغيراً بالنجـاة؛ واليـائس لا يصـلح لأن يتفكر ولا لأن يبحث عن أمل بالنجاة، علاوة على أن إبراز حال يائس ليس هـو المراد من جو الآيات العام، فهي تتحدث عن التشبث بالحياة فـي حـال الدعـة والاستقرار كما في أشد حالات الخطر والاقتراب من الموت، فلـو قلنـا وعلمـوا أنهم أحيط بهـم بـدلا مـن وظنـوا لقضـينا علـى أي معنـى للتشـبث بالحيـاة ولماتت معها الصورة المرسومة؛ والأهم لِما قد نتج عن أملهم بالنجاة، وهـو "دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِـنَ الشَّـاكِرِينَ" إذن فالأمل الذي تعطيه لفظـة "وظنـوا" والـذي منعتـه لفظـة "وعلمـوا" هـذا

الأمل هو الذي عرى فطرتهم مما ران عليها، وجعلهم يلتجئون إلى من بيده ملكوت البر والبحر لينجيهم، تذكروه في تلك اللحظة فقدرته أكبر من هذه الجبال المتلاطمة من الأمواج.

هذا الأمل بالنجاة أنشأ لديهم إخلاصًا ما كانوا ليصلوا إليه وهم غافلون، لذلك نرى أن النص يضعنا على حال جديدة برزت في تلك اللحظة، حال من صحا من سكرته ومن عمهه ومن نسيانه خالقه وهو في حال الاطمئنان بالحياة الدنيا ليلجأ إليه بضمير المخاطب لأنه استشعر قربه منه، ورآه أقرب إليه من الماء الذي يكاد يقلب فلكه ومن الريح التي تعصف به ومن الفلك التي تضربه على رأسه وجسده، إنه وحده القادر على إنقاذهم: "لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"، وفي كلمة "لئن" إقرار بأنهم ليسوا أهلا لهذه النجاة لشدة غفلتهم، هذا الإقرار صدر في لحظة صدق وإخلاص، إن الإنسان الغافل ليوقن بالله أشد اليقين ساعة الشدة عندما يظن أنه قد أحيط به وأن الموت قريب منه لتضافر أسبابه، ولكنه يبقي في نفسه أملا بالنجاة فنراه لا يوقن بالموت بل يظنه قادماً، وهذه النفسية تناسب الأجواء العامة للآيات التي تتحدث عن التشبث بالحياة ونسيان الموت وما كنا لنصل إليها لو كانوا علموا أن الموت قادم بدلا من ظنهم ذلك والذي أبقى احتمالا لإمكانية عدم حصوله لأملهم بقدرة الله.

ونلاحظ أيضاً في هذه الآية أن الظن إذ لا يـؤدي معنـى اليقـين؛ كـذلك فإنه لا يؤدي معنى الشك أبداً، فمن كـان يحـاط بـه ويأتيـه المـوت مـن كـل مكان لا معنى لقولنا عنه أنه يستوي لديه إمكانيـة حـدوث المـوت وإمكانيـة النجاة، وهو ما يؤديه معنى الشك؛ كما أبرزت الآيـة تعلقهـم بأمـل النجـاة أي لم يتيقنوا الموت وهذا ما يؤكد لنا أن الظن ما هو إلا مرحلة متوسـطة بـين الشك واليقين ليس بشك ولا بيقين، ترفعه القرائن تجاه اليقين أو تهبط به باتجاه الشك والقرائن في هذه الآية توحي بشدة اقترابه مـن اليقـين لكنهـا إذ تبقيه قريباً منه فإنها لا توصله إليه وهذا مـا سـميناه "غلبـة الظـن"، واللّه أعلم.

نتذكر هنا تعريف الظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقـيض فيتـرجح لديهم هنا الموت ويبقى احتمال النقيض ( أي النجاة ) وارداً.

لاحظنا إذن أهمـيّة الجو العـام للـنص والسـياق العـام للسـورة وكلاهمـا يُبرز تعلق الناس بالحيـاة واطمئنـانهم بهـا ونسـيان الآخـرة فالألصـق بهـذا أنهم حتى والموت يأتيهم من كل جانـب مـا زالـوا متشـبثين بالحيـاة، يـرون الموت رأي العين ولا يزالون يرغبون بالبقاء على ظهرها.

# فصل: "وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ"

وهذا المعنى هو نفس المعنى البارز في سورة القيامة: "كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ" ٢٨

قال ابن عطية: "يريد: وتيقن المريض أنه فراق الأحبة والأهل والمال والحياة، وهذا اليقين فيما لم يقع بعد ولذلك استعملت فيه لفظة الظن، وقال ابن عباس: أيقن أنه الفراق، وقال في تفسيره: ذهب الظن."[٤٤]

هذا هو مشهد الاحتضار والموت بكل هيبته، الموت الذي هو نهاية كل حي –وسبحان الحي الذي لا يموت- الموت الذي قهر اللّهُ به عبادَه، فحين تبلغ الروح التراقي وبينما ينزع الإنسان النزع الأخير وهو يواجه سكرات الموت المذهلة التي طالما فر منها وغفل عنها، يواجه هذا الإنسانُ الموتَ ويتلفت مَنْ حوله علهم يجدون رُقية ترقيه، تستنقذ روحه من هذا الكرب العظيم -الموت ولكن.. هل يستيقن هو أنه الموت؟ وأن ساعة الفراق قد أزفت؟ كلا!! إنه كأي إنسان فيه ما فيه من حب الحياة والخوف من هذا المجهول القادم؛ لذا يظن أنه الفراق، يغلب هذا على ظنه من هول ما هو به

---

٤٤) تفسير ابن عطية ١٥/٢٢٢.

ويبقى لديه بصيص من الأمل بالنجاة -وهيهات- فستلتف الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق.

تصور لنا الآيات حالين: حال الموت الذي قهر الله به عباده وأنه نهاية المطاف، وحال الإنسان في أشد كربات الموت ما زال ملتصقًا بالحياة، للآيات مغازٍ ومغازٍ كثيرة!!

إن أشد ما يُفسد الناس في الدنيا هو طول الأمل كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: (أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل يُنسي الآخرة) وهذا عين ما تقرأه خلف السطور في كل هذه السورة "أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى" ٣٦ سادرًا في غيّه غافلا عن الآخرة لا يذكر الموت ولا سكراته، ولكي يتقرب المعنى أكثر تُصور لنا السورة الإنسان في أشد كربات الموت إذ بلغت روحه تراقيه وما بقي بينه والموت إلا قيد أنمُلة تراه متشبثاً بالحياة، لا يكاد يصدق أنه مفارق لها؛ إن الظن الذي ظنه وتلك حاله ليعطي النص عظمًا وإعجازًا وأبعادًا شديدة الالتصاق بالجو العام للسورة ولمغزاها ولرسالتها، فالقضية المركزية في سورة القيامة تتلخص في آيتها الأخيرة "أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى" ٤٠ بلى، بلى إنها رسالة قوية مركزة لمنكري البعث أو الظانين أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف تُعلمهم أن الله الخالق قادر على البعث وأن هذه الحياة الدنيا ما وُجدت ليخلد الإنسان فيها، فلتنتبهوا إذن:

"أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى" وفي هذه الآية إثبات رهيب أن اللّه ما ترك في الكتاب شاردة ولا واردة إلا وبيّنها ليقيم الحجة على من ظن أنه سيُترك سُدى فتأملها.

"كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ" ٢٠ (وتتشبثون بها) "وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ" ٢١ فتصور لنا بعد ذلك هؤلاء المنكرين للبعث بسخرية شديدة كيف يتشبث أحدهم بالحياة لفرط حبه لها، وصلت روحه تراقيه وما زال يأمل بالخلد في الدنيا، هذه ظلال الظن، ولنتأمل أيضا في وجود حرف الواو قبل الظن في الآية؛ كأنه يشير إلى أنها مرحلة من مراحل سكرات الموت يمر بها الإنسان، فبعد مرحلة وصول الروح إلى التراقي تأتي مرحلة الظن هذه، فيا تُرى هل لو استبدلنا (وعلم) ب "وظن" هل سيبقى لهذا الأداء من وجود؟ ما معنى أن نقول (كلا إذا بلغت التراقي، وقيل من راق، و<علم> أنه الفراق) أين التمسك بالحياة وحبها واستحبابها على الآخرة؟ لقد أصبحت الآية جملة إنشائية وصفية تخويفية لا أكثر.

أضف إلى ذلك السخرية الشديدة التي يظهرها الظن عندما تحل خيبة الأمل وخيبة الظن ببقاء هذا الذي يتمسكون به بزواله بتجاوز الروح للتراقي مما يُعطي النص بُعداً آخر للسخرية ممن يتشبثون بزائل يزول بأسرع من دوام أمل صغير ببقائه.

جاء في اللباب في علوم الكتاب، مثل الذي قاله الفخر الرازي في هذه الآية "وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ": "وسمى اليقين هنا بالظن لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت بل الظن الغالب مع رجاء الحياة أو لعله سماه بالظن الغالب تهكماً."[٤٥]

---

٤٥) اللباب في علوم الكتاب. عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ٥٦٨/١٩؛ و الفخر الرازي ٧٣٣/١٠.

# فصل: "وظنوا أنه واقع بهم" "وتظنون إن لبثتم إلا قليلا" "وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ"

كذلك بنو إسرائيل، حينما أراد الله أخذ ميثاق منهم، وهم يكذبون وينقضون كل مرة فنتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة "وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" ١٧١ الأعراف.

يقول سيد قطب رحمه الله: "كانوا متقاعسين عن إعطاء الميثاق، فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم، بعد ذلك من الانتكاس ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يتمسكوا به في شدة وصرامة وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق وأن يظلوا ذاكرين ما فيه لعل قلوبهم تخشع وتتقي وتظل موصولة بالله لا تنساه"[٤٦] لقد رأوا الموت بعيونهم، جبل يرتفع ليظللهم كسحابة يوشك أن يقع على رءوسهم ليدفنهم أحياء، وفي ذلك تهديد عظيم من جبار السماوات والأرض العظيم بالبطش بهم لاستهانتهم بأوامره ونواهيه، وتحذير بأن لا يعودوا لمثلها وهم بينما يرون

---

٤٦) في ظلال القران. سيد قطب ط١٠ ج٣ ص١٣٨٩

الجبل فوقهم تمتلئ نفوسهم خوفاً فتتنازع بين اليقين بالموت والأمل بالنجاة، إنه الظن مرة أخرى مع التشبث بالحياة إنها مرة أخرى العلاقة بين البعد عن الله بالتمسك بالحياة والتهديد بالموت والحساب والأخذ بأشد العذاب حتى في الدنيا إنها ظلال الظن!!

كذا فالآيات تكشف عن نفسيات بني إسرائيل المحبة للدنيا، فأي شيء بعد أن يرتفع الجبل فوق رءوسهم؟ إنهم مع ذلك يأملون أن لا يقع عليهم وكل قوانين الدنيا التي نظم الله بها الكون تقول بأن الجبل العظيم إذا ما ارتفع فوقهم فلا بد من أن يقع! –إلا أن يشاء الله سبحانه ومع ذلك فهم يظنون أن الجبل واقع ولا يتيقنون ذلك، فأي نفسيات هذه!!

وتستكمل هذه المشاهد وهذه العلاقات بين وهم الحياة ويقين الآخرة بمشهد آخر "قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً" ٥٢ الإسراء.

وكقوله تعالى "كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا" ٤٦ النازعات، حين ينزاح الحجاب الذي كان يطمس الأعين ويمنعها عن البصر أو التبصر، يحجبها عن الحق تعلم أنها كانت في وهم كبير اسمه الحياة، لكن

هذا الوهم الذي حين عايشه كان يظن نفسه خالداً فيه الآن يظن انه لم يلبث فيها إلا عشية أو ضحاها، إنه يرى الدنيا صغيرة حقيرة تافهة لا يكاد يذكر من شأنها شيئا، لكنها وهذا حالها قد أوردته مورد الهلاك والعياذ بالله، إذن فهو لو وقف أمام الدنيا وقفة تبصر وتدبر لما رآها أكثر من "قليل" يبعث لفظ الظن هنا في أرجاء النفس الحسرة الشديدة، فما دام لبث قليلا أما كان جديراً به أن يتزود منها للكثير الذي بقي أمامه؟؟

وأما لفظ الظن الوارد في هذه الآية الكريمة ففيه رد شديد اللهجة على من أنكر إمكانية البعث فقال له الله قل كونوا أعظم خلق يكبر في صدوركم وسيبعثكم الله ثم تلتفتون إلى هذه الدنيا التي غرتكم ودفعتكم للتكبر حتى على خالقكم لتروا أنها ما هي إلا قليل كفترة الضحى من النهار، أو بالنظر إلى قوله تعالى: "أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ" ٣٨ التوبة: أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل عمر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال: يا رسول الله لو اتخذت فرشاً أوثر من هذا؟ فقال "ما لي وللدنيا وما للدنيا وما لي، والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة، ثم راح وتركها". وفي مثل هذه الأحاديث نرى حجم الدنيا ومكانتها في نظر المؤمن والكافر وفيها ما فيها من السخرية بعقولهم الصغيرة التي أوحت لهم بأن

الحياة الدنيا هي نهاية المطاف وفرق بينهم وبين من فهم معنى وجوده في الحياة وتزود فيها لما بعدها، كعبد الواحد بن زيد الذي كان لا يكاد ينام من الليل شيئاً إذ كان يقول لأهله كل ساعة تمر من الليل: يا أهل الدار انتبهوا فما هذه دار نوم عن قريب سيأكلكم الدود!!

يقول الحق سبحانه "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" ٢٤ يونس، يتابع الحق سبحانه بعد الآيات التي بينت متى يتذكر الإنسانُ ربَّه ويُخلص له الدين بيانَ مثَلِ الحياة الدنيا، وأحب أن أتكلم في هذه الآية بما يناسب ما وصل إليه الإنسان في العصر الحديث من علم وتقدم وإمساك بزمام الأمور، حتى ظن أنه قادر عليها، فالتسارع المطّرد الكبير في مجالات التقدم العلمي الذي أخذ شكل الثورة في القرنين الأخيرين صاحبه في معظم الأحيان طغيان من جانب الإنسان، واتباع للشيطان الذي وعد بأنه سيأمر الناس بأن يُبَتِّكوا آذان الأنعام وأن يغيروا خلق اللّه وفعل وفعلوا!!

فما نراه الآن من تقدم في علوم الذرة والتحكم بها واستخدامها في مجالات الحرب والسلم وتوليد الطاقة والعلاج، وما نراه من تقدم في الهندسة سهل في كثير من المجالات حياة الإنسان فقرب المسافات وسار

الإنسان بسرع تفوق سرعة الصوت، ووصل القمر والكواكب المجاورة والتقط الصور لمجرات موغلة في البعد، وتقدم في الطب: فبعد أطفال الأنابيب شاهدنا الإستنساخ وما هو مخبأ الله أعلم به، وفي علم الجينات والهندسة الوراثية يكاد الإنسان ينتقي كثيراً من الصفات الوراثية في الأجنة ويقضي على كثير من الأمراض بالسيطرة على مورثات معينة ومن المتوقع بإذن الله أن يقضي الطب على أكثر الأمراض وأن يكتشف العلاج لأغلب- إن لم يكن لكل- الأمراض مصداقاً لأحاديث المصطفى عليه سلام الله، روى أبو داود والترمذي عن أسامة بن شريك قال قالت الأعراب: ألا نتداوى يا رسول الله؟ قال: (نعم. يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحد) قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: (الهرم) لفظ الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

والعقم من هذه الأمراض التي أوجد الله لها الدواء وأمر حبيبُه عليه السلام العباد بالتداوي فليس من تعارض بين ما نراه وبين الدين بل على العكس يثبت العلم أن لكل داء دواء هذا وغير ذلك الكثير مما لا مجال لذكره يجعل الإنسان على الأرض يظن أنه قادر عليها، وهذه علامة بارزة من علامات القيامة، فكلما اقترب الناس من الوصول إلى امتلاك زمام الأمور وادّعوا استطاعتهم تغيير خلق الله جعلها الله عندئذ حصيداً كأن لم تغن بالأمس!!

وما أنسب استعمال لفظ الظن هنا فهو يوحي بأنهم لا ينفكون يحاولون الوصول إلى المزيد ولكن العلم بحر كلما غرفوا منه وجدوا أنفسهم على شاطئه، لكنهم يظنون أنهم على الشاطئ الآخر!!

وهنا نقطة هامة وهي أن السواد الأعظم من أهلها ليسوا علماء ليدركوا أنهم ما زالوا على الشاطئ البعيد، بل تغرهم المظاهر البراقة للمدنية فيظنون أنهم قدروا عليها والله أعلم.

# فصل: "تظن أن يُفعل بها فاقرة"

## "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا"

## "وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ"

ثم تتوالى الآيات الكريمات بالتحدث عن أحوال النفس البشرية في الآخرة، بعد أن أفسدت النفسُ على صاحبها آخرته ببيان ساحر للألباب عظيم الأداء كان لاستعمال الظن فيه الشأن العظيم، يقول الحق سبحانه "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ أن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ" ٢٥ القيامة

يقول العلامة القرطبي في تفسيره لهذه الآية: "أي توقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم يقال فقرته الفاقرة أي كسرت فقار ظهره"[٤٧] جاء في اللباب في علوم الكتاب كلام يشبه ما قال به الفخر الرازي في تفسيره: "قال ابن الخطيب: هكذا قاله المفسرون (أي توقن) وعندي أن الظن هنا إنما ذكر على سبيل التهكم كأنه قيل لما شاهدوا تلك الأحوال حصل فيهم ظن أن القيامة حق." ...[٤٨] وقال ابن عطية: "وقوله تعالى: (أن

---

٤٧) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١١٠/١٩

٤٨) اللباب في علوم الكتاب. عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ٥٦٨/١٩؛ و الفخر الرازي ٧٣٣/١٠.

يفعل بها فاقرة) إن جعلناه بمعنى توقن فهو لم يقع بعد على ما قد بيناه، وإن جعلنا الظن هنا على غلبته فذلك محتمل."[٤٩]

ويقول سيد قطب رحمه الله: "وهي الوجوه الكالحة المنقبضة التعيسة المحجوبة عن النظر والتطلع (إلى ربها) بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماسها، وهي التي يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر المحطمة للفقار.. الفاقرة وهي من التوقع والتوجس في كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص، فهذه الآخرة التي يذرونها ويهملونها ويتجهون إلى العاجلة يحبونها ويحفلونها ووراءهم هذا اليوم العظيم الذي تختلف فيه المصائر والوجوه"[٥٠] كذلك النسفي رحمه الله فسر الظن الوارد هنا على أنها "تتوقع (أن يفعل بها )فعل هو في شدته (فاقرة) داهية تقصم فقار الظهر"[٥١]

إذن فهي "تتوقع" حلول الكارثة، فلماذا تتوقع أي تظن؛ ولا تتيقن؟

"كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ" ٢١ والذي يجعل المرء يحب الدنيا أمور كثيرة على رأسها نفسه الأمارة بالسوء، إلا من رحم ربي فهذا

---

٤٩) تفسير ابن عطية ٢٢١/١٥

٥٠) في ظلال القران. سيد قطب ٣٧٧٢/٦

٥١) تفسير القران. الإمام النسفي ٢٩٧/٥

الذي يرحمه الله (جعلنا الله ومن له حق علينا والمسلمين منهم ) يكون من "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ" ٢٢ وأما المتبع لشهوات نفسه فإنه من النوع الثاني إن لم يردعها، ولأن الأمر خطير وفيه مظنة الوقوع في النار إن استمر المرء في اتباع شهوات نفسه، وجب التحذير من النفس فصور لنا أن حال النفس في الدنيا وديدنها هو حب العاجلة وترك الآخرة وحتى يزداد التحذير ضراوة ويبين الأمر على خطورته يصور الحق سبحانه لمتبع شهوات نفسه عظيم خطرها عليه في أنها حتى يوم القيامة تستمر في ممارسة هوايتها البغيضة فتمنيه بالنجاة من شر أعماله التي أوقعته فيها فهي تجعله يظن أن يُفعل به فاقرة وتزين له البحث عن أسباب النجاة ولكن هيهات!!

تماما كحال الظان نفسه في سورة الكهف وفي فصلت "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا" ٥٣ الكهف؛ "إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ٤٧ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ" ٤٨ فصلت.

نتكلم إن شاء الله إجمالا عن آيتي الكهف وفصلت ثم بإسهاب عن آيات الكهف وفصلت والقيامة لاشتراكها في المعنى والحال كما لا يخفى.

ففي آية الكهف يتبين لنا أن المقصود من الظن الوارد في الآية هو الظن بعينه قطعاً، لا اليقين كما توهم أغلب المفسرين وذلك بإمعان النظر في الآية نفسها يقول الله تعالى فيها "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ" هذه حال، ثم "فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا" والفاء للترتيب والتعقيب وهذه الحال الثانية؛ وفيها تفكروا "وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا" فكونهم "لم يجدوا" يعني أنهم قد "بحثوا" عن أمل بالنجاة منها ولا يُتصور أن يبحث المرء عما ينجيه وهو خالي الذهن من وجود أي شيء قد يحول بينه وبين هذه النار حتى ولو كان أملا؛ وقد سمى الله تعالى ما يبحثون عنه "مصرفًا" أي أمرًا يصرفهم عن النار وليس بعد ذلك من دليل!.

ولم يجدوا: ففي حال البحث تلك كان يغلب على ظنهم أنهم مواقعوها مع توفر الأمل لديهم بالنجاة إذ يبحثون عن المصرف؛ وفي ذلك دليل واضح على أن هذا هو عين الظن لأن احتمال النقيض وهو عدم مواقعة النار وارد لديهم في حال بحثهم عن أسبابه؛ وإن كان بالنتيجة تَبين لهم أنهم يتعلقون بسراب؛ لذا فنحن نقول أن الظن هو ترجيح لأحد النقيضين مع بقاء إمكانية حصول نقيضه وهو ما ينطبق هنا تماماً.

وأسباب النجاة التي يتعلقون بها قد تكون سراب أعمال ظنوها تنجيهم أو كما في آية فصلت شركاء قد ينقذوهم؛ ويقيم الله عليهم الحجة بأن شركاءهم لن يستطيعوا إنقاذهم. ففي الظن إذن فسحة للتأمل وأمل يتبعه

خيبة تضاعف من حجم العذاب النفسي، والشيء الثالث المترتب على وجود الظن هو النفس الأمارة بالسوء التي ما انفكت تمنّي بالنجاة أوردت صاحبها موارد الهلاك وهو في الدنيا وما زالت تمنيه الأماني وهو يرى النار أمامه بقضها وقضيضها، بجحيمها ولظاها.

الآن لو استبدلنا فعلموا ب (وظنوا) فقلنا ورءا المجرمون النار فعلموا أنهم مواقعوها، لاكتمل المعنى ولما عاد للجملة اللاحقة من مناسبة (وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) لأن من يعلم أن هذا هو مصيره لا يبحث عن مخرج للنجاة إلا إذا كان لهذا المخرج أمل أو فسحة لديه وهو مفهوم من كونه يبحث، وإلا لا معنى للبحث إن لم يكن في نفسه شيء من أمل بالنجاة وأظن الأمر أبسط من أن يُدلل عليه؟

وهذه الفسحة وهذا الأمل هو ما تعطيه لفظة الظن وتمنعه لفظة اليقين!!

على أن الآية تتحدث صراحة عن بحثهم عن مخرج للنجاة وبالتالي فالظن مقصود لذاته لورود احتمال النقيض في أذهانهم؛ على أن الظن الوارد في الآية أعطى النص دلالات وأبعادًا ما كانت لتأخذها لو كان العلم هو المذكور.

ومن ذلك: التحذير من النفس الأمارة بالسوء كما سبق وبيّنّا.

والثاني: التحذير من أن الشركاء يوم القيامة –كما في الدنيا- لن ينفعوا عُبّادهم شيئًا، وقد توعد الله المشركين بأنه سيبين لهم أن هؤلاء الشركاء لن ينفعوهم شيئاً، وبالتالي كان لا بد من أن يتفكر المشركون بهم كمنقذ من النار؛ ثم يتبين لهم أنه لا فائدة ترتجى منهم، إذ يخطرون ببالهم إبان بحثهم عن مصرف ينقذهم ؛ ويزيد من عذابهم ما يضاف إليه من العذاب النفسي الناشئ عن الندم والحسرة؛ إذ هؤلاء هم الشركاء الأرباب! وهو ما أشارت إليه آية فصلت.

والثالث: أن الإنسان بطبعه يتأمل النجاة من كل كرب حتى لو لم تتوفر لديه العدة الكافية وفي ذلك إشارة إلى ضرورة الاستعداد بدلا من أن يتمنى على الله الأماني "لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا" ١٢٣ النساء، فالذين كانوا في الدنيا يظنون أن لن يصلَوا النار، فغرتهم الأماني وغرهم بالله الغرور عندما وصلوا ليروا النار أمامهم؛ ظنوا أنهم مواقعوها فالأماني غرتهم في الدنيا والآخرة.

ويدل على ذلك هذا التوالي الرهيب للأحداث لدى رؤيتهم النار: رأوا النار فظنوا مباشرة وبحثوا والرعب يسيطر عليهم عن مصرف لتتساقط الأوراق التي ظنوها منجية لهم ليصلوا إلى حقيقة مرة وهي أنه ليس لديهم من مصرف، وثمة أمر آخر تفترق فيه آية الكهف عن آية فصلت؛ ففي الأخيرة

توالت الأحداث بتتابع رهيب بينما في فصلت "وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ" ٤٨ ففي الأمر فسحة أكبر للتفكر مما يعطي مجالا أكبر للعذاب النفسي؛ إذ الأمر متعلق بالشرك وإقامة الحجة بانعدام نفع الشركاء، كما في الآية العظيمة قوية الدلالة "قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ" ٢٢ سبأ

الأمر الرابع إذن هو مضاعفة العذاب النفسي فعندما ظنوا وتفكروا وبحثوا ولم يجدوا أصيبوا بإحباط شديد ومرارة وخيبة أمل، وتعلقوا بشركاء وجدوهم عندما جد الجد لا ينفعون فارتكسوا عندها، وتفكروا في الفاقرة التي ستكسر فقار ظهورهم بسبب شركاء نافحوا عنهم حياتهم وأخلصوا لهم العبادة وآذوا في سبيلهم عباد اللّه، فيتضاعف لديهم العذاب النفسي "اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً" ١٤ الإسراء.

قارن بين هذا الأداء وبين ما كان استعمال العلم سيؤديه، إذ يرى النار فيعلم أنه مواقعها ولا يتفكر في الأسباب التي أوصلته إليها ففي الظن إذن دلالة بارزة على التأمل لم يكن العلم ليؤديها.

الأمر الخامس الذي أداه الظن: هو الكشف عن نفسيات مريضة متكبرة مغرورة تظن دائما أن لها حظوة ومنزلة ليس لصاحبها أن يهان، ففي

الكهف نجد خبر ذلك المتعجرف الذي يقول "وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا"٣٦ الكهف تأمل في "لئن" ثم "ربي" كأنه يظن أن الرب له وحده له عنده حظوة رغم أنه لا يؤمن كثيراً بوجوده؛ ففي حال وجوده ووجود الساعة؛ فله المنزلة الخاصة والتكريم وليس لمثله أن يهان؛ لكن عندما بُعث من هو على هذه الشاكلة: رءا النار فغلب على ظنه أنه من أهلها لعلمه أن إيمانه بالله ما كان إلا ظناً لا يقين فيه؛ ولكن نفسه بدأت تنازعه بأن الله ما أكرمه في الدنيا وسوّده إلا لأنه أهل للجاه، فتغرّه نفسه ليراوده الأمل بالنجاة، لكنه إذ يراجع حساباته لا يجد له مصرفًا عن النار ليقينه بأن إيمانه ما كان إلا ظنًا لا يقين فيه، وفي ذلك تنفير وسخرية لا تخفى من هذا الضرب من الناس، مَثَل من كثر خدمه وحشمه وعزه وسلطانه في الدنيا يستمر الغرور والتكبر صفة أساسية فيه حتى في الآخرة.

أنظر كذلك إلى قوله تعالى "لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءِ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ" ٥٠ فصلت، وأول ما أحب أن ألفت إليه الانتباه هو قوله "**إِنَّ لِي عِندَهُ**" فسبقت لديه الأنا على الضمير العائد على الحق جل وعلا، ثم ذكر الحق سبحانه بضمير الغائب إمعاناً في الدلالة على بعده عن الله، ثم قوله "هَذَا لِي" وهو تجسيد لما قلته

عنه قبل قليل، ومرة أخرى "لئن" الأمر الآخر هنا هو قول الحق "فلننبئن" "بما عملوا" وأي إنباء أبلغ من "كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" وهو ما بيناه من العذاب النفسي المترتب على البحث عن المصرف واليقين بعد الظن بانعدامه فالله سبحانه يترك ذلك يتفكر في أعماله وفي من أشرك، يقلب الآمال في أي صغيرة أو كبيرة عله يجد فيها ما يمكن أن ينجيه فلا يجد فيحاسب نفسه حساباً عسيراً "أن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ".. الآية ٥٦ الزمر يتأمل فيقنط ثم يتأمل فيقنط ويتعلق بسراب ويدرك أنه سراب وهذا أبلغ إنباء بالأعمال –أن تنبأه نفسه فتُأنّبه وهو أشد عليه. وهذا ما أداه "الظن" فتأمل!.

إذن فأجواء سورة القيامة حافلة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة وتمسكهم بالدنيا وإنكار بعضهم البعث لذلك نلاحظ أن أول ثلاث آيات في السورة هي "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ" ٣ فتوسطت النفس اللوامة -وهذه هي النفس التي تتوسط حالات النفس الثلاث في القرآن، الأمارة بالسوء؛ واللوامة؛ والمطمئنة - توسطت هذه النفس موضوع البعث والنشور المبينين لمحوري سورة القيامة الرئيسين ألا وهما: طول الأمل والركون إلى الدنيا؛ والثاني الظن بأنها نهاية المطاف ونسيان الآخرة، وذلك ما تزينه النفس لصاحبها.

فالنفس إذن محور أساسي في هذه السورة العظيمة؛ تزين لصاحبها اتباع شهواته في الدنيا وتمنيه بطول الأمد وتزين له فكرة أن حياته طويلة ممتدة يستطيع أن يتجاهل معها قرب أجله لذلك ففي الآية التي تحدثت عن سكرة الموت، رأينا الإنسان وهو في أشد سكرات الموت وقد بلغت روحه تراقيه ينازعه الأمل بالخلود، فهو ما يزال يظن أنه الموت، وفي ذلك تمسك وتشبث بالحياة الدنيا لذلك قال "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ": لأن دار البقاء هناك وما الدنيا إلا معبر إليها "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ" ٢١.

وفي المشهد الثاني الذي أبرز سحر أداء لفظ الظن ومفهومه في سورة القيامة: تصور لنا السورة غفلةً أخرى، تصور لنا أناسًا بُعثوا من بعد الموت ورأوا النار وقد كانوا في حياتهم الأشد بعدًا عن الله وعما يقرب إليه من قول وعمل، نراهم يظنون أنهم أهل النار ولا يستيقنون ذلك إلا بعد تفكر وبحث عن مصرف أي مصرف (بلا أل التعريف) فعلموا أن لا محيص، وجاء هنا النذير الشديد من النفس التي ما انفكت تزين لصاحبها المنكر للبعث والغارق في شهواته وفي حب الدنيا واقتراف المحرمات هذه النفس أوردت صاحبها موارد الهلاك، جاءت به لِيُفعل به فاقرة؛ ثم ما انفكت يوم القيامة تهون أمر المنكرات التي فعلها في عينه وتمنيه الأماني وتوهمه أن له من هذه الفاقرة منجاة وأن له عن هذه النار مصرف، ولا أكاد أجد أبلغ ولا أقوى من هذا المثل الذي ضرب الله سبحانه للناس في ثنايا استعمال الظن في هذه

المواضع للتحذير من النفس واتباع الشهوات والركون إلى الدنيا من هذا الذي ما صدّق في الدنيا أن نفسه التي بين جنبيه عدو لدود له زينت له المعاصي والكبائر وحقرتها في ناظريه وها هي ما زالت تمارس هوايتها البغيضة حتى في الآخرة نفسها.

فعند وصول الروح للتراقي ما زالت متعلقة بالحياة توهمه بأنه خالد فيها وحتى في دار الحق ما زالت توهمه بأن الذنوب العظام التي ارتكبها واستهان بها ما هي إلا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف؛ فالحذر الحذر أو كما قال الحق سبحانه "أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ٣٤ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى" ٣٥ القيامة.

من هذا يتضح سبب القسم الرهيب الذي افتتح الحق سبحانه وتعالى به السورة ووجود النفس في وسط آيتين تتحدثان عن البعث وقدرة اللّه على إعادة الخلق والقيامة التي فيها دار البقاء ولولا تفسير الظن على هذا النحو لما اتضحت معالم السورة على هذا النحو، ونستطيع كذلك استنباط معنى آخر للظن في هذه الآيات من القيامة والكهف وفصلت مستنبطًا من حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنعم وبارك "إن اللّه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم

رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند اللّه من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المسلم بكل الذي عند اللّه من العذاب لم يأمن من النار"[52] فهذا الكافر يوم القيامة يرى رحمة اللّه تشمل أقوامًا فيمني نفسه بالنجاة، وهذا مفعول الظن ثم لا يجد فيما قدم من عمل ما يجعله أهلا لأي نجاة فيوقن عندها أنه من أهلها والعياذ باللّه سبحانه؛ يدخل في رحمته من يشاء، وهذا المعنى الأخير ورد عند الألوسي يقول: "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا ...الآية، وقيل: الظن على ظاهره، وهم لم يتيقنوا (أنهم مواقعوها ) أي مخالطوها، واقعوها، واقعون بها، لعدم يأسهم من رحمة اللّه تعالى قبل دخولهم فيها؛ وقيل إنهم لما رأوها من بعيد كما سمعت في الحديث، ظنوا أنها تخطفهم في الحال، فإن اسم الفاعل موضوع للحال، فالمتيَقَّن: أصل الدخول والمظنون: الدخول حالا، وفي مصحف عبد اللّه "ملاقوها" وكذلك قرأ الأعمش وابن غزوان عن طلحة واختير جعلها (أي هذه القراءة) تفسيراً لمخالفتها سواد المصحف، وعن علقمة أنه قرأ: "مُلافّوها" بالفاء المشددة من لف الشيء، ولم يجدوا عنها مصرفاً: أي مكاناً ينصرفون إليه"[53]

---

52) فتح الباري. ابن حجر. الحديث ٦٤٦٩ ج١١ ص٣٠٧

53) روح المعاني في تفسير القران العظيم. الألوسي ٩/٤٣١

من ذلك نرى –والله أعلم- أن تفسير الظن لا بد أن يكون على بابه من دون تأول بأنه اليقين وبذلك يُرد تفسير القائلين بأن الظن من الأضداد كلية لأن شاهدهم الرئيس قد احتضر في أجواء سور القيامة والكهف وفصلت ويونس.

# فصل: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (٤٦ البقرة)

ننتقل الآن إلى أجواء سورة البقرة، حيث نجد الآية التي بها استشهد جمهور المفسرين على أن الظن هو اليقين، وأعود فأذكر أنه لو جاز أن يكون الظن بمعنى اليقين في اللغة، فإن إنزاله على هذه الآيات ليكون بمعنى اليقين بالبعث بعيد عن الصواب لأن موضوع الآيات ليس الظن بالبعث والحساب، ولنناقش أقوالهم بعد سماعها:

"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ
بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ٤٠ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ
أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ٤١ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ
وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٣ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ
الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ٤٤ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى
الْخَاشِعِينَ ٤٥ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦
البقرة. لدينا إذن هنا ظنان: ظن بملاقاة الله؛ وظن بالرجوع إليه!!

لننقل أولا آراء كثير من المفسرين رحمهم الله:

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار: "ثم وصف الخاشعين وصفاً يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة به قال شيخنا (يعني محمد عبده): فالإيمان بلقاء الله تعالى هو الذي يوقف المعتقد عند حدوده ولو لم يكن الاعتقاد يقينيًا، فإن الذي يغلب على ظنه أن هذا الشيء ضار يجتنبه، أو أنه نافع يطلبه ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن، وقد فسر الظن مفسرنا (الجلال) [السيوطي] باليقين لأنه الاعتقاد المنجي في الآخرة، وفاتَه أن الإكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرأون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالاحتياط (أقول) بل هو تقليد عادي محض، كالعادات القومية والوطنية فهو لا ينجي صاحبه في الآخرة إ.هـ."[٥٤]

وقد تابع الشيخُ العلامة محمد متولي الشعراوي رحمه الله الشيخَ رضا في تفسيره وقال: "النّسب أنواع متعددة؛ نسبة أنا جازم بها وفي الواقع أنها واقعة كقولنا محمد مجتهد أنا أجزم بذلك والواقع كذلك وأستطيع أن أدلل عليه فهذا هو العلم؛ فالعلم نسبة أجزم بها وهي واقعة وأستطيع أن أُدلل عليها؛ وإن كنت جازماً بها وهي واقعة ولا أستطيع التدليل عليها فهذا هو

---

٥٤) تفسير المنار. محمد رشيد رضا.(١/٣٠١-٣٠٢).

التقليد؛ فإن كنت جازمًا بها وهي مخالفة للواقع فهذا هو الجهل؛ فإن كنت غير جازم فإن كانت متساوية فالشك؛ وإن كانت راجحة فالظن أو مرجوحة فالوهم.

يظنون: يظن وردت بمعنى اليقين فكون الشخص يظن أنه ملاق ربه يدفعه الظن للاحتياط للملاقاة باتباع المنهج فكيف بمن يتيقن؟! (الذين يظنون)- لمجرد أن القضية راجحة لديهم دفعهم هذا الاحتياط للخشوع، فالمفسرون قالوا أنهم يظنون بمعنى يتيقنون فعدول الحق عن اليقين إلى الظن من باب أنه من باب أولى من يظن يفعل فكيف بمن تيقن!!"[٥٥].

قال المراغي أيضاً ما يشبه ذلك: "أي لا تثقل الصلاة على الخاشعين الذين يتوقعون لقاء ربهم يوم الحساب والجزاء وأنهم راجعون إليه بعد البعث فيجازيهم بما قدموا من صالح العمل، وعبر بالظن للإشارة إلى أن من ظن اللقاء لا تشق عليه الصلاة فما ظنك بمن يتيقنه؛ ومن ثم كان الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ فكأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم لم يصل إيمانهم بكتابهم إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالأحوط في أعماله."[٥٦]

---

٥٥) تفسير القران العظيم للشعراوي. الآية ٤٦ البقرة

٥٦) تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. ج١ ص٩٥.

إذن فخلاصة الرأي لدى هذا الفريق أن الظن على بابه، ظن بلقاء الله مَنْ ظنه أخذ بيده إلى طريق الخشية فمن باب أولى من تيقن ذلك واكتفاء الحق سبحانه بذكر الظن هو لتوبيخ يهود على أساس أنهم لم يحتاطوا لأنفسهم حيطة الظان.

واتَّفَقَ معهم في جزئية من تفسيره –وإن افترق معهم في أصل التفسير- الشيخ محمود الألوسي إذ يقول في ضمن تفسيره للآية الكريمة: "وكأن النكتة في استعمال الظن: المبالغة في إيهام أن من ظن ذلك لا يشق عليه ما تقدم فكيف من تيقنه"[٥٧]

وفي الرد على هذا الرأي الذي أراه شديد البعد عن أجواء الآيات وعن مفهوم الظن في القران، نجد أولا أن أوائل سورة البقرة قد أنبأتنا عن صفة المؤمنين المفلحين في قول الحق سبحانه "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" ٥ وقد مر كثيراً الاستشهاد بآية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" ٣٢ الجاثية فلا يمكن أن يمتدح القران -ولو على سبيل تقريع

---

٥٧) روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني الألوسي ١/٣٩٦

يهود- من يظن لقاء الله في الآخرة بمعنى أنه لا يتيقن البعث والنشور ويُبقي لديه احتمال عدم الرجوع إلى الله في الآخرة أقول لا يمكن أن يمتدحه بأي شكل من الأشكال، علاوة على جعله قدوة لمن يطلب منه أن يخشع في صلاته على نحو خاص من الخشوع!!

إن من كان الظن سائراً به نحو الخوف والاحتياط لنفسه بأداء الأعمال على نحو خاص كان الأولى به أن يحمله هذا الخوف إلى المزيد من التفكر ليصل إلى الاعتقاد، فهو أولا ما كان **ليخشع ويؤدي الفرائض على أتم وجه بحيث يمتدحه الله** سبحانه إلا إذا كان الخوف قد استبد به، ومن كان الخوف قد بلغ به هذا المبلغ كان من الأجدر به أن يدفعه الخوف إلى اليقين وما من سليم عقل وضع الخوف في قلبه موطئ قدم إلا ما زال به حتى تيقن وهذه طريق الحق وسبيل الهداية إلى الله.

ثم ألا ترى حالنا نحن الذين نتيقن لقاء الله سبحانه لا نكاد نخشع في صلاة ولا نستطيع أداء عمل على وجهه من الإخلاص وحسن الأداء فمن هو هذا الظان الذي يقفز من خلف الصفوف ليتبوأ مقعد الريادة؛ والشيء الآخر المهم هو جو الآيات العام فهل يا ترى بعد أن ترتقي أوامر الله سبحانه بهم إلى طلب الايمان وذكر النعمة والتقوى وعدم الكفر بما عندهم خبره وعدم لبس الحق بالباطل؛ وإظهار الحق وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين والصبر والخشوع في الصلاة بين يدي الله سبحانه هل بعد هذا

وغيره يقول لهم اجعلوا إيمانكم بالبعث وبلقائي عند البعث إيمان الظان الذي يبقى لديه احتمال عدم حصول ذلك كله لماذا؟؟ وأي مبرر؟! وهو الذي بيَّن في كتابه العزيز في عشرات الآيات ما ينتظر من يظن لقاءه ولا يتيقنه! كان الأولى –لو كان هذا هو المعنى المقصود- أن يرتقوا بهذه الأفعال وهذا الإيمان إلى درجة تناسب ما عندهم من العلم الذي منَّ الله عليهم به ومن البينات التي نسبها الله إلى نفسه فيكون الطلب حينئذ: الذين يعلمون أنهم ملاقوا ربهم، لو كان هذا هو المعنى المراد من الآيات.

ثم هل لو فعلوا وآمنوا إيمان الظان وجاءوا الله سبحانه بهذا الاعتقاد الفاسد يوم القيامة فسألهم فقالوا له أنت طلبت منا أن نقتصر على الظن أليس في ذلك حجة لهم؟!

إذن فليس الظن المطلوب في هذه الآية هو الظن بلقاء الله بمعنى البعث والقيامة قطعًا أي الظن مع احتمال النقيض وهو إمكانية عدم اللقاء والرجوع إليه سبحانه فهل الظن هنا هو بمعنى اليقين كما توهم أغلب المفسرين؟!!

لننقل أولا آراءهم: يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله تعالى: "الذين يظنون: قال أبو جعفر إن قال قائل: وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه والظن شك والشاك في لقاء

الله كافر؟ قيل له إن العرب قد تسمي اليقين ظناً والشك ظناً نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة ومنه قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج        سراتهم في الفارسي المسرد

يعني بذلك تيقنوا ألفي مدجج تأتيكم...إلى قوله: ومنه قوله جل ثناؤه "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا": علموا، ومثله: "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ" ٢٠الحاقة علمت إلى أن يقول: فتأويل الآية إذًا واستعينوا على الوفاء بعهدي بالصبر عليه والصلاة وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخائفين عقابي المتواضعين لأمري **الموقنين** بلقائي والرجوع إلي بعد مماتهم"[58]

وأما الإمام القرطبي فيقول: "والظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ومنه قول الله تعالى "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ" ٢٠الحاقة وقال "فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا""[59] ويقول أيضاً: "وقد قيل: إن الظن في الآية يصح أن يكون على بابه ويضمر في الكلام: بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين ذكره المهدوي والماوردي قال ابن عطية: وهذا تعسف، إلى أن يقول القرطبي: وقد يجيء اليقين بمعنى الظن ومعنى ملاقوا ربهم: جزاء ربهم وقيل: جاء على المفاعلة وهو من واحد مثل عافاه الله؛ وأنهم بفتح الهمزة

---

٥٨) جامع البيان في تفسير القران. الطبري ٢٠٦/١

٥٩) الجامع لأحكام القران. القرطبي ٣٧٤/١

عطف على الأول ويجوز وإنهم بكسرها على القطع، إليه: أي إلى ربهم (راجعون) وقيل إلى جزائه (راجعون) إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى"[٦٠]

وأما الأصفهاني فيقول: "الظن اسم لما يحصل عن أمارة ومتى قويت أدت إلى العلم ومتى ضعفت جدًا لم يتجاوز حد التوهم، ومتى قوي أو تُصوِّر تَصورُّ القوي استعمل معه أنَّ المشددة و(أنِ) المخففة منها ومتى ضعف استعمال أنِ المختصة بالمعدومين من القول والفعل، فقوله "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة وكذا "يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ" فمن اليقين"[٦١]

أما الشيخ أبو النصر السمرقندي الحدادي فيقول: "إن سُئل عن قوله تعالى "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة أليس هذا صفة للمؤمنين؟ والظن هو الشك فكيف يجوز وصف الموقنين بالشك؟ الجواب وبالله التوفيق: إن حد الظن هو الوقوف بين النقيضين فهو اسم من أسماء الأضداد فالظن هو اليقين والشك معًا لأن أحد طرفيه شك والثاني يقين، وارد في القران وفي أشعار العرب موجود: أما نظيره في

---

٦٠) الجامع لأحكام القران. القرطبي ٣٧٦/١

٦١) مفردات ألفاظ القران. الراغب الأصفهاني ص٥٣٩

القران: فقوله تعالى "إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠الحاقة أي أيقنت وقوله تعالى "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا" وقوله تعالى "إن ظَنَّا أن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ" فهذه بمعنى اليقين، وأشباه ذلك من المتضادين من قول العرب: الصبح صريم والليل صريم...الخ "[٦٢] ويقول الماوردي: ""يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ" فيه تأويلان: أحدهما يظنون أنهم ملاقوا ربهم بذنوبهم لإشفاقهم من المعاصي التي كانت منهم والثاني قول الجمهور أن الظن ها هنا اليقين فكأنه يقول: الذين يتيقنون أنهم ملاقوا ربهم وكذلك قوله تعالى "إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠الحاقة أي تيقنت، قال أبو داود

رب همٍّ فرَّجْتَهُ بغريمٍ وغُيوبٍ كشفْتَها بظنونِ

---

٦٢) المدخل لعلم تفسير كتاب اللّه تعالى.لأبي النصر الحدادي ص١٩٧-١٩٨

# (وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أنه أراد بالرجوع الموت والثاني: أنهم راجعون بالإعادة في الآخرة وهو قول أبي العالية، والثالث: راجعون إليه أي لا يملك أحد لهم ضرًا ولا نفعًا غيره كما كانوا في بدء الخلق"[٦٣] وهو ما نقله عنه العز بن عبد السلام في اختصار تفسيره.

وكما سبق قال في ذلك ابن عطية رحمه الله: "وهذا تعسف ... وقوله تعالى "أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ" أنَّ وجملتها تسد مسد مفعولي الظن، والملاقاة هي للعقاب أو الثواب، ففي الكلام حذف المضاف. ويصح أن تكون الملاقاة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة وورد بها متواتر الحديث، وحكى المهدوي أن الملاقاة هنا مفاعلة من واحد مثل عافاك الله، وهذا ضعيف، لأن لقي يتضمن معنى لاقى وليست كذلك الأفعال كلها، بل فَعَلَ خلاف فاعل في المعنى، وملاقوا أصله ملاقون لأنه بمعنى الاستقبال، فحذفت النون تخفيفاً

---

٦٣) النكت والعيون الماوردي ١١٦/١ وتفسير العز بن عبد السلام اختصار النكت والعيون ١٢٣/١

فلما حذفت تمكنت الإضافة بمناسبتها للأسماء، وهي إضافة غير محضة لأنها لا تُعَرَّف."[٦٤]

قال البيضاوي: "أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيهم ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود (يعلمون) وكأن الظن لما شابه العلم في الرجحان أطلق عليه لتضمن معنى التوقع قال أوس بن حجر[٦٥]:

فأرسلتُه مستيقِنَ الظن أنه ... مخالطُ ما بين الشّراسيفِ جائِفُ"

وفي تفسير أبي السعود[١/٩٨] كلام يكاد يطابق ما في البيضاوي.

أما الإمام النسفي فيقول في تفسيره: "وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين: لشاقة ثقيلة من قولك كبر علي هذا الأمر لأنهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم ألا ترى إلى قوله (الذين يظنون) الآية، والخشوع: الإخبات والتطامن وأما الخضوع فاللين والانقياد، (الذين يظنون) أي يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده ويطمعون فيه؛ وفسر يظنون بيتيقنون لقراءة عبد الله: يعلمون، أي يعلمون أنه لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على

---

٦٤) المحرر الوجيز. تفسير ابن عطية ١/٢٧٨-٢٨٠.

٦٥) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/٥٩

حسب ذلك وأما من يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة، وفسر اللقاء بالرؤية وملاقوا ربهم بمعاينوه بلا كيف"[٦٦]

وجل هذا الكلام الذي قاله المفسرون يرحمهم الله في الكشاف للزمخشري.

وقال السمين الحلبي: "...والظن: ترجيح أحد الطرفين على الآخر نفياً وإثباتاً وقد يعبر به عن اليقين والعلم كما يعبر بالعلم عنه مجازاً؛ ... "الذين يظنون ...الآية" أي يتيقنون إذ لا يناسب حالُهم وصفَهم بظن ذلك حقيقة وقيل: هو على بابه بتقدير مضافٍ أي ثواب ربهم وهو أمر مظنون إذ لا يقطعون لأنفسهم بالثواب وبه نظر لأن قوله بعد "وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يعكر عليه؛ وأجيبَ بأنه يُحمل مع المقدَّر على الظن الحقيقي مع قوله "وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" على اليقين واعتُرضَ بلزوم الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ وأُجيب بالتزامه. ...قال بعضهم: إنما جاز استعمال كل من الظن والعلم في موضع الآخر لعلاقة أنّ كلا منهما فيه رجحان أحد الطرفين إما جزما –وهو العلم- وإما ترددا –وهو الظن-."[٦٧]

---

٦٦) تفسير القران. الإمام النسفي. مؤسسة الرسالة ٤٨/١

٦٧) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. السمين الحلبي. ج ٣ ص١٩-٢٠

قال أبو الرشتة غفر الله له: "بين الله سبحانه في هذه الآية حال أولئك الخاشعين منهم الذين يعلمون أنهم ميتون وأنهم إلى ربهم راجعون بعد الموت...وأصل الظن الشك ولكنها تستعمل بمعنى اليقين بقرينة أو مجازاً على عادة العرب في استعمال كلامهم، والقرينة هنا هي لقاء الله والرجوع إليه مسندة إلى المؤمنين الخاشعين، فتكون بمعنى "اليقين" أي "يعلمون أنهم" لأن الظن في هذه الحالة كفر، ونحو هذا الاستعمال في الآية الكريمة "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠الحاقة أي علمت، أما الظن بدون قرينة فهو الشك.

[وفي الهامش] ثم تفسير ملاقاة الله باللقاء بعد الموت أي بمعنى الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، وذلك لأن معنى (لقي) هو أول المقابلة: كل شيء استقبل شيئاً أو صادفه فقد لقيه، ويقال: التقى الغاربان إذا تحاذيا أو تقابلا. (لسان العرب) وأول لقاء الله سبحانه هو عند الموت لهذا قلت [أبو الرشتة] ملاقوا ربهم: أي الموت. أما إليه راجعون، فقد وضحتها الآية السابقة "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" ٢٨ أي الرجوع إلى الله بعد الحياة الثانية، وهذا يعني يوم القيامة، **بعد** البعث والنشور، فيكون المعنى كما ذكرت: يوقنون بالموت وبالبعث والنشور يوم القيامة.... و(ملاقوا ربهم) يعني يلقون ربهم مستقبلا، والعرب تجري الإضافة وحذف النون بالنسبة للأسماء المبنية من

الفعل والتي في معنى الاستقبال (ملاقوا ربهم) بمعنى يلقون ربهم، ونحو هذا قوله تعالى "إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ" ٢٧ القمر، ولما يرسلها بعد."[٦٨]

وهنا لي تعقيب بسيط: أولا ليس هنالك ما يدعو إلى الإصرار على أن الآية تخص البعث والنشور، خاصة إذا ما حملنا الظن على بابه كما سيأتي، والآية استعملت "ثم" والتي تدل على الترتيب مع التراخي، فالرجوع إلى اللّه مرحلة ما بعد البعث، أي المحاسبة، ويخدم بحثنا جداً هذا التفسير الدقيق للتفريق بين الملاقاة والرجوع، فلو فسرناها على أساس أن الموت هو الملاقاة، كان ذلك كما سيأتي من باب "صل صلاة مودع" والرجوع هو المحاسبة، كذلك يحتمل أنه أول ما يلاقي ربه بعمله يظن أنه بهذا العمل لن ينجو، ثم يظن بربه الظن الحسن إذ يرجع إليه؛ أي إلى رحمته كما في الحديث الذي سيأتي بيانه إن شاء اللّه ": لن يُنجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمة، سَدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدُّلْجَة والقصدَ القصدَ تبلغوا".

أما العلامة الألوسي فيقول رحمه اللّه رحمة واسعة: "الظن في الأصل الحسبان، واللقاء: وصول أحد الجسمين إلى الآخر بحيث يماسه والمراد من

---

٦٨) التيسير في أصول التفسير. عطا أبو الرشتة. ص٨٣.

لقاء الرب سبحانه إما ملاقاة ثوابه أو الرؤية عند من يجوِّزها وكلٌّ منهما مظنون متوقَّع لأنه وإن علم الخاشع أنه لا بد من ثواب للعمل الصالح وتحقق أن المؤمن يرى ربه يوم المآب- لكن من أين يعلم ما يُختم به عمله- ففي وصف أولئك بالظن إشارة إلى خوفهم وعدم أمنهم مكر ربهم ("فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" ٩٩الأعراف) وفي تعقيب الخاشعين به حينئذ لطف لا يخفى إلا أنه عطف "أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" على ما قبله يمنع حمل الظن على ما ذكر الرجوع إليه تعالى- المفسَّر بالنشور أو المصير إلى الجزاء مطلقا مما لا يكفي فيه الظن والتوقع –بل يجب القطع به – اللهم إلا أن يُقدَّر له عامل –أي ويعلمون- أو يُقال: إن الظن متعلق بالمجموع من حيث هو مجموع وهو كذلك غير مقطوع به –وإن كان أحد جزأيه مقطوعًا – أو يقال: إن الرجوع إلى الرب هنا المصير إلى جزائه الخاص أعني الثواب بدار السلام والحلول بجواره جل شأنه –والكل خلاف الظاهر- ولهذا اختير تفسير الظن باليقين مجازًا ومعنى التوقع والانتظار في ضمنه ولقاء اللّه تعالى بمعنى الحشر إليه والرجوع بمعنى المجازاة –ثواباً أو عقاباً- فكأنه عز شأنه قال يعلمون أنهم يحشرون إليه فيجازيهم متوقعين لذلك وكأن النكتة في استعمال الظن المبالغة في إيهام من ظن ذلك لا يشق عليه ما تقدم – فكيف من تيقنه- والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بعلية الربوبية – والمالكية للحكم- وجعل خبر (أن) في الموضعين اسما للدلالة على تحقق

اللقاء والرجوع وتقررهما عنده وقرأ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه (يعلمون) وهي تؤيد هذا التفسير" [٦٩]

قال الفخر الرازي الذي غالبا ما وجدناه شديد الدقة مستنير التفكير في تفسيره لمثل هذه الآيات يرحمه الله: "للمفسرين فيها قولان: الأول: أن الظن بمعنى العلم. قالوا: لأن الظن وهو الاعتقاد الذي يقارنه تجويز النقيض يقتضي أن يكون صاحبه غير جازم بيوم القيامة، وذلك كفر والله تعالى مدح على هذا الظن، **والمدح على الكفر غير جائز**، فوجب أن يكون المراد من الظن ههنا العلم، وسبب هذا المجاز أن العلم والظن يشتركان في كون كل واحد منهما اعتقاداً راجحاً إلا أن العلم راجح مانع من النقيض، والظن راجح غير مانع من النقيض، فلما اشتبها من هذا الوجه صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر... وقال: "أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ" ٤ المطففين، ذكر الله تعالى ذلك إنكاراً عليهم وبعثاً على الظن، ولا يجوز أن يبعثهم على الاعتقاد المجوز للنقيض فثبت أن المراد بالظن ههنا العلم. [راجع بحث هذه الآية لترى رأينا فيها].

القول الثاني: أن يحمل الظن على ظاهره وهو الظن الحقيقي. ثم ههنا وجوه: الأول: أن تجعل ملاقاة الرب مجازاً عن الموت، وذلك لأن ملاقاة الرب

---

٦٩) روح المعاني. الألوسي ١/٣٩٦.

مسبب عن الموت فأطلق المسبب والمراد منه السبب، وهذا مجاز مشهور فإنه يقال لمن مات إنه لقي ربه، إذا ثبت هذا فنقول: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون الموت في كل لحظة، وذلك لأن من كان متوقعا للموت في كل لحظة فإنه لا يفارق قلبه الخشوع، فهم يبادرون إلى التوبة...

الثاني: أن تفسير ملاقاة الرب بملاقاة ثواب الرب وذلك مظنون لا معلوم فإن الزاهد العابد لا يقطع بكونه ملاقيا لثواب الله بل يظن إلا أن ذلك الظن مما يحمله على كمال الخشوع.

الثالث: المعنى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم بذنوبهم، فإن الإنسان الخاشع قد يسيء ظنه بنفسه وبأعماله فيغلب على ظنه أنه يلقى الله تعالى بذنوبه..."[٧٠] ونرى أنه أصاب والعلم عند الله في الوجوه التي كان الظن فيها على أصله، ولكم سرني رأيه الذي به اطمأننت إلى ما ذهبت إليه من تفسير هذه الآية.

وكذلك جاء في اللباب للإمام أبي حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي "والثاني: أن الظن على بابه وفيه تأويلان: أحدهما: أن تجعل ملاقاة الرب مجازاً عن الموت، لأن ملاقاة الرب سبب عن الموت، فأطلق المسبب وأراد

---

٧٠) تفسير الفخر الرازي ١/٤٩١.

السبب، وهو مجاز مشهور فإنه يقال لمن مات: أنه لقي ربه، فتقدير الآية: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين؛ الذين يظنون أنهم ملاقوا الموت في كل لحظة، فإن من كان متوقعاً للموت في كل لحظة فإنه لا يفارق قلبه الخشوع.

وثانيها: أنهم يظنون ملاقاة ثواب ربهم لأنهم ليسوا قاطعين بالثواب دون العقاب، والتقدير: يظنون أنهم ملاقوا ثواب ربهم، ولكن يشكل على هذا عطف "وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" فإنه إذا أعدناه على الثواب المقدر فيزول الإشكال، أو يقال: أنه بالنسبة إلى الأول بمعنى الظن على بابه، وبالنسبة إلى الثاني بمعنى اليقين، ويكون قد جمع في الكلمة الواحدة بين الحقيقة والمجاز وهي مسألة خلاف. إ. هـ."[٧١]

أعود فأذكّر بأن قولهم أن الظن بالبعث كفر، وبالتالي في ذلك قرينة على أن الظن بمعنى اليقين هو عكسٌ لما كان يجب عليهم أن يفهموا عليه الآيات، أي أن القرينة يجب أن تفهم بالشكل التالي: لما كان الحق سبحانه لا يقبل من أحد ظناً في البعث والنشور، فإن في ذلك قرينة على أن موضوع الآيات ليس بحال من الأحوال البعث والنشور، والظن أو اليقين بذلك الأمر العقدي الخطير.

---

٧١) اللباب في علوم الكتاب. عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ٣٥/٢.

## باب: ما أراه في الآية الكريمة:

فلنتساءل أولا ونحن نعلم أن القران الكريم دائماً يضع المصطلح المناسب واللفظ الدقيق لبيان المعنى المطلوب في موضعه، فلماذا لم يقل الحق سبحانه هنا: الذين يعلمون أنهم ملاقو ربهم، لتكون أكثر دلالة على المعنى من لفظ طالما هاجم الفكر الإسلامي بأدلة متكررة من القرآن معتنقيه، لماذا يلبس إذن المفاهيم؟ من هنا يبدأ الظن بأن ما ذهبوا إليه خطأ، والله أعلم!

فلا يمكن أن يناقض القران نفسه فيبين أول البقرة أن اليقين هو سبيل الفلاح ثم يستعمل الظن في البعث بمعنى اليقين هنا ثم يبين مصير الظانين بالبعث بأنه النار في غير موضع من القران؛ فلا بد أن المقصود هنا ليس الظن بالبعث وبوجود الآخرة وبالنشور لا من قريب ولا من بعيد، لا أن في ذلك قرينة على أن الظن بمعنى اليقين.

الأمر الآخر المهم هو انعدام القرينة أو الصارف الذي يصرف معنى الظن هنا عن معناه الأصلي –أي ترجيح أحد النقيضين مع عدم نفي النقيض الآخر نفيًا قاطعًا- ليصرفه إلى اليقين، (المجازي) وقد بينا سابقا القاعدة نقلا عن الصواعق المرسلة في أن نقل معنى مصطلح إلى معنى آخر من غير صارف لا يجوز، خاصة وأن المعنى المجازي هذا لا يناسب النص!

ثم إن شواهدهم اللغوية على أن الظن بمعنى اليقين ضعيفة في دلالتها على ما ذهبوا إليه وقد ناقشتهم في موضع آخر من البحث ليسقط الاحتجاج بهذا القول، ولا أعلم من أول من قال بأن الظن قد يكون بمعنى اليقين، غير أن الإمام ابن تيمية رحمه اللّه يقول: والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح كما في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم، ويسمون الاعتقاد المرجوح وهماً وقد قال تعالى "وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" ٢٨ النجم، فالاعتقاد المرجوح هو ظن وهو وهم، وهذا الباب [يعني "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ" ] قد يكون من حديث النفس المعفو عنه... الخ،[٧٢]

فلعل علماء الكلام –ثم تابعهم المفسرون- إذ لم يستطيعوا أن يبينوا كيف يكون معنى الآية يشكّون بلقاء اللّه وبالرجوع إليه بحثوا في أشعار العرب فوجدوا الظن مستعملا في أبيات تأولوها على أنه اليقين، وأظنها ليست كذلك.

على أن إقحام البعث والنشور في هذه الآية ليس عليه ما يدل عليه من السياق فاللّه تعالى يطلب خشوعاً على نحو خاص وبطريقة تناسب ما عندهم من البيّنات والعلم والعهد وهذا الخشوع يكون باتهام النفس بالتقصير، أما

---

٧٢) دقائق التفسير. ابن تيمية، تحقيق د.محمد السيد الجليد٣/٢٠٢

أنَّ كل من يوقن ملاقاة اللّه يكون خشوعه على أكمل وجه فغير وارد وقد جاء في آثار كثيرة عن كبار الصحابة مثل عمر رضي اللّه عنه وأرضاه أنه كان أحياناً يسيّر الجيش ويغزو ويفتح للمسلمين البلاد وهو في الصلاة، وهو الذي كان يعاتب نفسه بأنه بلغ الشيب في الإسلام ولم يؤد صلاة على وجهها، كان هكذا دائم الاتهام لنفسه ونحن هنا نطلب اتهام أنفسنا بالتقصير عالمين أن صلاة عمر وصحابة رسول اللّه عليه السلام كانت بما لا يمكن مقارنته بأخشع ما يمكن أن يصله خشوع أتقانا فهم قد تربوا في مدرسة النبوة وما كان ذلك منهم إلا من باب قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فما نراه عملا يقارب الكمال كانوا يرونه سيئة يستغفرون اللّه عليها، وتواضعاً منهم واستحضاراً لهيبة اللّه التي فقدناها ولا حول ولا قوة إلا باللّه، فالشعور بالتقصير مطلوب من كل مَن يوقن بالبعث والنشور!!

فموضوع الظن هنا ليس الظن بالبعث والنشور بل في شيء غيره سنبينه إن شاء اللّه.

إلا أن الفيصل المبين للمعنى المقصود من الآية –واللّه تعالى أعلم- نجده في جو الآيات العام وفي السياق المحيط بها لنتبين موضوع الظن ومادته هل هو الظن بالبعث والنشور أم انه ظن بشيء آخر؟!!

فلنرجع إلى الآيات الكريمات: يبدأ الخطاب بالتذكير بنعمة اللّه على بني إسرائيل: "**اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ**"، وينسب اللّه سبحانه وتعالى النعمة إلى نفسه لتعظم في نفوس بني إسرائيل فيؤدوا حقها!!

وكذلك "عهدي" و"آياتي" و"إياي" فاتقون، و"إياي" فارهبون، فالخطاب بضمير المتكلم، والنعمة والعهد والآيات ينسبها اللّه سبحانه إلى نفسه مذكِّراً بأنها من عنده سبحانه لتعظم في نفوس بني إسرائيل ولتدفعهم إلى فعل أفعال تناسب اختصاصهم بهذه الآلاء من اللّه سبحانه وليقوموا بهذه الأفعال على نحو خاص وعلى أقرب وجه من الكمال بما يتناسب مع نعمةٍ وعهدٍ وآياتٍ منسوبة إلى اللّه سبحانه، يذكّرهم بما معهم من خبر هذا النبي صلى اللّه عليه وسلم وأنعم وبارك، فإذا كان على من لم يكن لديه "نعمتي" و"عهدي" و"آياتي"، من لم يكن لديه علم الكتاب الذي لديكم أن يؤمن، وقد يمر بمرحلة التكذيب فالشك فالظن فاليقين فإنّ عليكم بما عندكم من الآيات أن تكونوا أول مؤمن لا أول كافر!!

إن الآيات هذه تستلزم منكم حقوقًا خاصة من إيمان شديد وعمل يسموا ليقارب الكمال، ولا تكتموا هذا الحق وتفتروا عليه الكذب وأنتم تعلمون، بل اجعلوه مناصراً لهذا الحق الذي تعلمون أنه الحق وعليكم أن تكونوا القدوة لغيركم بإقامة الصلاة والصلاة عمود الدين من أقامها أقام الدين، واتقاء شح أنفسكم بالزكاة لتطهيرها من حب الدنيا الذي يغوي

وينسي ويصد عن الحق ومن ثم الالتزام بالجماعة، ويا لعظمة الالتزام بالجماعة ويا له من حافظ للدين وقائد للنفس نحو عزي الدنيا والآخرة: اركعوا مع الراكعين، وما في الركوع من ذلة أمام جبار السماوات والأرض لا إله إلا هو، وأمروا الناس بالمعروف وكونوا أول من يأتمر به فأنتم أحق الناس وأولاهم باتباع الحق الذي عندكم علمه في "آياتي" و"عهدي" و"نعمتي" ثم استعينوا بالصبر فقد تلاقوا الأذى في حملكم للدعوة واصبروا على الحق وصابروا عليه أنفسكم واصرفوها عن هواها، والصلاة وهي أمر ثقيل على النفس كبير إلا على الخاشعين وأنتم أولى الناس بأن تكونوا من الخاشعين، وهنا لندقق هل كان الظن صفة للخاشعين على عملهم أم على إيمانهم؟ لاحظ الملاحظات التالية: أولا أمر الحق سبحانه بأن يؤمنوا بما أنزل على نبيه والإيمان ما نافى وجاوز الظن، وقد سبق وقلنا أنه أول البقرة بين أن صفة المؤمنين أنهم يوقنون بالبعث، ثانياً: الأمر بأن يستعينوا بالصبر والصلاة جاء في ضمن أوامر خاصة بأفعال يفعلونها بعد إيمانهم الجازم بصدق الرسول عليه السلام، كالصلاة والصبر والركوع، فموضوع الإيمان هنا فرغنا منه بأنه اليقين، بقوله تعالى "وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ" وتعلق الظن بالأفعال التي يفعلها الخاشعون الظانون بأفعالهم أو بأنفسهم أو بالموقف الذي يقفونه بين يدي ربهم في صلاتهم أو حال قيامهم بالأفعال لا ظنهم بالبعث، فموضوعها الأفعال لا

الاعتقاد، ثالثاً: لنحلل على أساس أن الخاشعين الظانين: أولا يظنون اليعث، وثانياً يظنون بأفعالهم ما سنبينه، "وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون" فهم مستثنون من أن تكون الصلاة عليهم كبيرة، وبالتالي فمن ظن البعث لم تثقل عليه الصلاة، وقد بينا أن هذا القول بالغ السطحية، بينما بتفسير الظانين على أنهم الذين يظنون بأعمالهم أنها لم تبلغ الكمال المنشود كما سنبين إن شاء اللّه فيناسب الوصف الحال المطلوب من البلوغ بالعمل المطلوب مبلغاً يناسب ما عندهم من آلاء اللّه ونعمه، فمن يظن لا ينفك يحاول الارتقاء ليصل إلى أعلى الدرجات بعمله، رابعاً: أين ترى في الآيات المحيطة ذكر البعث أو الإشارة إليه متعلقاً بأفعال الصلاة والصبر يقوم بهما الظانون؟ لو كان الظن بالبعث بهذا الموقف الذي مدحهم الحق سبحانه عليه أبلغ المدح لناقض ما توعد به الكفار الظانين بهذا الموضوع نفسه أي البعث! خامساً: أبعد أن ترتقي الأوامر تصاعدياً في سبيل بلوغ أعلى الدرجات من الإيمان والعمل تنحدر بهذا الشكل لتجعل الإيمان إيمان الظانين؟ أما كان الأولى لو كان هذا المعنى هو المقصود أن يبين أنه إيمان العالمين؟ ألا ترى معي أن عمل الظانين يرقى بالنص ويناسب الارتفاع التصاعدي له كما سيتضح بحول اللّه.

إذن فالخشوع المطلوب هو خشوع من يقف بين يدي اللّه وهو يظن أنه بين يدي اللّه، يظن أن من يلاقيه في الصلاة هو رب العالمين واستعمال

الظن هنا يتناسب مع طبيعتهم البشرية فهم بينا يقفون بين يدي اللّه سبحانه يصلون بخشوع لا تخلو صلاتهم من خطرات النفس ووساوس الشيطان وهموم الحياة ومشاكلها فينسون في بعض مواطن الصلاة أنهم بين يدي اللّه سبحانه فلا يكتمل الخشوع عندهم ولا يرقى إلى أعلى مراتب الكمال وبالتالي فإن استعمال الظن يناسب طبيعتهم البشرية فالمفروض أن يكون الخشوع ممتلئًا بالتطامن والإخبات والخضوع واستجماع الهيبة والخوف وهذا ما يطلب منهم الوصول به إلى أعلى مراتب الكمال وهم "مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ" فالمناسب إذن استعمال الظن لأن من يعلم أنه بين يدي اللّه سبحانه ويشغله أي هم آخر حري بشديد غضب اللّه، هب – ولله المثل الأعلى- أنك في حضرة ملك وانشغلت عن الحديث إليه بمن هو دونه بغير إذنه بينما هو يصغي إليك وينتظر منك أن تكلمه ؛ فماذا سيكون موقفه منك؟

فمن رحمة اللّه تعالى بعباده أنه اكتفى بالظن سبحانه له الحمد هذا هو الوجه الأول لتفسير الآية.

كذلك فإن في اختيار صفة الربوبية معنى آخر يدعم هذا الخشوع ويقويه ويرقى به نحو الكمال المنشود فالرب هو المسيطر فالأمر إذن يحتاج استحضار أكبر قدر من الهيبة والوجل والخشوع، والرب هو المنعم المتفضل فيحتاج الأمر إذن الارتقاء بالخشوع إلى مستوى يناسب الشكر لله على نعمه

لذلك قال "يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ" ربهم هم؛ وما فيها من اختصاص فيه ما فيه من القرب والتحبب والالتصاق فلا ينشغلون بما يبعدهم عن ربهم وهم بين يديه.

عَنْ أَبِي الْيَسَرِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي الصَّلَاةَ كَامِلَةً وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي النِّصْفَ وَالثُّلُثَ وَالرُّبُعَ حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ قَالَ سُرَيْجٌ فِي حَدِيثِهِ حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ. احمد. مسند المكيين.

أما الوجه الآخر للتفسير فمستنبط من أحاديث المصطفى عليه السلام: يقول الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه "صل صلاة مودع، كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك وأيَسْ مما في أيدي الناس تعش غنياً وإياك وما يُعتَذَرُ منه"[٧٣] وفي رواية أخرى "إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع ولا تكلم بكلام تعتذر منه غداً واجمع الإياس مما في أيدي الناس"[٧٤]:

إذا علمت أنه لا تدري نفس متى أجلها ولا بأي أرض تموت فظننتَ وأنتَ تقوم إلى صلاتك أو عند قيامك بأي عمل تتقرب به إلى اللّه أنك حالما تنتهي من أدائه سيتلقاك ملك الموت ليقبض روحك لتقابل اللّه فكيف سيكون

---

٧٣) الطبراني والبيهقي. سلسلة الأحاديث الصحيحة. الألباني. ٤/٥٤٤
٧٤) ابن ماجه وأحمد. سلسلة الأحاديث الصحيحة. الألباني ١/٦٨٧

أداؤك لهذا العمل؟ هل ستصليه كما يصلي معظم الناس أم أنك ستؤدي العمل على أتم وجه لأنك تحب أن تلقى اللّه سبحانه بهذا العمل (والأعمال بخواتيمها) إذن فعلى بني إسرائيل ومن عنده علم الكتاب من اللّه وعهده وآياته ومن أغرقته نعم اللّه أن يؤدي حق ذلك كله بمحاولة الوصول بالعمل إلى غاية ما يستطيع من الجودة ليكون جاهزًا إذا ما تلقاه ملك الموت بعد الصلاة ليلاقي اللّه بعمل يقربه من رحمته.

إذن "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة أي يضعون نصب أعينهم وهم يقومون بالصلاة التي يتقربون بها من اللّه ربهم أن ملك الموت ينتظرهم فيدفعهم هذا الحسبان إلى إحسان العمل على وجه يحاولون أن يقربهم من مرضاة اللّه ومن كنفه إذ يلقونه ويرجعون إليه.

ولا أعلم دافعاً أرقى ولا أقوى من هذا الدافع ليحسن الإنسان عمله فاللّه سبحانه إذ يعلم أن البشر بطبيعتهم يصعب عليهم أن يرتقوا بأعمالهم خاصة الصلاة إلى كمال خشوعها يدلهم على علاج ناجع لهذا المرض بافتراضهم وترجيحهم لمظنة لقاء اللّه بعد الفراغ من صلاتهم أي يُصلون صلاة مودِّع لهذه الحياة يجمع اليأس مما في أيدي الناس ومن هذه الدنيا ويحرص على أن يصلي على نحو لا يلجأ معه إلى الاعتذار عندما يرجع إلى ربه غداً.

فهو إذ يتوقع الموت يقطع معه الأمل بالحياة ورغبة النفس بها لينسى ما فيها ومن فيها وهو بين يدي اللّه سبحانه يتوقع لقاءه فيطلب مرضاته بإحسان العمل ويرجو مغفرته على ما سلف من أعمال وتقصير لأن الأعمال بخواتيمها إن أحسن المرء خاتمة عمله عفا اللّه عما سلف بفضل رحمته، والرهبة التي تعتريه وهو يظن لقاء اللّه لا تدع مجالا لوسوسة الشيطان ولا لخطرات النفس فالخطب جد جليل إنه انقطاع العمل بعد هذا العمل وكذلك في لقاء اللّه شوق يُنسي ما دونه ومن دونه سبحانه فيحسن المرء الظن باللّه مع إحسانه العمل ليدخل في رحمته إذ يرجع إليه، إذن فملاقاة اللّه هنا من باب صلوا صلاة مودع. واللّه أعلم.

فإذا ما جمعنا بين الوجهين السابقين للتفسير فيظن المرء في صلاته ملاقاة اللّه من باب أنه بين يدي اللّه تعالى ومن باب ملاقاة اللّه بالموت بعد الفراغ منها يرقا الخشوع عندها ليصل أقصى درجات الكمال في حدود طبيعة الإنسان البشرية.

الوجه الثالث لتفسير الآية الكريمة يقوم على أساس أن المسلم وهو في صلاته بين يدي ربه يمارس الظن في عمله من باب أنه لا يرقى لمستوى العبادة الصحيحة فما يزال يتهم نفسه بالتقصير ويحاول أن يتلافى التقصير بالارتقاء بخشوعه نحو صورة أفضل ليقترب أكثر من اليقين، فالظن بأن عمله الذي يقوم به لا يرقى ليصل إلى المستوى اللائق بمن يعبد هو الأمر

الذي يحصل فيه الظن، ولكن هنا نتساءل: فأين الملاقاة التي ذكرها الحق سبحانه في قوله "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ"؟

الجواب وبالله التوفيق أن الملاقاة مفاعلة تأتي في اللغة من طرفين هو يأتي بالعمل المظنون بأنه لا يرقى ليلاقي به ثواب الله المأمول به ولا الدرجة المأمولة ولا لينجيه يوم يلاقي ربه به والثاني من الله سبحانه لا يدري أيقبل اللهُ منه برحمته ويغفر له هذا القصور، يظن أنه أخلص العمل ولا يدري أداخله رياء أو شرك خفي فكيف يلقى ربه وكيف يلقاه ربه؟ خاصة والأحاديث الشريفة بينت أن كثيراً من الأعمال يحيلها الله هباء لا تغني من صاحبها شيئًا "عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا". سنن ابن ماجة؛ فكل ما نعمل مما يقرب من الله نبنيه على الظن فمن الطبيعي أن نجد أن استعمال لفظ الظن هو الأنسب وإليك الأدلة من الكتاب و الأحاديث النبوية الشريفة:

يقول الحق سبحانه "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ" ٦٠ المؤمنون، وأول ما أحب لفت النظر إليه هنا هو "أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ" لتناسب آية البقرة "وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ" هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟؟ قال: لا يا بنت الصدّيق!! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل"[٧٥] وفي رواية "لا يا بنت الصدّيق!! ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يُقبَلَ منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات"[٧٦] يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسيره لظلال هذه الآية من المؤمنون: "إن قلب المؤمن ليستشعر يد الله عليه ويحس آلاءه في كل نَفَسٍ وكل نبضة ومن ثم يستصغر كل عباداته ويستقل أعماله كلها إلى جانب آلاء الله ونعمائه كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء حوله.. ومن ثم يشعر بالهيبة ويشعر بالوجل ويشفق أن يلقى الله وهو مقصّر في حقه لم يوفه حق عبادته وطاعته ولم يُقارب أياديه عليه معرفة وشكرًا "[٧٧] إذن فما يزال المؤمن يظن

---

٧٥) أخرجه الترمذي، وانظر سيد قطب. في ظلال القران ٤/٢٤٧٢/ط١٠

٧٦) أخرجه الترمذي وأحمد سلسلة الأحاديث الصحيحة.الألباني ١/٢٥٥

٧٧) سيد قطب. في ظلال القران ٤/٢٤٧٢/ط١٠

أن عمله لا يرقى إلى درجة أن يلقى اللّه به فينجو فيظن أنه إذ يرجع إلى ربه سبحانه سيحاسبه على تقصيره، عن أم المؤمنين عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: من حوسب يوم القيامة عُذِّب فقلت: أليس قد قال اللّه تعالى "فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا"٨الإنشقاق؟ فقال: ليس ذلك الحسب إنما ذلك العرض من نوقِش الحساب يوم القيامة عُذِّب!!

إذن فما تزال القرائن والأدلة تتضافر لتؤكد أن الظن مقصود لذاته لمناسبته للمقام فمن يظن أن أعماله قد لا تنقله من مرحلة العرض إلى مرحلة المناقشة والعياذ باللّه والحساب والعذاب لا يزال ظنه هذا يؤرق أجفانه فيدفعه إلى إحسان العمل ليلقى اللّه إذ يرجع إليه فلا يحاسبه، ومن يستطيع أن يتجرأ على اللّه فيوقن أن عمله سيعرض عرضًا أو سيلاقي القبول أو سيأخذ بيده نحو النجاة فما أنسب استخدام الظن في هذا الموضع في كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!

فاستعمال الظن هنا يؤدي معنى خطيرًا يجب التنبه إليه إنه يحمل رسالة خطيرة من اللّه سبحانه للخلق يحذر فيها المسلم من أن يغتر بأعماله فيهلك وينذره بأن عليه أن يربط أعماله باللّه سبحانه بقبوله تعالى لها أو رميها والعياذ باللّه في وجهه مما يدفعه إلى الهلع والمبادرة إلى إحسان العمل هذا الهلع هو الذي ذكره المصطفى صلى اللّه عليه وسلم في الحديث

الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله "عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظن بعمله، وفي رواية موسى حدثنا معتمر سمعت أبي حدثنا قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا فيمن كان سلف –أو قبلكم- آتاه الله مالا وولدًا (يعني أعطاه) قال فلما حضَرَ قال لبنيه: أيّ أبٍ كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يَبْتَئر عند الله خيرا (فسرها قتادة: لم يدخر) وإن يقدم على الله يُعذبْه فانظروا فإذا مت فأحرقوني حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني (أو قال: فاسهكوني) ثم إذا كان ريح عاصف فأذروني فيها فأخذ مواثيقهم على ذلك وربى ففعلوا، فقال الله: كن! فإذا رجل قائم ثم قال: أي عبدي! ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك! (أو فرَقٌ منك) فما تلافاه أن رحمه الله" فحدثت أبا عثمان فقال: سمعت سلمان غير أنه زاد: فأذروني في البحر، أو كما حدّث[78]

ويقول النبي عليه السلام الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك[79] وهذا أيضاً يعطي دليلا آخر على أن الظن هو المقصود فمن أين يعلم المسلم بماذا يُختم له فيلاقي الله مؤمناً أم –والعياذ بالله – غير ذلك

---

٧٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجرالحديث ٦٤٨١؛ ٣١٩/١١

٧٩) فتح الباري. العسقلاني. الحديث ٦٤٦٩ ص٣٠٧ ج١١

والنار أقرب إليه من شراك نعله، وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: إن اللّه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند اللّه من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المسلم بكل الذي عند اللّه من العذاب لم يأمن من النار[80] ويقول الحبيب المصطفى عليه سلام اللّه "إن اللّه تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر" (٢٨) وهذا الأخير يتصل اتصالا وثيقا بالظن الثاني في آية البقرة "**وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**" فبعد ظنهم أن أعمالهم لا ترقى لتنجيهم يظنون أنهم إذ يرجعون إليه سبحانه سيرحمهم كما سيأتي إن شاء اللّه.

فجمعت الآية بين ظنين ينجو المسلم إذ يضعهما نصب عينيه: ظن بأن عمله لا ينجيه فيرقى به قدر المستطاع ليقبله اللّه برحمته وظن بأن هذا العمل وحده لا ينجيه إلا أن يتغمده اللّه برحمته ليكتمل المعنى ويدق المفهوم.

نستنتج من هذا الغيض من فيض النبوة تفسير الآية الكريمة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة. بما يناسب السياق

---

٨٠) أخرجه الطبراني في الأوسط سلسلة الأحاديث الصحيحة الألباني ٤/٢٢٤

الذي جاءت به الآيات فالله سبحانه يصف داء بني إسرائيل وهو عدم الخشية من الله وانعدام التقوى والخوف والرهبة منه: أذكروا نعمتي، وإياي فارهبون، ولا تكونوا أول كافر به، وإياي فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق، أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، أفلا تعقلون، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين (تعريض بهم)، أساس هذه الأمراض هو انعدام الخوف والرهبة من الله وبالتالي انعدام الإيمان ويصف الله لهم العلاج: إقامة الصلاة والخشوع فيها إلى جانب إيتاء الزكاة والصبر...الخ لكن هذه الأعمال التي عليكم أن تعملوها لتتغلبوا على أمراضكم عليكم أن تؤدوها على درجة من الكمال تليق بمن تعملونها ابتغاء مرضاته –سبحانه- وعليكم أن لا تغتروا بأنفسكم وألا تتباهوا بأعمالكم فتكونوا من الأخسرين أعمالا بل عليكم أن ترتقوا بهذه الأعمال لتصلوا بها إلى مصاف المحسنين ودرجتهم –الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فهو يراهم- وصفة هذه الصلاة وصفة خشوعها هو صفة من يظن بأنها قد لا تقربه من الله ولا تنجيه لتجعله لا يحاسب عليها ولهذا كان استعمال الظن هو المقصود لذاته والله أعلم.

من هنا كان قول أبي بكر رضوان ربي عليه: لو أن إحدى رجلي في الجنة ما أمنت مكر الله! فكيف بنا؟ فالظن إذن ليس في موضوع الاعتقاد بالبعث والنشور كما توهم الذين فسروه على ذلك وإنما هو خاص بإحسان العمل.

وإن أساسه ومادته اتهام النفس بالتقصير لحملها على الارتقاء نحو مصاف المحسنين، ولو استبدلنا العلم بالظن فقال الحق: الذين يعلمون، مقرونة بالخشوع في الصلاة-وهو محور الكلام- لعجز الناس عن بلوغ هذه المنزلة ولشقت عليهم إذ لا يقبل منهم حينها إلا كمال الخشوع، فمن لطف الله سبحانه ورحمته بخلقه اقتصاره على الظن بملاقاته في الصلاة.

على أن إقحام البعث والنشور في هذه الآية ليس عليه ما يدل عليه في السياق فالله تعالى يطلب خشوعاً من نوع خاص وبطريقة تناسب ما عندهم من البينات والعلم والعهد وهذا الخشوع يكون باتهام النفس بالتقصير أما أن كل من يوقن ملاقاة الله يكون خشوعه على أكمل وجه فغير وارد فالشعور بالتقصير مطلوب من كل مَن يوقن بالبعث والنشور!!

وهذا ما تؤيده آية أُخرى ختم الله بها سورة الكهف بعد أن قال "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا"١٠٥ ثم الآية الأخيرة "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" ١١٠ الكهف؛ "مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" ٥ العنكبوت، والنكتة في استعمال كلمة (يرجو) وتشابه اللفظ في البقرة والكهف والعنكبوت (لقاء

ربه) ويتضح فهم الآيات بأن أحدًا لا يستطيع أن يجزم بإخلاصه في العمل أو بصلاح العمل صلاحًا يصلح معه لأن يلقى ربه به وصلاح العمل يتحقق بالنية وموافقة السنة والإخلاص وكلها أمور تدخل فيها مظنة الهبوط بالعمل عن درجة الصلاح لا يعلم المرء في أيها كمًا وكيفًا.

فما أنسب استخدام يرجو هنا والظن في البقرة في الأعمال التي يستعد بها المؤمن للقاء الله ربه سبحانه واضعين نصب أعيننا أن لقاء الله بالبعث والنشور ليس أمراً اختيارياً ليُقال يرجو، لذلك كان اللقاء المقصود هنا خاصًا بلقاء ثواب ورضا عن طريق إخلاص العمل وإحسانه وهذا عين ما قصدناه من تفسير الظن في البقرة مما يجعلنا نرجح هذا المعنى ونختاره والله أعلم.

جاء في لسان العرب: "رجا: الرجاء من الأمل نقيض اليأس... وقد تكرر في الحديث ذكر الرجاء بمعنى التوقع والأمل... وقد يكون الرّجْو والرّجاء بمعنى الخوف. ابن سيده، والرجاء الخوف وفي التنزيل العزيز "مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا" ١٣ نوح، قال الفراء: الرجاء في معنى الخوف لا يكون إلا مع الجحْد، تقول ما رجوتك أي ما خفتك ولا تقول رجوتك في معنى خفتك "قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا" ١٥ يونس أي لا يخشون لقاءنا"[٨١]

٨١) لسان العرب ابن منظور ٤ /١ ٣٠٩-٣١٠

يقول القرطبي: "يرجو لقاء ربه: أي رؤيته وثوابه ويخشى عقابه "فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" قال ابن عباس نزلت في جندب بن زهير العامري قال يا رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى وأريد به وجه الله تعالى إلا أنه إذا أطُّلِعَ عليه سرني فقال النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه" فنزلت الآية، وقال طاوس قال رجل يا رسول الله إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن يُرى مكاني فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيُذكر ذلك مني وأُحمد عليه فيسرني ذلك وأعجب به فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا فأنزل الله تعالى "فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا""..."[٨٢]

وكما نرى فإن موضوع الآيات ومادتها العمل وإخلاصه إما للخوف من لقاء الله والاستعداد له أو والأرجح للأمل بلقاء الله تعالى. وقد فسر الشيخ الشعراوي لقاء ربه في الكهف والعنكبوت على الطمع بلقاء الله لا بجزائه مستشهداً بما كان من رابعة العدوية من شوق للقاء ربها لا لثوابه [مع أن هذا المبدأ في العبادة خطأ صرف فلا بد من أن ترهب الله وترغبه؛ ترجو

٨٢) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١١/ ٧٠

رحمته وتخاف عذابه كما لا يخفى] على أن آيات أخرى جاءت في الكتاب بينت أن اللقاء يأتي بمعنى البعث "قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ" ٣١ الأنعام فما حولها يدل بوضوح أنها عن الآخرة "لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ١٥٤ الأنعام.

فإذا كان هذا المعنى هو المقصود من الظن الأول أي إحسان العمل باستنهاض الهمم وتنبيه العقول وتخويفها لتتقرب إلى اللّه على وجه يليق بالرب فيزداد الإيمان وتنهر المرء من أن يغتر بعمله وتحذره من أن يأمن ما هو ملاقيه، تنهاه أن يحسن الظن إن لم يحسن العمل فعليه العيش وجلا من اللّه وأن يموت وجلا من اللّه مع إحسان الظن أيضاً لكن بتغليب الخوف على الرجاء في الدنيا ليرجع إلى اللّه طامعاً في رحمته فيعرض إن شاء عليه الأعمال عرضاً ولا يناقشه إياها، أقول إذا كان هذا هو تفسير هذا الظن فكيف نعطف عليه ظناً بأن المؤمن يرجع إلى ربه وهو مما لا يكفي فيه الظن؟؟

لنتذكر ما قاله العلامة الألوسي رحمه اللّه: "والمراد من لقاء الرب سبحانه إما ملاقاة ثوابه أو الرؤية عند من يجوِّزها وكلٌّ منهما مظنون متوقَّع لأنه وإن علم الخاشع أنه لا بد من ثواب للعمل الصالح وتحقق أن المؤمن يرى ربه يوم المآب- لكن من أين يعلم ما يُختم به عمله – ففي وصف أولئك بالظن إشارة إلى خوفهم وعدم أمنهم مكر ربهم ("فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ

الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" ٩٩الأعراف) وفي تعقيب الخاشعين به حينئذ لطف لا يخفى".

إلى هنا نوافق الشيخ على ما ذهب إليه وزادنا رحمه الله معنى آخر للملاقاة وهو إمكانية حدوث الرؤية له فالمؤمن يعيش آملا رؤية ربه في الآخرة ويظن أنه يراه إذا ختم له بالإيمان ولكن من أين له أن يعلم بم يُختم له –نسأل الله العفو والعافية- (مع أن هذا المعنى لا يناسب جو الآيات أبداً) ولكن الشيخ يعود لينفي هذا المعنى المستنبط لأن الظن هذا كله معطوف على ظن بالرجوع إلى الله سبحانه وهو مما لا يجوز فيه الإكتفاء بالظن فيقول: "إلا أنه عطف (أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) على ما قبله يمنع حمل الظن على ما ذكر لأن -الرجوع إليه تعالى- المفسَّر بالنشور أو المصير إلى الجزاء مطلقاً مما لا يكفي فيه الظن والتوقع –بل يجب القطع به- أو يُقال: إن الظن متعلق بالمجموع من حيث هو مجموع وهو كذلك غير مقطوع به"[٨٣].

أقول وبالله التوفيق: بل الظن بالرجوع إلى الله ليس بمعنى البعث والنشور هنا أيضاً بل هو الرجوع إلى كنف الله ورحمته فلا يدري المؤمن إذ يَرد الحساب كيف يصدر منه وإليك الأدلة من الكتاب والسنة: قول الحق

---

٨٣) روح المعاني. الألوسي ١/٣٩٦

سبحانه "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ البقرة، "اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" ١١ الروم؛ "وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" ٣٦ الأنعام "قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" ٦٤ النور "ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" ٥٥ آل عمران.

فالرجوع إلى اللّه حسب هذه الآيات يأتي في مرحلة ما بعد البعث ولا ننسى آية المؤمنون "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ" ٦٠. عن عائشة رضي اللّه عنها أنها كانت تقول: قال رسول اللّه عليه السلام "سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدخل الجنة أحد عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى اللّه أدومه وإن قل" [٨٤]

وبالتالي "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة. جمعت الآية بين ظنين ينجو المسلم إذ يضعهما نصب عينيه: ظن بأن عمله لا ينجيه فيرقى به قدر المستطاع ليقبله اللّه برحمته وظن بأن هذا العمل وحده لا ينجيه إلا أن يتغمده اللّه برحمته ليكتمل المعنى ويدق المفهوم. وهذا ما فسره بدقة الحديث الأخير.

---

٨٤ مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري. تحقيق الألباني ص٥١٢

وعن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضي اللّه عنهما: كيف سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول أي رب أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم فيُعطى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فيُنادى بهم على رءوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على اللّه[٨٥] حدثنا آدم حدثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: لن يُنجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمة، سَدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدُّلْجَة والقصدَ القصدَ تبلغوا[٨٦] قال الحافظ ابن حجر العسقلاني أعلى اللّه درجته: قوله "إلا أن يتغمّدني اللّه"، في رواية سهل: إلا أن يتداركني، قوله (برحمة) في رواية أبي عبيد "بفضلٍ ورحمة" وفي رواية الكشمنهي من طريقه "بفضل رحمته" وفي رواية الأعمش "برحمةٍ وفضل" وفي رواية بشر بن سعيد "منه برحمة" وفي رواية ابن عون "بمغفرة ورحمة" قوله "سددوا" ومعناه اقصدوا السداد أي الصواب ومعنى هذا الاستدراك أنّه قد يُفهم من النفي المذكور نفي فائدة العمل،

---

٨٥) مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري. تحقيق الألباني ص٥١٣

٨٦) فتح الباري. العسقلاني. الحديث٦٤٦٣ ص٣٠٠ ج١١

فكأنه قيل: بل له فائدة! وهو أن العمل علامة على وجود الرحمة التي تُدخل العامل الجنة فاعملوا واقصدوا بعملكم الصواب، أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره ليُقبل عملكم فينزل عليكم الرحمة.

قوله "وقاربوا" أي لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يُفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرطوا؛ ولابن المبارك من حديث عبد الله بن عمرو موقوفاً "إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تبغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله فإن

الـمُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى" و المُنْبَتُّ الذي عطب مركوبه من شدة السير مأخوذ من البتّ وهو القطع أي صار منقطعاً لم يصل إلى مقصوده وفقد مركوبه الذي كان يوصله لو رفق به؛ وقوله: "أوغلوا" من الولوغ وهو الدخول في الشيء وقوله" واغدوا وروحوا وشيء من الدُّلْجَة" والمراد بالغدو: السير من أول النهار وبالرواح: السير من أول النصف الثاني من النهار والدّلجة: سير الليل، يقال: سار دُلجة من الليل: أي ساعة فلذلك قال: شيئاً من الدلجة لعسر السير جميع الليل فكأن فيه إشارة إلى صيام جميع النهار وقيام بعض الليل وإلى أعم من ذلك من سائر أوجه العبادة وفيه إشارة إلى الحث على الرفق في العبادة وهو الموافق للترجمة وعبر بما يدل على السير لأن العابد كالسائر إلى محل إقامته وهو الجنة، وقوله:

"والقصد القصد" بالنصب على الإغراء أي الزموا الطريق الوسط المعتدل واللفظ الثاني للتوكيد إ.هـ.[٨٧]

وفي الحديث يقول عليه السلام "من خاف أدلَجَ ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة اللّه غالية، ألا إن سلعة اللّه الجنة"[٨٨]

وذلك أن العرب كانوا يحبون السفر ليلا اتقاء لحر الشمس فإدلاجهم يوصلهم وكذا المسلم عليه أن يدلج أي يبدأ من الشباب.

نعود إلى الآية الكريمة "وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ففي شق الآية الأول دعوة إلى العمل وفي الثاني الظن الحسن باللّه وللآية آفاق وآفاق ومعان خصبة منحتها إياها لفظة الظن وأثرتها بها؛ فيتبادر إلى الذهن مثلا حال مؤمن قرره اللّه بذنوبه فقال مُقِرّاً فعلت فيغفرها اللّه له وكما سترها عليه في الدنيا يمن عليه بالستر في الآخرة وحال منافق أو كافر ينكر فعله الذنوب فيختم اللّه على فمه لتقر وتشهد أركانه على ما اقترف من الذنوب فمن منا لا يخشى وترتعد فرائصه من الخوف من أن يكون الثاني والعياذ باللّه ألم يقل أحد الصالحين "والويل لي إن لم أُلْهَم حجتي" سنقف بين يدي اللّه ليسألنا

---

٨٧) فتح الباري. العسقلاني. الحديث٦٤٦٣ص ٣٠٣ ج١١

٨٨) رواه البخاري والترمذي. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني٥/٤٤٢

عن كل صغيرة وكبيرة فهلا أعددنا الحجة التي بها سنجيب؟ فما أنسب استعمال الظن هنا دليلا آخر على إعجاز القران وسموه.

وجه آخر لتفسير الآية يبنى على أن الظن الوارد في ملاقاة اللّه يصف أهم وأخطر موقف يقفه الإنسان في وجوده إذ يضرب اللّه الحجاب بينه وبين الخلائق ليقف العبد بين يديه يلاقيه فالظن هو الظن الحسن بأن اللّه سيلهمنا حجتنا في ذلك الموقف الرهيب بعد أن نكون قد أعددنا العدة بالأعمال الصالحة الخالصة وهذا ما بينته الآية الكريمة الأخرى من سورة الحاقة فلنرجئ الحديث عن هذا الوجه إلى حينه.

نخلص إلى أن الأوجه التي فسرنا الظن عليها في آية البقرة ٤٦ هي:

أولا: ملاقاة اللّه في الصلاة وما ناسب المصلي إذ يسهو وينشغل وهو بين يدي اللّه.

ثانيها: صلاة المودع فيظن ملاقاة اللّه بعد الصلاة بالموت فيدفعه ذلك لإحسانها.

ثالثها: ممارسة الظن بأن العمل لا يكافئ أيادي اللّه عليه ولا يرقى ليقبل أو لينجي.

رابعها: ملاقاة اللّه هي رؤيته وهو أمر مظنون من حيث الجهل بما يُختم له.

خامسها: الملاقاة هي مرحلة الحساب والظن بأنه وارد على اللّه سيصدر إن شاء اللّه عنه سالماً.

سادسها: قول الحق سبحانه "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا" ٤٤ الأحزاب والظن بأن يكون منهم، والخوف من أن يكون من الصنف الثاني "فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ" ٧٧ التوبة.

وأما الظن بالرجوع إلى اللّه فله وجه واحد تالد وهو أن العمل وحده لا ينجي صاحبه فلا بد بعد إحسانه من إحسان الظن باللّه سبحانه بأنه سيعفو ويغفر ويرحم لتجمع الآية بين إحسان العمل وإحسان الظن باللّه تعالى واللّه أعلم.

# فصل: "الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ"

وفي البقرة أيضا آية تشبه هذه الآية كثيرا "فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"٢٤٩ البقرة ما أشد التصاق معنى الظن في هذه الآية بسابقتها من البقرة وقد أصاب الإمام القرطبي –والعلم عند اللّه- كبد الحقيقة إذ قال: "ويجوز أن يكون (الظن في الآية) شكًا لا علمًا أي قال الذين يتوهمون أنهم يُقتلون مع طالوت فيلقون اللّه شهداء فوقع الشك في القتل"[٨٩] لا في البعث والنشور وشتان بين الظنين فهم أمام معركة كبيرة عددهم وعدتهم لا تقارن -إذا ما استثنينا الإيمان- بعدوهم وهم في مقدمة الجحفل الذي على يديه سيتنزل نصر اللّه فما أقرب الشهادة من أحدهم ليظن لقاء اللّه متمنياً الشهادة في سبيله وهو أرجح الوجوه لتفسير الآية لالتصاق هذا المعنى بأجواء الآيات المحيطة.

---

٨٩) الجامع لأحكام القران. القرطبي٣/٢٥٥

ولمثل هذا ذهب الألوسي رحمه الله: "يظنون: أي يتيقنون... ويحتمل إبقاء الظن على معناه والمراد يظنون أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله تعالى."[٩٠].

وذهب النسفي رحمه الله إلى: "قال الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ": "أي الذين يوقنون بالشهادة قيل الضمير في (قالوا) للكثير الذين انخذلوا و(الذين يظنون)هم القليل الذين ثبتوا معه"[٩١].

وكذلك الماوردي يقول بعد أن يقول "في الظن ها هنا قولان: أحدهما أنه بمعنى اليقين يقول: والثاني بمعنى "الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ" بالقتل في الوقعة"[٩٢]

٩٠) روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني. الألوسي ٢٤٩/٢

٩١) تفسير القران. الإمام النسفي ١٦٥/١

٩٢) النكت والعيون. تفسير الماوردي ٣١٨/١

## فصل: "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ" (الحاقة: ٢٠)

ننتقل إلى أجواء سورة الحاقة: "يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ
١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ
أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ" ٢٠ الحاقة

لعلي لا أغلو ولا أجانب الصواب إن قلت أن هذه الآية تكمل آية البقرة ٤٦ وتوضحها وتثبت بعض الأوجه التي ذهبت إليها في تفسيرها:

وملخص ذلك أن المؤمن عاش حياته ظاناً بعمله الظن الذي أرّقه وغلّب هذا الظن على الظن الحسن أي غلّب الخوف في الدنيا على الرجاء كما كان الحسن البصري رحمه الله وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يظنان أن النار ما خُلقت إلا لهما وكما كان الفاروق رضي الله عنه يظن أنه لو لم يكن من البشر أحد داخلاً النار إلا واحد لكان عمر، هكذا يعيش المؤمن متهماً نفسه بالتقصير وهو فعلا مقصر إذ لا يمكن أن يكافئ أيادي الله عليه ولا أن يعبده حق عبادته ولا يغلب المؤمن الظن الحسن على الخوف إلا عند اقتراب الأجل ودنوه بعلاماته فالله سبحانه لا يجمع على عبده أمنين ولا خوفين من أمنه في الدنيا أخافه يوم القيامة ومن خافه في الدنيا أمّنه يوم القيامة، وهكذا ما يزال المؤمن يظن أنه إذا ما لاقى الله سيحاسبه الله ولا أحد يعلم ما سيكون إلا الله، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من حوسب

يوم القيامة عُذِّب فقلت: أليس قد قال اللّه تعالى "فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا" ٨ الإنشقاق فقال: ليس ذلك الحساب إنما ذلك العرض من نوقِش الحساب يوم القيامة عُذِّب[93] إذن فهو يظن أن أعماله سترديه وسيحاسب عليها وهذا الظن هو الذي كان سبباً في نجاته فالظن إذن شديد المناسبة لواقع المؤمن ولحياته لذلك عندما أتاه كتابه بيمينه طار فرحاً وصاح: لطالما ظننت أن أعمالي سترديني وأنني سأحاسب عليها ولكنني نجوت برحمة ربي فأي معنى لقولهم في تفسير هذه الآية إني علمت أني ملاق حسابيه؟؟ والوجه الآخر لتفسير هذه الآية يبين أكثر بُعد هذا الذي ذهبوا إليه عن الصواب وهم قد سبقوا إلى بيان هذا الوجه فسبحان اللّه.

يقول الأستاذ سيد قطب في الظلال وأظنه ينقل الروايات عن أبن كثير رحمهما اللّه تعالى ونفعنا بعلمهما: "وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين كأنه حاضر تراه العيون والمشهد المعروض هو مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة تملأ الفرحة جوانبه وتغلب على لسانه فيهتف "هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ" ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج بل كان يتوقع أن يُناقش الحساب "ومن نوقش الحساب عُذّب-ويورد الحديث-" وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر

---

٩٣) مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري. تحقيق الألباني ٥٨٠

بن مطر الواسطي حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا عاصم عن الأحول عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من اللّه فيقرأ سيئاته فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات قال فعند ذلك يقول"هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ" [أقول: يقول المصطفى عليه السلام: ليَتَمنّينّ أقوام لو أكثروا من السيئات قالوا بم يا رسول اللّه قال الذين بدل اللّه سيئاتهم حسنات[٩٤]] ويتابع الشيخ وروي عن عبد اللّه بن حنظلة (غسيل الملائكة) قال: إن اللّه يوقف عبده يوم القيامة فيبدي –أي يظهر- سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له: أنت عملت هذا فيقول: نعم أي رب! فيقول له إني لم أفضحك به وإني قد غفرت لك فيقول عندئذ "هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ ١٩ إنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠الحاقة وفي الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: يُدني اللّه العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال اللّه تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة اللّه على الظالمين "[٩٥] وبعد

---

٩٤) أخرجه الحاكم ٢٥٢/٤ سلسلة الأحاديث الصحيحة. الألباني٢٠٩/٥

٩٥) في ظلال القران. سيد قطب ط١٠ ٣٦٨١/٦ والحديث الأخير عن صفوان بن محرز مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري. ٥١٣

ذكر خبر أبي عثمان عن المؤمن إذ يقرأ سيئاته فيتغير لونه ثم خبر عبد الله بن حنظلة وحديث ابن عمر في النجوى يقول بعدها "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠الحاقة "أي قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال تعالى "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" ٤٦ البقرة"[٩٦]

انظر وتأمل كيف أُقحم موضوع البعث هنا في غير موضعه! وكم شذ عن السياق!

وذهب القرطبي أيضاً إلى تفسير مشابه فقال: "أي ظننت أن يؤاخذني الله بسيئاتي عذبني "فيعذبني" [تصويب في الهامش] فقد تفضل علي بعفوه ولم يؤاخذني بها"[٩٧]

يقول الألوسي: "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ" ٢٠ الحاقة "أي علمت ذلك كما قال الأكثرون بناء على أن الظاهر من حال المؤمن تيقن أمور الآخرة والحساب فالمنقول عنه ينبغي أن يكون كذلك لكن الأمور النظرية لكون تفاصيلها لا تخلو عن تردد ما في بعضها مما لا يفوت اليقين فيه كسهولة الحساب وشدته مثلا عبّر عن العلم بالظن مجازاً للإشعار بذلك وقيل: لما

---

٩٦) تفسير القران العظيم ابن كثير دار الجيل ٤/٤١٥-٤١٦

٩٧) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١٨/٢٧٠

كان الاعتقاد بأمور الآخرة مطلقاً مما لا ينفك عن الهواجس والخطرات النفسية كسائر العلوم النظرية نزل منزلة الظن فعبر عنه به لذلك وفيه إشارة إلى أن ذلك غير قادح في الإيمان وجوّز أن يكون الظن على حقيقته على أن يكون المراد من حسابه ما حصل له من الحساب اليسير فإن ذلك مما لا يقين له به وإنما ظنَّه ورجحه لمزيد وثوقه برحمة اللّه تعالى عز وجل (وهذا عين ما قلته في أحد وجوه تفسير آية البقرة) ولعل ذلك عند الموت فقد دلت الأخبار على أن اللائق بحال المؤمن حينئذ غلبة الرجاء وحسن الظن وأما قبله فاستواء الرجاء والخوف... فكأنه قيل: إني على ما يحسن من الأحوال أو إني فرح مسرور لأني ظننت بربي سبحانه أنه يحاسبني حساباً يسيرًا وقد حاسبني كذلك فاللّه تعالى عند ظن عبده به وهذا أولى مما قيل يجوز أن يكون المراد أني ظننت أني ملاق حسابيه على الشدة والمناقشة لما سلف مني من الهفوات والآن أزال اللّه تعالى عني ذلك وفرّج همي وقيل: يطلق الظن على العلم حقيقة وهو ظاهر كلام الرضي في أفعال القلوب وفيه نظر"[98]

أما النسفي فيقول: "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ" ٢٠الحاقة "علمت وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات

---

٩٨) روح المعاني في تفسير القران العظيم. الألوسي ١٦/ ٨١-٨٢

والأحكام ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلما يخلو عـن الوسـواس والخـواطر وهـي تفضي إلى الظنون فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه وفسر مـلاق حسابيه بمعاين حسابي"[٩٩]

٩٩) تفسير القران. الإمام النسفي ٥/٢٥١

## باب: ما أراه في الآية

بعد هذا العرض لأقوال المفسرين رحمهم الله وأحسن إليهم –وهي التي وقعت بين يدي وأنا أعد البحث- أقول وبالله التوفيق: بعد أن أؤكد على المعنى الذي ذكرته وهو أن في هذه الآية تحليل نفسي قوي بليغ لحال المؤمن وهو يقرأ في كتابه الذنب تلو الذنب كلما قرأ ذنبًا ظن معه أنه الهلاك حتى إذا فرغ من ذلك وهو يظن أن ذنوبه أردته وأنه سيلاقي حسابه فيفرح بمنّ الله وستر الله ومغفرته فيصف لأهل المحشر حاله وهو يقرأ سيئاته إني ظننت أنها مهلكتي ولكني بحمد الله نجوت...ولله در من ينجو يومها جعلنا الله منهم ومن له حق علينا والمسلمين أجمعين برحمته.

وهذا ما يناسب الجو العام للآيات ولكن ما أراه ألصق بها والذي ينقض تفسير الظن باليقين وينسفه ويبين مدى بعده عن واقع الآيات؛ هو أن الآيات وهي كلها تتحدث عن أحوال الناس يوم القيامة؛ وخير ما يفسر القران: القران يقول الحق سبحانه: "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ٢٠ ... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ"! ٢٦الحاقة

ومن كلام الثاني نجد أنه يقول: ولم أدر ما حسابيه وهي مفتاح فهم الآيات إذ ليس الكلام هنا عن اعتقاد الدنيا بل عما وجده في كتابه الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها حتى كل ما نسي من الذنوب!

فالأول بعد أن درى ما في كتابه وأنه لا حساب عليه طار فرحًا والثاني عندما درى ما في كتابه وأنه سيحاسب أدرك أنه الهلاك!

كذلك تخبرنا الآيات عن أمر خطير جدًا: فإذا كان من يؤتى كتابه بيمينه في ذلك الموقف العظيم قد ظن أنه سيلقى حسابه، أقول: ظن أنه سيلقى حسابه أي غلب على ظنه إمكانية أن يردى ويحاسب وأبقى احتمالا بسيطاً للنجاة في ذلك الموقف الرهيب، راح يفكر في أعماله وفي عظمة الله فوجد أعماله لا شيء، تفكّر في نعم الله سبحانه عليه وفي شكره عليها فوجد نفسه في وضع لا يحسد عليه، فغلب على ظنه أنه سيردى؛ سيلقى حسابه وانظر إلى التعبير "**ملاق**" ثم "**حسابيه**" فملاق توحي بأنه وصل إلى قناعة بأن لا مناص من ملاقاة الحساب ونسبة الحساب إلى نفسه بضمير الملكية "حسابي" يعني أنه تفكر في أعماله فأدرك أن رصيده في السالب!!

ولم يقل الحساب للدلالة على البعث والحساب للناس كافة لأنه حساب يتعلق به هو وبأعماله التي تفكر فيها فظنها سترديه!!

تفكر في عظم الموقف.. فما بقي إلا وقت يسير ليقف بين يدي جبار السماوات والأرض ليسأله عن الصغيرة قبل الكبيرة بل يتفكر في الصغائر فتعظم في نظره إلى جانب عظمة مَنْ عصاه هل من كان عاقلا في مثل هذا الموقف سيفكر في النجاة ويمني نفسه الأماني أم تعظم ذنوبه في عينيه ليراها مهلكته؟؟

فإذا كان هذا هو حال المؤمن يوم القيامة: يظن نفسه هالكاً فكيف بالمجرم؟؟

هذه هي الرسالة العظيمة من وراء الظن الوارد هنا إنه تخويف رهيب بليغ لا مثيل لبلاغته لعباد اللّه وهم في الدنيا يناسب أجواء السورة "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٥ وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ" ١٨... وهكذا في ظل هذه الأجواء الرهيبة والمشهد المخيف كان من الطبيعي أن يدب الهلع في نفوس البشر جميعاً فينبؤنا اللّه سبحانه أنه في هذه الأجواء حتى المؤمن يظن عندها أنه هالك فيا له من موقف!!

ألـم يقـل فيـه "فَكَيْـفَ تَتَّقُـونَ إِن كَفَـرْتُمْ يَوْمًـا يَجْعَـلُ الْوِلْـدَانَ شِـيبًا" ١٧المزمل فأي معنـى هنـا لإقحـام اليقـين بالحسـاب وغيـره فـي خضـم هـذا الموقف؟ يقين بماذا؟ هل هو يقين بأنه مـلاق حسـابه؟ كيـف يناسـب أجـواء السورة وما حوله من الآيات وكلها تتحدث عن أحوال البشر في وقـت النشـور والعرض على الملك العظيم سبحانه وكيف يسـاقون إلـى الجـزاء سـواء أكـان الحديث عن الجنة أم عن النار والعياذ بالله منها ولا مجال هنا لإقحام أنه كان في الدنيا موقناً بالبعث ويعتقد بالحساب لأنـه إدخـال فـي غيـر محلـه يهـبط بالنص ويحوله من هـذا الجـلال الرهيـب والوصـف المخيـف والتحـذير البليـغ القوي للناس من ذلك اليوم؛ وقد أخذ اليقين بالبعث حقه في غير مكان مـن كتاب الله ببلاغة وتَناسَـب مع أجواء آيات أشبعته بياناً وأدلـة ووصـفاً وترغيبـاً وترهيباً أما هنا فالخطب جلل والتحذير شديد!!

نخلص إلى ثلاثة أوجه لتفسير الظن هنا وهي:

الأول: ظن في الدنيا بأن عمله لا يصلح وسيلة للنجاة. وهـو لـيس الأدق هنا.

الثاني: ظن خلال الحشر قبل الحساب وقبل الرجـوع إلـى الـرب لملاقاتـه وقد عايش المؤمن أهوال البعث والنشور وتفكر خـلال تلـك الفتـرة العصـيبة التي تطول حتى يمل الناس ويفضل البعض أن يحاسب حتى ولـو دخـل النـار

من هول ما يلاقي خلالها أو خلال هجوم النار على أهل المحشر وهي تتفلت من سبعين ألف زمام يمسك كل زمام سبعون ألف ملك فيظنون الهلاك.

الثالث: ظن خلال فترة عرض الأعمال يرى الذنب تلو الذنب فيظن أنه سيحاسب عليها وأنها سترديه فيغفرها الله له فيتنفس الصعداء ويصيح فرحاً.

فلماذا الإصرار على جعل الظن يقيناً ما دام هنالك أوجه أقوى وأدق وأبلغ له وهو على بابه؟

# فصل: "وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ"

"وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢٢ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ" ٢٤ فصلت. هذا ظن أردى صاحبه وألقى به على وجهه في النار، ظن من لا يستتر من الله وهو يعصيه – غفر الله لنا ما كان منا من إسراف في أمرنا – فإذا برب العزة سبحانه يُخرس لسانه ويدع جوارحه تشهد عليه بما اقترف من آثام.

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال: من مخاطبة العبد ربه فيقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى! قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهودا قال: فيختم على فيه

فيقال لأركانه أنطقي قال: فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام قال فيقول: بُعدًا لكنّ وسحقًا فعنكن كنت أناضل[100]

نعود إلى الآية ٢٢ من فصلت فقد اشتملت على تخويف أشد من مجرد المعصية ونسيان أمر إطلاع الله عليه حين يفعلها لتتعدى ذلك إلى أمر أخطر وهو الظن بأن الله لا يعلم هذا الفعل وهذا ما يدخل في أمر الاعتقاد أي الكفر فكان العقاب الشديد هنا وهو النار وكما سبق وقلنا أن هذا الظن هو الذي أرداهم ففي أمور الاعتقاد لا يصلح إلا اليقين.

وهنا قد يدخل في ذلك الغافلون الذين لا يضعون نصب أعينهم حين ارتكاب الفواحش أن الله مطلع عليهم فغفلتهم الدائمة جعلت عدم مبالاتهم بوجود الله وعدم الاستتار بينما لا يحب أحدهم أن يطلع طفل صغير على أفعالهم تلك، هذه الاستهانة التي جعلوا الله فيها أهون الناظرين عليهم جعلت الوصف المنطبق عليهم هو الظن بأن الله غير مطلع لشدة غفلتهم عنه ويؤيد ذلك ما كان من شهادة جوارحهم عليهم أي على المعاصي التي ما حسبوا لاطلاع الحق سبحانه عليهم إذ يزرونها؛ ولكن من جهة أُخرى وصف الحق في أول الآية لهم بأنهم أعداء الله وترتيب أشد العذاب لهم من النار ونسيانهم فيها يؤيد أن الأمر يتجاوز إلى ناحية الاعتقاد.

---

١٠٠) مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري. تحقيق الألباني ٥١٣

# فصل: "إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ"

"الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" ٢٣٠ البقرة.

لم يصف الحق سبحانه عقداً من العقود بما وصف به عقد الزواج فقد وصفه بأنه "ميثاق غليظ" ويا له من تعبير "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا" ٢١ النساء وهو عين الوصف الذي وصف الله به الميثاق الذي أخذه من النبيين "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ٧ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ

عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا" ٨ الأحزاب والآيات تتحدث عن نفسها، وهذا الميثاق الغليظ هو الذي أخذ اللّه مثيله من بني إسرائيل فلما نقضوه وكفروا بآيات اللّه طبع اللّه على قلوبهم "فلا يؤمنون إلا قليلا" ١٥٥ النساء.

والزواج آية من آيات اللّه "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" ٢١ الروم وليس الزواج آية واحدة بل آيات ففي الخلق آية وفي السكنى آية وفي المودة آية وفي الرحمة آية وذلك كله لمن تفكر وتدبر وليس المجال هنا للإطناب في ذلك.

عن أبي أمامة رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: ما استفاد المؤمن بعد تقوى اللّه عز وجل خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرّته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله" رواه ابن ماجه؛ وأباح النظر إلى المخطوبة – وهو الذي منع المرأة من أن ترتدي خلخالا في رجلها يُنتبه إليها إذا ما مشت وهي التي ما كان يظهر منها إلا القليل من عنقها أمرها بإدناء الخمار عليه وعد ذلك تبرج الجاهلية أقول وهو يحرص عليها هذا الحرص الشديد أباح للخاطب أن ينظر إليها حرصاً على استمرارية الزواج ودوامه- عن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنظرت إليها؟ قال لا، قال أنظر

إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما" رواه النسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه وقال فيه الشيخ سيد سابق رحمه الله: "أي أجدر أن يدوم الوفاق بينكما"[١٠١] وجعل الدين أساس هذه العلاقة التي تقوم على ميثاق غليظ ففي البخاري أن النبي صلى الله عيه وسلم زوّج رجلا امرأة فقال: قد ملكتكها بما معك من القران" ونقل حد الزاني الثيب من الجلد إلى الرجم حتى الموت حتى وإن كان مطلّقاً وقد قال عليه السلام في حجة الوداع "... اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله... الحديث في سنن أبي داود كتاب المناسك.

كل ذلك وغيره يجعل الزواج رباطاً مقدساً، كيف لا وقد أخذ الزوج زوجه بأمانة الله واستحل فرجها بكلمات الله والزواج ميثاق غليظ من هنا كانت حدود الله التي في الزواج كثيرة وينبغي إقامتها ببذل غاية الجهد كيلا يدخل المسلم في عداد الظالمين ولا يقيم هذه الحدود مثل العالمين فهم يعلمون ما ينتظرهم إن قصّروا!

نرجع إلى الآية محور الكلام فقد فسر الظن مفسرون على أنه اليقين وأظنهم مخطئين مرة أخرى والعلم عند الله، وذلك أن في استعمال الحق سبحانه للظن في هذا المقام الدقيق آية أخرى للدلالة على عظم هذا العقد

---

١٠١) فقه السنة. سيد سابق ٢/ ٣٢

وخطورة الزواج وأهميتـه وذلـك أن لا أحـد يسـتطيع أن يقـيم حـدود الله فـي الزواج على الوجه المطلوب مهما ادّعى ذلك وهـذا متصـل بطبيعـة الإنسـان كما أنه لا يستطيع أداء صلاة على وجهها لذلك اكتفى الحق سـبحانه بوجـود غلبة الظن هنا.

# فصل: "وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ"

"وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ" ٧٩ البقرة

نعيد ذكر كلام النسفي رحمه الله قال: "لا يُحسنون الكَتْبَ فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها إلا ما هم عليه من أمانيهم وأن الله يعفوا عنهم ويرحمهم ولا تمسهم النار إلا أياما معدودة أو إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد وما هم (إن هم) لا يدرون ما فيه فيجحدون نبوتك بالظن ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم ثم العوام الذين قلدوهم"[١٠٢] أي أن العلماء يحرفون والمقلدين يظنون أي بنوا اجتهادهم على الظن في عقائدهم أما العلماء فأنكروا تكذيبًا مع علمهم أنه الحق ولم يعذرهم الله سبحانه بالظن وبأنهم جهَلَة أميون لا يحسنون القراءة ليعرفوا الحق من مصدره واكتفوا بآراء علمائهم الذين أضلوهم، وقد قرأت للإمام ابن تيمية في فتاويه تفسيرًا لآية الفاتحة "**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**" ٧ قوله الذي أجمله بأنه بالإضافة إلى كون المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى يدخل أيضا

---

١٠٢) تفسير النسفي ج١ ص٦٥

في مفهوم المغضوب عليهم العلماء المسلمون الذين لا يعملون بعلمهم أقول وعلماء السلاطين وفي الضالين يدخل المسلمون الذين يعملون بلا علم. وللأسف فإننا نجد أن معظم المسلمين ليسو سوا مقلدين في جل أمور دينهم معدومي الثقافة الإسلامية، ثقافتهم خليط من أفكار إسلامية وغير إسلامية تجد أحدهم مسلمًا علمانياً اشتراكياً وطنياً ديمقراطياً قومياً... الخ من هذه الأخاليط التي أوصلت المسلمين إلى هذه الهاوية ناسين أن لا إله إلا اللّه تعني الكفر أولا بما غير الإسلام ثم الإيمان بأن الإله واحد وهو اللّه "**فمن يكفر بالطاغوت**" أولا "**ويؤمن باللّه**" ثانياً فقد استمسك بالعروة الوثقى وكما قال عمر رضوان ربي عليه "ينقض عرى الإسلام عروة عروة قوم دخلوا في الإسلام ولم يعلموا أمر الجاهلية" فهل يا ترى تُقبل من المسلمين هذه الأمية؟ وهذا الإتباع من غير تثبت؟ لتتبعن سنن من قبلكم!! الأمر يحتاج من كل مسلم إلى وقفة طويلة لينجو من غضب اللّه.

# فصل: "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا"

ننتقل إلى ظلال آية كريمة من سورة يوسف الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم نلج منها إلى موضوع الصبر والدعوة وإلى عالم الأنبياء والرسل وابتلاءاتهم "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ" ٤٢ يوسف، ووقفتي مع الظن هنا قصيرة ففيها تعبير عن الأدب الجم مع الله فيوسف عليه السلام الذي اجتباه ربه وعلمه من تأويل الأحاديث وأتم نعمته عليه، وأنّى لمن كان عنده علم من الله أن يخطئ نراه يتأدب فلا يتحدث بأمر الغيب إلا بالظن ولا يجترئ على الله ليقول أنت الذي أعلم أنك ناج.. بل أظنك ناج وهذا هو خلق الأنبياء والرسل عليهم سلام الله جميعاً.

# فصل: "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ"

وفي السورة نفسها آية كان تفسيرها شائكاً اختلف فيه المفسرون:

"حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" ١١٠ يوسف. يقول سيد قطب رحمه الله: "إنها صورة رهيبة ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود، وتمر الأيام وهو يدْعون فلا يستجيب لهم إلا قليل وتكر الأعوام والباطل في قوته وكثرة أهله والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.. إنها ساعات حرجة والباطل يتفشى ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر، والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كُذِبوا؟ تُرى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟ وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيق بشر.. وما قرأت هذه الآية والآية الأُخرى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ" ٢١٤ البقرة، ما قرأت تلك الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصوّر الهول الذي يبلغ بالرسول هذا

المبلغ ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات وما يحس به من ألم لا يُطاق.. في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل ولا تبقى ذرة من الطاقة المدّخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسماً فاصلا"[١٠٣]

ولدى مراجعته لمسوّدة البحث هذا علّق أخي الأستاذ زياد سلامة غفر الله له على تفسير سيد قطب هذا بالملاحظة التالية: "كلام سيد قطب يشعر أن ظن هنا بمعنى شك وكاد أن يفقد الأمل! استيأس / على وزن استفعل وتفيد الصيرورة ولكنها صيرورة على المجاز كقول الشاعر إن البُغاث بأرضنا يستنسرُ والبغاث طائر صغير ولكنه في حمى الشاعر صار كالنسر وفي الآية صار حال الأنبياء كحال اليائس أي قريباً منه دون أن يفقد الأمل بنصر الله "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ": لما قارب هؤلاء الأنبياء من حال اليائسين مع بقاء الأمل بنصر الله في صدورهم صار حالهم في أمر توصيل الرسالة كأمر الشاك في قدرته على التوصيل أي أنهم بذلوا جهداً واسعاً في الدعوة قابله استجابة باهتة مما يولد في النفس إحساسًا بإخفاق المهمة أو عدم قدرة على التوصيل أي أنهم شعروا وكأنهم أخطأوا في الطريقة فقد جاء في لسان

---

١٠٣) في ظلال القران. سيد قطب ٤/٢٠٣٥-٢٠٣٦

العرب أن من معاني الكذب: الخطأ، فالكذب والتكذيب أمر ملموس لا يقابله الشك فلا يُقال أشك بأنني كُذّبْتُ إ.هـ."

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: "قوله تعالى "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ" المعنى متعلق بالآية الأولى فتدبره: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فدعوا قومهم فكذّبوهم وصبروا وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا استيأس الرسل وفيه قولان: أحدهما استيأسوا من تصديق قومهم، قاله ابن عباس.

والثاني: من أن نعذّبَ قومهم قاله مجاهد. ("وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ") قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو وابن عامر: "كُذّبوا".. والمعنى وتيقن الرسل أن قومهم قد كذّبوهم..."كُذِبوا" خفيفة والمعنى: ظن قومهم أن الرسل قد كُذِبوا فيما وُعِدوا به من النصر لأن الرسل لا يظنون ذلك، وقرأ أبو رزين ومجاهد والضحاك "كَذَبوا" بفتح الكاف والذال خفيفة والمعنى: ظن قومهم أيضا أنهم قد كَذَبوا، قاله الزجاج."[١٠٤]

"وروى ابن جرير بسنده عن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال: أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف؟ فإني إذا

١٠٤) زاد المسير في علم التفسير. ابن الجوزي ٤/٢٢١

أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ" قال: نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كُذِبوا فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكّأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلا.[١٠٥] "ونقل تفسير الآية على قراءة التخفيف "كُذِبوا" عن ابن عباس وابن مسعود، قال ابن عباس: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذَبوهم، جاءهم النصر على ذلك. وقال ابن مسعود "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ" من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذِبوا بالتخفيف وهذا هو المشهور عن الجمهور... ولا يجوز أن تكون الضمائر في هذه القراءة على الرّسل؛ لأنهم معصومون فلا يمكن أن يظن أحد منهم أنه قد كذبه من جاءه بالوحي عن الله (البحر المحيط ٥/٣٥٤)...)"[١٠٦] [انظر أيضا جامع البيان في تفسير القران. الطبري١٣/٥٥]

جاء في اللباب: "ليس في الكلام شيء يكون، "حتى" غاية له؛ فلذلك اختلفوا في تقدير شيء يصح مُغَيّاً ب"حتى" فقدره الزمخشري: وما أرسلنا

---

١٠٥) الأساس في التفسير. سعيد حوى٥/٤ ٢٧١.

١٠٦) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. د. وهبة الزحيلي ١٣/ ٩١

من قبلك رجالا فتراخى نصرهم حتى، وقدره الطبري: وما أرسلنا من قبلك يا محمد رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب حتى إذا.

وقدره ابن الجوزي: وما أرسلنا من قبلك رجالا فدعوا قومهم فكذّبوهم فطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا [يقول صاحب اللباب]: وأحسنها المقدم؛ وذكر ابن عطية شيئاً من معنى "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ" فقال: ويتضمن قوله "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ" إلى من قبلهم أن الرسل الذين بعثهم الله –تعالى- من أهل القرى دعوهم فلم يؤمنوا حتى نزلت بهم المثلات فصبروا في حيز من يعتبر بعاقبته؛ فلهذا المُضمَّن حسن أن تدخل "**حَتَّى**" في قوله"**حَتَّى إِذَا**" قال أبو حيان: ولم يتلخص لنا من كلامه شيء يكون ما بعده غاية له لأنه علّق الغاية بما ادّعى أنه فهم ذلك من قوله "**أَفَلَمْ يَسِيرُواْ**" قال شهاب الدين [في الدر المصون ٤/٢١٨] قوله: دعوهم فلم يؤمنوا: هو المُغَيّاً "[١٠٧]

قال الفخر الرازي: "ومعنى التخفيف من وجهين: أحدهما أن الظن واقع بالقوم أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أن الرسل كُذِبوا فيما وُعدوا من النصر والظفر؛ فإن قيل: لم يجر فيما سبق ذكر المرسل إليهم فكيف يحسن عود الضمير إليهم؟ قلنا: ذكر الرسل يدل على

---

١٠٧) اللباب في علوم الكتاب عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ١١/٢٢٦-٢٢٧

المرسل إليهم وإن شئت قلت أن ذكرهم جرى في قوله "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ" ١٠٩ يوسف؛ فيكون الضمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كُذِبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا: وإنما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية إلا أنه بعيد لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل؟."[١٠٨]

وقال الزمخشري "في قراءة التخفيف أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون أو وظنوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم كقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمددت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب...[ويقول عن الرواية السابقة عن ابن عباس]: فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه

١٠٨) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي المجلد ٦ /٥٢٢

الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله؟ الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح؟[١٠٩] قال شهاب الدين في الدر المصون: ولا يجوز أن يقال خطر ببالهم شبه الوسوسة فإن الوسوسة من الشيطان وهم معصومون منه"[١١٠]

ولننقل رأيا للدكتور صلاح الخالدي غفر الله له في تفسير هذه الآية:

"روى الإمام البخاري عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" ١١٠ يوسف. (كُذِّبوا) أو (كُذِبوا)؟

قالت: بل كذّبهم قومهم فقلت: والله لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها (قد كُذِبوا) فقالت: معاذ الله!! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذّبوهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك.. يتساءل

---

١٠٩) الكشاف. الزمخشري ج٣ / ٣٣٠

١١٠) اللباب في علوم الكتاب عمر بن علي الدمشقي الحنبلي ١١/٢٢٦-٢٢٧

الدكتور الخالدي: فهل "كذبوا" بالتخفيف أو التشديد؟ ويجيب: عائشة تنكر أنها مخففة ومعها دليلها أن الرسل لا يظنون أن اللّه قد أخلفهم ما وعدهم ومن ثم أكذبهم وأظهرهم كاذبين أمام قومهم، وردّت هذه القراءة لأنها جعلت الفاعل في فعل "ظنوا" عائداً على الرسل وهو على هذا القول مستحيل؛ القراءة المعتمدة عندها هي التشديد ولا تبخل عائشة على عروة ولا علينا بتفسير الآية على هذا القول: استيأس الرسل ممن كذّبوهم وعلموا أنهم لن يؤمنوا بهم واشتد عليهم البلاء فظن هؤلاء الرسل أن أتباعهم المؤمنين بهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به عندها جاءهم نصر اللّه.

لكن لنا استدراك (والكلام للخالدي) على كلام عائشة رضي اللّه عنها لا نقبل رأيها في رد القراءة بالتخفيف بل إننا نعتمدها لأنها كلام اللّه.

في كتاب (حجة القراءات) لابن زنجلة: قرأ أهل الكوفة (وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي) "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ" بالتخفيف من قولك: كَذَبْتُكَ الحديث: أي لم أصْدُقك وفي التنزيل (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ) ٩٠ التوبة أي لم يصدقوا مع اللّه ورسوله وفيها وجهان من التفسير أحدهما: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كُذِبوا، بمعنى أُخْلِفوا ما وُعِدوه من النصر، جاء الرسل نصرنا فجعل الضمير في "ظنوا" للقوم وجعل الظن موافقا لفظه ومعناه.

الوجه الآخر: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كَذَبَتْهم فيما أخبروهم به من أنهم إن لم يؤمنوا بهم نزل بهم العذاب، وقرأ أهل الحجاز والبصرة والشام (وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر) "كُذّبوا" بالتشديد، وفي التنزيل "وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ" ٣٤ الأنعام وقوله "فَكَذَّبُوا رُسُلِي" ٤٥ سبأ وجعلوا الضمير في ظنوا للرسل والظن بمعنى اليقين والأولى أن يجعل الضمير في المرسل فيكون الفعلان للرسل ويصير كلاماً واحداً ومعنى الآية:حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أي أيقنوا أن قد كذّبوهم جاءهم نصرنا أي جاء الرسل نصرنا.إ.هـ."[١١١]

١١١ تصويبات في فهم بعض الآيات د.صلاح الخالدي. دار القلم ٦١-٦٢

# باب: رأي الإمام ابن تيمية رحمه اللّه في المسألة وهو أدق تفسير لها واللّه أعلم

"قال العلامة ابن تيمية قدّس اللّه روحه: فصل: في قوله تعالى "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" ١١٠ يوسف: قراءتان في هذه الآية بالتخفيف والتثقيل، وكانت عائشة رضي اللّه عنها تقرأ بالتثقيل وتنكر التخفيف كما في الصحيح عن الزهري قال: أخبرني عروة عن عائشة قالت له –وهو يسألها عن قوله ("وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ") مخففة قالت: معاذ اللّه!لم تكن الرسل تظن ذلك بربها – قلت فما هذا النصر؟ (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ) بمن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم جاءهم نصر اللّه عند ذلك لعمري لقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن.

وفي الصحيح أيضاً عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكة يقول قال ابن عباس ("حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ) خفيفة ذهب بها هنالك وتلا "حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ ألا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ "٢١٤ البقرة؟!

فلقيت عروة فذكرت ذلك له فقال: قالت عائشة: معاذ اللّه واللّه ما وعد اللّه رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يكون ولكن لم يزل البلاء

بالرسل حتى ظنوا خافوا أن يكون من معهم يكذّبهم فكانت تقرأها ("وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبواْ") مثقلة. فعائشة جعلت استيأس الرسل من الكفار للمكذبين وظنهم التكذيب من المؤمنين بهم، ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها وقد تأولها ابن عباس وظاهر الكلام معه والآية التي تليها إنما فيها استبطاء النصر وهو قولهم "مَتَى نَصْرُ اللّهِ" فإن هذه كلمة تبطئ لطلب التعجيل.

وقوله ("وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ") قد يكون مثل قوله "إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ" ٥٢ الحج، والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح كما في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم، ويسمون الاعتقاد المرجوح وهما، بل قد قال النبي صلى اللّه عليه وسلم "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"[١١٢] وقد قال تعالى "وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" ٢٨النجم، فالاعتقاد المرجوح هو ظن وهو وهم، وهذا الباب (يعني "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ") قد يكون من حديث النفس المعفو عنه، كما قال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم "إن اللّه تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، مالم تكلم أو تعمل"[١١٣] وقد يكون من باب الوسوسة

---

١١٢) البخاري/ كتاب الوصايا، مسلم/ كتاب البر، أحمد/٣/٣٤٥

١١٣) البخاري/ كتاب العتق- باب الخطأ والنسيان، سنن النسائي، كتاب الطلاق، ابن حنبل٣/٣٥٥

التي هي صريح الإيمان، وفي حديث آخر "إن أحدنا ليجد ما يتعاظم يا رسول الله، إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحرق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال أوقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان" وفي حديث آخر "إن أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به، قال: الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة" [١١٤]، ويتابع الشيخ: ومنه ما يكون يقترن صريح الإيمان ونظير هذا: ما في الصحيح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن بما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال له ربه:"أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" وقد ترك البخاري ذكر قوله "بالشك" لما خاف فيها من توهم بعض الناس. ومعلوم أن إبراهيم كان مؤمناً كما أخبر الله عنه بقوله "أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى" ولكن طلب طمأنينة قلبه كما قال "وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" فالتفاوت بين الإيمان والاطمئنان سماه النبي صلى الله عليه وسلم شكا لذلك بإحياء الموتى، كذلك الوعد بالنصر في الدنيا: يكون الشخص مؤمناً بذلك؛ ولكن قد يضطرب قلبه فلا يطمئن فيكون فوات الاطمئنان ظنًا أنه قد كذب

---

١١٤) أخرجه مسلم ج١-إيمان/٢٠٩، أبو داود ج٤/٥١١١، أحمد ج٢ص٤٤١ عن أبي هريرة وانظر الإيمان. ابن تيمية ٢٧٥ دار الحديث

فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد وهذه الأمور لا تقدح في الإيمان الواجب وإن كان فيها ما هو ذنب فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك كما في أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث....وأيضا فقوله "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ" قد يكونون ظنوا في الموعود به ما ليس هم فيه بطريق الاجتهاد منهم فتبين الأمر بخلافه فهذا جائز عليهم كما سنبينه فإذا ظن بالموعود به ما ليس هو فيه ثم تبين الأمر بخلافه ظن أن ذلك كذب وكان كذباً من جهة ظن في الخبر ما لا يجب أن يكون فيه. فأما الشك فيما يعلم أنه أخبر به فهذا لا يكون...

وما ينبغي أن يعلم أنه سبحانه ذكر هنا شيئين أحدهما: "اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ".

والثاني: "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ"، وقد ذكرنا لفظ "الظن" فأما لفظ استيأسوا فإنه قال سبحانه "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ" ولم يقل يئس الرسل ولا ذكر ما استيأسوا منه وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة "فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا" الآية ٨٠ يوسف، وقد يقال الاستيئاس ليس هو الإياس لوجوه:...

الوجه الثاني: قال لهم يعقوب "يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" ٨٧ فنهاهم عن اليأس ولم ينههم عن الاستيئاس وهو الذي كان منهم،...

الوجه الثالث: وهو أنه أخبر أنه "لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله وأن يقعوا في الاستيئاس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله وهذه السورة تضمنت ذكر المستيئسين وأن الفرج [ولعلها الفرج] جاءهم بعد ذلك لئلا ييأس المؤمن ولهذا فيها "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ" فذكر استيئاس الاخوة من أخي يوسف وذكر استيئاس الرسل يصلح أن يدخل فيه ما ذكره ابن عباس وما ذكرته عائشة جميعا.

الوجه الرابع: أن الاستيئاس استفعال من اليأس والاستفعال يقع على وجوه: يكون لطلب الفعل من الغير فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية يقال: استخرجت المال من غيري وكذلك استفهمت ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيئاس فإن أحداً لا يطلب اليأس ويستدعيه ولأن استيأس فعل لازم متعد.

ويكون للاستفعال لصيرورة المستفعل على صفة غيره، وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم استحجر الطين أي صار كالحجر واستنوق الفحل أي

صار كالناقة وأما النظر فيما استيأسوا منه فإن الله تعالى ذكر ذلك في قصة اخوة يوسف قال "فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ" وأما الرسل فلم يذكر ما استيأسوا منه بل أطلق وصفهم بالاستيئاس فليس لأحد أن يقيده بأنهم استيأسوا مما وعدوا به وأخبروا بكونه، ولا ذكر ابن عباس ذلك.

وثبت أن قوله "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ" لا يدل على ظاهره فضلا عن باطنه أنه حصل في قلوبهم مثل تساوي الطرفين فيما أخبروا به فإن لفظ الظن في اللغة لا يقتضي ذلك بل يسمى ظناً ما هو من أكذب الحديث عن الظان، لكونه أمراً مرجوحاً في نفسه واسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه وعدم تصديقه وسكينته وعدم سكينته ليست هذه الأمور بمجرد العلم فقط؟ كما يحسب ذلك بعض الناس كما نبهنا عليه في غير هذا الموضع (والكلام للعلامة ابن تيمية) إذ المقصود هنا الكلام على قوله "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ" فإذا كان الخبر عن استيئاسهم مطلقًا فمن المعلوم أن الله إذا وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق –كما هو غالب إخباراته- لم يقيد زمانه ولا مكانه ولا سنته ولا صفته فكثيراً ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحق بل اعتقدوها بأسباب أخرى كما اعتقد طائفة من الصحابة إخبار النبي صلى الله عليه وسلم لهم أنهم يدخلوا المسجد الحرام ويطوفون به أن ذلك

يكون عام الحديبية...فاستيأس عمر وغيره من دخوله ذلك هو استيئاس مما ظنوه موعوداً به ولم يكن موعوداً به.

ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئاً فيكون الأمر بخلاف ما (ظنوه) فقد يظنون فيما وعدوه تعييناً وصفات ولا يكون كما ظنوه فييأسون مما ظنوه في الوعد لا من الوعد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "رأيت أن أبا جهل قد أسلم فلما أسلم خالد ظنوه هو فلما أسلم عكرمة علم أنه هو"...

وهذا كقوله: "إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ" ٥١ غافر، وقوله "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ" ١٧١ الصافات، الآيتين فقد يظن الإنسان في نفسه أو غيره كحال الإيمان المستحق للنصر وأن جند الله هم الغالبون ويكون الأمر خلاف ذلك.

وقد يقع من النصر الموعود به ما لا يظن أنه من الموعود به، فالظن المخطئ فهم ذلك كثير جداً أكثر من باب الأمر والنهي مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك... وهذا عام لجميع الآدميين لكن الأنبياء صلوات الله عليهم

وسلامه لا يُقَرّون بل يتبين لهم وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا إ.هـ. "[١١٥]

لله در الشيخ لم يترك ما يقال!! لله دره في دقة الفهم وفي ربط أجواء السورة والنص وسياقه بالتفسير لتقوي الآيات بعضها بعضا وتخرج بفهم دقيق نسأل الله أن نكون على منهجه وأن يرزقنا فهمه.

إلا أن الرسل والأنبياء ليسوا بمجتهدين لأن المجتهد قد يقع منه خطأ وهم معصومون وسيدنا محمد مثلا لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى "قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ" ٤٥ الأنبياء

١١٥) دقائق التفسير. ابن تيمية، تحقيق د.محمد السيد الجليد ٣/٣٠١-٣١١

## الرأي الذي أذهب إليه في تفسير هذه الآية الكريمة

## – وباللّه التوفيق-:

عند انتهاء قصة يوسف انتقل السياق إلى الحديث عن صراع النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام مع قومه كل حسب أخلاقياته ومبادئه، مبيناً مقدار رحمته بقومه وما قابلوه من مكر ومكائد: "ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ" ١٠٤ ثم الحديث عن إعراضهم عن آيات اللّه البينات وغلبة طبع الشرك عليهم بينما يتميز الرسول المصطفى سلام اللّه عليه بأنه على بصيرة هو ومن اتبعه وهذا هو الفرق الهائل بين المؤمنين والكفار وهو مدار الصراع ولذلك كان هذا أيضاً سنة من سنن الدعوات في الأنبياء السابقين "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ١٠٩ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" ١١٠ يوسف

نلاحظ في الآيتين الأخيرتين فاصلتين مهمتين كقرينتين على مدار الحديث "وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ" و "وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" إذن فدأب الرسل في دعواتهم أن يكونوا حريصين على إيمان أقوامهم عالمين على بصيرة؛ يرون هذا الصدود والبعد عن الحق الذي وصلوا في علمه إلى "البصيرة" ولم يدخروا طاقة في سبيل إيصال الحق لقومهم وكلما كان الأمل يملأ أرجاء نفوسهم وجدوا الصد والجحود يتماديان فيستيئسوا من إيمان القوم ولا ييأسوا لرحمتهم وأملهم بأن يستنقذوهم من النار؛ ومن المعلوم أنك لو قلت استأسد الرجل فإن المعنى أنه بلغ قوة هائلة لا تنبغي لمن هو في مثل حاله لكنه لا يصل إلى قوة الأسد وهذا الفرق بين الاستيآس واليأس فالأخير يدل على بلوغهم حال اليأس والقنوط وانقطاع الأمل وبالتالي لا يجد من معنى لاستمرار الدعوة بينما الاستيآس يترك مجالا للأمل والرجاء والحافز لاستمرار الدعوة وهو خلق الأنبياء عليهم السلام إذا وصلوا في صراعهم مع أقوامهم حد المفاصلة والأذى الشديد؛ لهذا كانت الفاصلة المناسبة للحديث عن هؤلاء الدعاة "وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ" فهم بينا لا ييأسون ولا ينقطع الأمل لديهم يذكرهم المولى بالدار الآخرة وفيها الجزاء الذي يهون معه الصعب ويحفز النفس على المضي في هذا الدرب الصعب؛ وفي المقابل نرى المكذبين من أهل القرى "المجرمين" المستهينين ببأس الله "وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ" يسخرون من هؤلاء الحريصين على هدايتهم فهم يظنون أنهم قد كُذبوا، ولنتحدث بشكل أعمق: نلاحظ في كل الآيات التي تلت قصة يوسف عليه السلام ثنوية حدها الأول الأنبياء والدعاة والثاني المجرمون الكفار: ففي آية ١٠٢ أجمعوا أمرهم ليكيدوا للمصطفى عليه السلام وهو الحريص على إيمانهم، فهم حريصون على موته وهو على هدايتهم، وفي آية ١٠٣ حرص النبي عليه السلام على إيمانهم وهم يحرصون على عقائدهم، "وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ" ١٠٣ ونلاحظ إلى جانب هذه الثنوية ملاحظة أخرى هامة، وهي التدرج التصاعدي في الصراع الفكري العقائدي أولا بعد حرصه على هدايتهم يكيدون له وهو عنهم غائب، ويبين الله صدهم وبعدهم عن الآيات التي تملأ آفاق حياتهم، ثم ليس الأمر مجرد إعراض بل هو حرص على الشرك، "وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ" ١٠٦ وهنا يأخذ الصراع منحى أعلى درجة، يبدأ التهديد والوعيد بتذكرة: "أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ١٠٧ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" ١٠٨ لاحظ الثنوية مع التصاعد في وتيرة الصراع، فبعد هذه التذكرة يذكرهم بأنهم كغيرهم من الأمم التي خلا فيها

الرسل لما تمادوا جاءهم العذاب "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ" ١٠٩ هذه المرحلة التي تسبق المرحلة الخاتمة التي في الآية موضع الحديث تبرز فيها الثنوية وتشتد حدة الصراع ليبلغ قمته "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" ١١٠ إذن هنا وضحت الثنائية المذكورة وبلغ الصراع أوجه وجاءت النهاية وكلها ثنائيات: الرسل والدعاة استيأسوا ولم ييأسوا، وأقوامهم ظنوا أنهم قد كذبوا، فجاء النصر للرسل "فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء" هذا حد والحد الثاني "وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ". ولا بد هنا بعد أن بينا الفرق بين اليأس والاستيآس، وعرفنا لم يستيئس الرسل ولا ييأسون، لا بد من بيان ما معنى أن يظن الذين كفروا بأنهم قد كُذبوا، لم عبر القرآن عن حالهم بالظن، مع أن حد الصراع الأعلى المفروض أن يفضي إلى اليقين أي أشد التكذيب أقول وبالله التوفيق:

لذلك رسائل كثيرة مهمة، أهمها أن الأقوام إذ يكذبون رسلهم، فإنهم داخلياً بينهم وبين أنفسهم يوقنون أنهم على حق، ألم يقل الحق سبحانه عن آل فرعون لما جاءتهم آيات الله مبصرة بأنهم استيقنوها؟ "فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ

ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" ١٤ النمل وقد أفردت لهذه الآية مساحات كبيرة في كتابي (نحو تأصيل مفهوم قرآني للإيمان) أثبت فيه أنهم يستيقنون بمعنى يصدقون جزماً أن الرسول على حق، ولكنهم يجحدون استكباراً وعلواً في الأرض، المهم هنا أن الحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر ليس من قبيل ضعف الحجج التي لدى الأنبياء وإنما ها هي قد تركت آثارها في أنفس المشركين، حتى وقد بلغ الصراع أشده فإنهم لم يجزموا بأن الأنبياء قد كُذبوا، وأذكّر هنا بقصة المصطفى عليه سلام اللّه مع عتبة الذي جاءه مندوباً مفاوضاً عن الكفار في مكة فتلا عليه لائحة العروض التي تقدمها قريش له، وبعد أن فرغ منها قرأ عليه المصطفى عليه سلام اللّه سورة فصلت، فلما بلغ قوله تعالى "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ" ١٣ فصلت فما كان من الرجل إلا أن أسرع يضع يده على فم المصطفى عليه السلام خائفاً يقول له: ناشدتك اللّه والرحم، خوفاً من أن ينزل عليهم العقاب.

كما أن لي وقفة أخرى مع الظن قد يكون فيها بعض الصواب: فالظن هنا من المجرمين يناسب الاستيآس من المرسلين؛ فهم أي المجرمون يستهزءون من الرسل وما يخوفونهم به من وعود بالعذاب والبأس فيتساءلون ساخرين كلما رأوهم: متى ينزل ربكم العذاب؟ متى يمطرنا بحجارة من السماء؟ فمعنى أنهم يظنون من باب السخرية من المرسلين:

نظن ربكم كذبكم؛ لكن ربما غداً يأتينا العذاب من باب السخرية؛ أي أننا قابلنا بين الاستيآس وعدم حصول اليأس من قبل الرسل وما قابله من سخرية قامت على الظن لا على اليقين ليكون الاستهزاء أشد على نفوس المرسلين فيزيد من عنائهم.

أما لماذا أسندنا الظن إلى الأقوام المجرمة لا إلى الرسل فإلى جانب ما بينا من الثنائية في الآيات التي بينت طرفي الصراع والتصاعد في حدته ليبلغ أوجه، كذلك فإنه واضح من التفسير الذي بينه المفسرون قبلنا من وجود "**حتى**" في أول الآية الكريمة نستذكر بعضه هنا "ليس في الكلام شيء يكون "حتى" غاية له؛ فلذلك اختلفوا في تقدير شيء يصح مُغَيّاً ب "حتى" فقدره الزمخشري: وما أرسلنا من قبلك رجالا فتراخى نصرهم حتى. وقدره الطبري: وما أرسلنا من قبلك يا محمد رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب حتى إذا. وقدره ابن الجوزي: وما أرسلنا من قبلك رجالا فدعوا قومهم فكذّبوهم فطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا. فالواضح أن حتى متعلقة بسياق الآيات الكلي كما بينا أي بالصراع الفكري بين الرسل وأقوامهم هؤلاء يدعون على بصيرة ويحرصون على هداية أقوامهم ولا ييأسون بل يستيئسون، والمجرمون يصدون ولا يخافون بأس الله... الخ فهذا الصراع يستمر على هذه الشاكلة "حتى إذا" وصل الطرف الأول فيه وهو الرسل (ولا بد من تقديمهم لمكانتهم ولما لا يخفى) أقول وصلوا إلى

الاستيآس؛ ووصل الطرف الثاني في تكبره وشذوذه واستخفافه إلى الظن بأن الرسل "قَدْ كُذِبوا" عندها يفصل اللّه سبحانه بينهما بمجيء النصر "فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" هكذا يفصل اللّه بينهما واللّه تعالى أعلم. أما لو نسبنا الظن إلى الرسل فليس لي إلا أن أعيد ما قاله العلامة ابن تيمية فارجع إليه.

نعود لقول سيد قطب ولتساؤله:" تُرى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟ وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيق بشر..وما قرأت هذه الآية والآية الأُخرى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ".. ما قرأت تلك الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصوّر الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات وما يحس به من ألم لا يُطاق.. في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل ولا تبقى ذرة من الطاقة المدّخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسماً فاصلا"[١١٦] هذا الوصف الدقيق لحالة الرسل النفسية وقد استنفذوا غاية ما عندهم من الطاقة وقابلهم أقوامهم بغاية ما عندهم من السخرية

---

١١٦) تفسير الظلال

والصد والأذى نقله الحق سبحانه لنا بلفظ بديع عظيم بليغ راق "وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ" وفي ذلك رسالة إلى كل صاحب دعوة يستعجل النصر ولمـّا تأخذ دعوته من جهده ووقته إلا أقل القليل، لمن يستعجل النصر ولم يؤذ في اللّه أشد الأذى.. لمن ييأس وهو يرى الضلال وأهله كثرة ونفوذًا وقوة ووصولا.. لمن ينتظر النصر قبل أن يُزلزل من شدة ما يعاني.. أنّى له أن يتنزل عليه النصر، في حديث خباب بن الأرت رضي اللّه عنه قال: شكونا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو اللّه لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض فيُجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه واللّه ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا اللّه والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون" رواه البخاري.

ولمن يفضل السلامة ومراقبة الأمور من بعيد دون أن تُمس شعرة منه أو تراق قطرة من دمه في اللّه يقول له الحق سبحانه "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ " ٢١٤ البقرة "الم ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" ٣ العنكبوت أي أن ادعاءهم بأنهم مؤمنون مردود عليهم إن لم

يبتلوا ويثبتوا، ويقول الحبيب المصطفى عليه سلام الله "ليودّنّ أهل العافية يوم القيامة أنّ جلودهم قُرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء" رواه الترمذي.

وأما من يسخرون ممن يعمل لله ولرسوله ويدّعون تبجحاً أن لو كانوا على الحق فما الذي يؤخر نزول النصر عليهم، لمن يجلس على الفراش الوثير يأكل ويتنعم ويُنظّر متهماً المخلصين من الدعاة إلى الله بشتى التهم ليقنع نفسه أنه على حق في هزيمته النفسية وفي ركونه إلى الدنيا ونسيانه الآخرة أو الأدهى جهله إن لم يعلم خسارته وما ينتظره في الآخرة حيث الخسران المبين فيقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم "مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قوماً فقال رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان فالنجاء النجاء فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم"[١١٧] وأما قوله النذير العريان فمثل تقوله العرب في حالة الإنذار الشديد حيث لا يجد المنذِر الوقت ليستتر ووجه الشبه هو أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق لا يستره عن الفهم ساتر حقيقة عارية واضحة لا تخفى على أي لبيب وأيضاً شدة خطورة الأمر الذي أنذر به المصطفى الناس فعلى كل منهم أن يتخذ

---

١١٧) فتح الباري ١١/ ٣٢٣

الإجراء السريع على أساس أن هذه القضية ما هي إلا قضية مصيرية يجب أن يُتّخـذ حيالهـا إجـراء الحيـاة والمـوت ولا يحتمـل الأمـر التـأخير لأن المـوت متربص.

# فصل: "فظن أن لن نقدر عليه"

## دفاع عن رسول اللّه يونس عليه السلام

لا نكاد نجد مرجعاً يتناول قصة رسول اللّه يونس عليه السلام إلا ونجده بشكل ما ينتقص من قيمة هذا النبي –إلا من رحم ربي- الذي بدراستي لقصته وجدته على العكس مما صوروه لنا ولم أجد -على قلة إطّلاعي- من يدافع عنه، ولما كان لقصته علاقة وثيقة بالظن رأيت أن أضيف هذا الفصل لهذا البحث سائلا المولى عز وجل التوفيق والسداد والإخلاص.

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء بعد ذكر قصص بعض الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم: "وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ٨٧ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ" ٨٨ الأنبياء.

الجو العام للآيات سابقها ولاحقها عن صبر الأنبياء العظيم على ما أوذوا في اللّه به ودعوات الأنبياء في أوقات الشدة والبلاء العظيم الذي تعرضوا له واستجابة اللّه لهم "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" ٨٣ ؛"وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ" ٨٥

؛"وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" ٩٠.

وقبل عرض أقوال المفسرين نلفت الانتباه إلى الخاتمة التي عقب اللّه بها على قصصهم "إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" ٩٠ لتلاحظ هذه الصفات العظيمة التي وصفهم اللّه بها –ومنهم يونس عليه السلام- قبل الشروع بنقل ما قيل عنه من الأقوال!!

على كل أرى أن الأستاذ سيد قطب في تفسيره الظلال ينزع دومًا إلى البعد عن الإسرائيليات وما لا يليق بالرسل، وأما الأئمة الجهابذة العلماء الكرام أئمة التفسير فإنهم لسعة علمهم وشدة أمانتهم ينقلون الروايات المختلفة ويحدثون عن بني إسرائيل للعظة، تاركين للقارئ المتعلم أن يدرك الرواية الصحيحة من الضعيفة من الموضوعة، ولكن في هذا الزمان الذي نعيشه يكاد العلم فيه يذهب بموت العلماء ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

يقول سيد قطب: "لقد سمّي ذا النون أي صاحب الحوت لأن الحوت التقمه ثم نبذه.

وقصة ذلك أنه أُرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى اللّه فاستعصوا عليه فضاق بهم صدرًا وغادرهم مغاضبًا ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ظانًا

أن الله لن يضيق عليه الأرض فهي فسيحة والقرى كثيرة والأقوام متعددون وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه الله إلى قوم آخرين، وذلك معنى "فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ" أي لن نضيّق عليه وقاده غضبه الجامح وضيقه الخانق إلى شاطئ البحر فوجد سفينة مشحونة فركب فيها حتى إذا كانت في اللجة ثقلت وقال ربانها إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق! فساهموا فجاء السهم على يونس فألقوه (أو ألقى هو بنفسه؟؟) فالتقمه الحوت مضيّقاً عليه أشد الضيق فلما كان في الظلمات: ظلمة جوف الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل نادى "أن لَّا إِلَهَ إِلَّا أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"، إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة فضاق صدرًا بالقوم وألقى عبء الدعوة وذهب مغاضبًا ضيّق الصدر حرج النفس فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين، ولولا أن ثاب إلى ربه! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه لما فرّج الله عنه هذا الضيق... إلى أن يقول: وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقًا ولكنه بعض تكاليف الرسالة.. إن طريق الدعوات ليس هيّناً ليّناً واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات والنظم والأوضاع يجثم على القلوب ولا بد من إزالة هذا الركام،

ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة ومن محاولة الوصول إلى العصب الموصل.

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته فيهجر الناس.. إنه عمل مريح قد يفثأ الغضب ويهدئ الأعصاب.. ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟ إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية! فليضق صدره ولكن ليكظم ويمض وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون، والداعية هو أداة في يد القدرة والله أرعى لدعوته وأحفظ فليؤد هو واجبه في كل ظرف وفي كل جو والبقية على الله والهدى هدى الله... وإن في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها.. وإن في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين "وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ"[١١٨]

بعد هذا الحديث المسهب الموجه لأصحاب الدعوات نعود إلى الحديث عن يونس عليه السلام؛ قال الإمام النسفي رفع الله درجته: ""مُغَاضِبًا" حال أي مراغماً لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم

---

١١٨) في ظلال القران. سيد قطب٤/٢٣٩٣-٢٣٩٤

حلول العقاب عليهم عندها روي أنه برم بقومه لطول ما ذكّرهم فلم يتّعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً للّه وبغضاً للكفر وأهله وكان عليه أن يُصابر وينتظر الإذن من اللّه تعالى في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت.

"فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ": نضيق عليه وعن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما أنه دخل يوماً على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القران البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك قال: وما هي يا معاوية؟ فقرأ الآية فقال: أويظن نبي اللّه أن لا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدْر لا من القدرة."[١١٩] وفي التنزيل العزيز في سورة الفجر استخدمت كلمة قدر بمعنى ضيق في قوله تعالى "وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ" ١٦ الفجر.

جاء في لسان العرب: "غاضبه: راغمه وفي التنزيل "وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا" قيل مغاضباً لربه وقيل مغاضباً لقومه قال ابن سيده: والأول أصح! لأن العقوبة لم تحل به إلا لمغاضبته لربه وقيل ذهب مراغمًا لقومه"[١٢٠]. [ويا للعجب من هذا القول: عقوبة؟؟!!]؛ "قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير مغاضباً لربه عز وجل واختاره الطبري والقتبي واستحسنه المهدوي

١١٩) تفسير القران. الإمام النسفي٣/٢٥١
١٢٠) لسان العرب ابن منظور١/٦٤٩

وروي عن ابن مسعود وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح والمعنى: مغاضباً لأجل ربه كما تقول غضبت لك أي من أجلك والمؤمن يغضب للّه عز وجل إذا عُصي"[١٢١]

"وقيل أنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارّاً بنفسه؟! ولم يصبر على أذاهم وقد كان اللّه أمره بملازمتهم والدعاء فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من اللّه روي معناه عن ابن عباس والضحاك وأن يونس كان شاباً ولم يحمل أثقال النبوة ولهذا قيل للنبي صلى اللّه عليه وسلم "وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ" ٤٨ القلم، وعن الضحاك أيضا: خرج مغاضباً لقومه لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من اللّه عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى اللّه عز وجل. وقيل: أنه كان من أخلاق قومه قتل من جرّبوا عليه الكذب فخشي أن يُقتل فغضب وخرج فارّاً على وجهه حتى ركب في السفينة فسكنت ولم تجر فقال أهلها: أفيكم آبق؟ فقال: أنا هو وكان من قصته ما كان"[١٢٢]

ويا للعجب من هذه الأباطيل القادمة من تلقاء الإسرائيليات.

---

١٢١) الجامع لأحكام القران. القرطبي ٣٢٩/١١

١٢٢) الجامع لأحكام القران. القرطبي ٣٣٠/١١-٣٣١

جاء في كتاب فقه اللغة للثعالبي:" لا يقال للعبد آبق إلا إذا كان ذهابه من غير خوف ولا كد عمل وإلا فهو هارب"[١٢٣] فكيف يدعون هربه خوفاً وانه لم يتحمل عبء دعوته واللغة تبين خطأ دعواهم.

ننقل من تفسير القرطبي ما ذهب إليه بعض المفسرين في تفسير "فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ": "قيل: معناه استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان أن لا يقدر الله عليه بمعاقبته وهذا قول مردود مرغوب عنه لأنه كفر روي عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي والثعلبي عن الحسن [وأجزم بوضع هذه الرواية] وذكر الثعلبي: وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء: معناه فظن أن لن نضيق عليه، [لاحظ أن بعض المفسرين يرغب في جمع الروايات مهما تناقضت واشتطت ويضعها في متن تفسيره] قال الحسن هو من قوله تعالى: "اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ" ٢٦الرعد أي يضيق قلت (القرطبي) وقَدَرَ و قُدِرَ وقَتَرَ وقُتِرَ بمعنى أي ضيق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي. وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم أي فظن أن لن تقضي عليه بعقوبة، قاله قتادة ومجاهد والفراء مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة"[١٢٤]

---

١٢٣) [ فقه اللغة وسر العربية. الثعالبي ٤٢]

١٢٤) الجامع لأحكام القران. القرطبي ٣٣١/١١

بقي أن نذكر الرأي في الظلمات: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت "وعن عبد اللّه ابن مسعود لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض فسمع يونس تسبيح الحصى "فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" "فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ" ١٤٥ الصافات كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش وروي أن اللّه تعالى أوحى إلى الحوت "لا تؤذ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك" وروي أن يونس عليه السلام لما التقمه الحوت: ظن أنه قد مات فطوّل رجليه فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلي فقال في دعائه: واتخذت لك مسجداً حيث لم يتخذه أحد"[١٢٥]

أما قوله "لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" فقد روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: دعاء ذي النون في بطن الحوت "لَّا إِلَهَ إِلّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له" وقد قيل: إنه اسم اللّه الأعظم ورواه سعد عن النبي صلى اللّه عليه وسلم.

أما في الصافات: "إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ" ١٤٠؛ "قال المبرد: أصل أبق تباعد ومنه غلام آبق قال غيره: إنما قيل ليونس آبق لأنه خرج بغير أمر

---

١٢٥) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١١/٣٣٣

الله عـز وجـل مسـتتراً مـن النـاس وأمـا: "فَالْتَقَمَـهُ الْحُـوتُ وَهُـوَ مُلِـيمٌ" ١٤٢ الصافات أي وقد أتى بما يلام عليه فأما الملوم فهو الذي يـلام اسـتحق ذلك أو لم يستحق وقيل: المليم: المعيب "لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَـى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ" ١٤٤ الصـافات؛ أي عقوبـة لـه أي يكـون بطـن الحـوت قبـراً لـه إلـى يـوم القيامة"[١٢٦]

وروى الطبري من حديث أبي هريرة قال: "قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم لما أراد الله –تعالى ذكره- حبس يـونس فـي بطـن الحـوت أوحـى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً فأخذه ثـم هـوى بـه إلـى مسكنه من البحر فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقـال فـي نفسه ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليـه وهـو فـي بطـن الحـوت أن هـذا تسبيح دواب البحر "قال: فسبح وهو في بطن الحوت قـال فسـمعت الملائكـة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبـة قـال: ذلـك عبـدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر؛ قالوا العبـد الصـالح الـذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمـل صـالح؟ قـال: نعـم! فشـفعوا لـه عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى "وهوَ سقيم"[١٢٧] وقـد

---

١٢٦) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١٥/١٢٢-١٢٣

١٢٧) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١٥/١٢٤.

روى قصة يونس السدي في تفسيره بأسانيده عن ابن مسعود وغيره "إن اللّه بعث يونس إلى أهل نينوى وهي من أرض الموصل فكذّبوه فوعدهم بنزول العذاب في وقت معين وخرج عنهم مغاضباً بهم فلما رأوا آثار ذلك خضعوا وتضرعوا وآمنوا فرحمهم اللّه فكشف عنهم العذاب وذهب يونس فركب سفينة فلجلجت به فاقترعوا فيمن يطرحونه منهم فوقعت القرعة عليه ثلاثاً فالتقمه الحوت"[١٢٨]

نلخص ما قاله القائلون عن ذي النون عليه السلام في سبع نقاط رئيسة:

١. عدم الصبر على حمل الدعوة إذ كان شاباً غير قادر على حمل أعبائها.

٢. في الخبر الذي يروونه "أنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوة تفسّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل [أي الجمل الصغير الهزيل إذ يحملونه فوق طاقته، ساء ما يحكمون!!] فمضى على وجهه مضي الآبق النادّ وهذه المغاضبة كانت صغيرة ولم يغضب على اللّه

١٢٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر٦/٥٢١.

ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عـنهم"[129] وقـد أعظـم الفريـة مـن يصـف النبي بهذا الوصف الشنيع!!

٣. قولهم إن اللّه أنزل عليه عقوبة لأنه خرج مغاضباً لربه!!

٤. قولهم: للبث في بطنه إلى يوم يبعثون عقوبة له!!

٥. قولهم إن اللّه نهى رسوله عليه السلام أن يكون كصاحب الحوت من باب أن الأخير لم يصبر على حمل أعباء الدعوة والإيذاء في اللّه.

٦. ظنه أن لن يقدر اللّه عليه بمعنى أن لن يقـدّر اللّه عليـه عقوبـة أو لن يقدر اللّه على عقوبته بما زينه له إبليس! ومـا كـان عليـه نقـل هكـذا تراهات إسرائيلية.

٧. خوفه من قومه إذ أنذرهم بالعذاب فلما لم ينزل كان مـن أخـلاق قومه قتل من جرّبوا عليه الكذب فخاف منهم فهرب!!

هذه الأمور السبعة التي يـدّعون أن نبـي اللّه يـونس عليـه السـلام قـد فعلها واستحق بذلك أن ينهى اللّه محمداً عليه سلام اللّه من أن يكون مثله!

---

١٢٩) الجامع لأحكام القران.القرطبي ٣٢٩/١١.

## باب: ما أراه في القصة:

أقول وبالله التوفيق: إن القران حمّال ذو أوجه ولا بد من أن نحمله على أحسن وجه منطلقين من أن الأنبياء والرسل عليهم سلام الله تعالى معصومون من الخطأ والمعصية والزلل والآثام ومخالفة الأمر وهذا من الاعتقاد.

يقول الإمام العلامة تقي الدين النبهاني عليه رحمة الله ورضوانه: "ودليل عصمة الأنبياء دليل عقلي وليس دليلا سمعياً لأن ثبوت نبوة النبي ورسالة الرسول لمن أرسل إليهم عقلية تثبت بمعجزة محسوسة... فإن عصمة الأنبياء والرسل مسألة يحتمها العقل لأن كونه نبياً أو رسولا يحتم أنه معصوم في التبليغ عن الله إذ لو تطرق الخلل إلى إمكانية عدم العصمة في مسألة واحدة لتطرّق الخلل إلى كل مسألة وحينئذ تنهار النبوة والرسالة كلها"[١٣٠]

والله سبحانه ما كان ليعذّب نبياً أو ليعاقبه أو ليظهره بصورة الكاذب أمام قومه فقد اصطفى الحق -وهو علّام الغيوب- رسله وأنبياءه اصطفاءاً وهم خير البشر وعليه فلا يقوم هؤلاء الأصفياء إلا بأرقى وأكمل الأفعال التي

---

١٣٠) الشخصية الإسلامية. تقي الدين النبهاني ١/١١٣.

تليق بمن يصطفيه رب العالمين على الخلائق، والله بعلمه لما كان وما يكون وما سيكون، ما كان -سبحانه-ليختار إلا الصفوة وقد علم أنهم لم ولن يفعلوا معصية أية معصية أو مخالفة قبل أن يكونوا!!

أجل قد يفعل النبي فعلا يكون خلاف الأولى فيعاتبه الله على ذلك، والأنبياء هم أشد الخلق بلاء، وقد يشدد الله على أحدهم البلاء لمنزلته، ولرفع درجته وهذا البلاء كما لا يخفى غير المعاقبة!!.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "بينما يهودي يعرض سلعة أُعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه (شك عبد العزيز) قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر. قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا؟ قال فذهب اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً وقال فلان لطم وجهي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم لطمت وجهه؟ قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى على البشر وأنت بين أظهرنا قال: فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عُرف الغضب في وجهه ثم قال: لا تُفضّلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فَيَصْعَقُ من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بُعث أوفي أول من بعث فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي ولا أقول أن أحداً

أفضل من يونس بن متى""[١٣١] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قال يعني الله عز وجل: لا ينبغي لعبد لي (وقال أبن مثنى لعبدي) أن يقول أنا خير من يونس بن متى"[١٣٢] ، قال القرطبي في تفسيره" وقال أبو المعالي: قوله صلى الله عليه وسلم "لا تفضلوني على يونس بن متى المعنى فإني لم أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه وهو في قعر البحر في بطن الحوت. وهذا (يقول الشيخ) يدل على أن الباري سبحانه وتعالى ليس في جهة"[١٣٣] فهل لمن كانت هذه منزلته "لا ينبغي لعبدي أن يقول أنا خير من يونس بن متى" و "ولا أقول أن أحداً أفضل من يونس بن متى" (من الأنبياء) ولا تفضلوني على يونس بن متى! هل لمن كانت هذه منزلته وهذا شرفه هل له أن يقوم بما اتهمه به رواة الأخبار!!

أولا قول الله سبحانه وتعالى "فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" ١٤٤ الصافات معناه أن من كان حاله كحال يونس يلتقمه الحوت فإنه لا بد أن يموت فيبقى في بطن الحوت وينتقل إلى حياة البرزخ حتى تقوم الساعة لكن التقام الحوت له أصلا لم يكن عقاباً ولا

---

١٣١) مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري. تحقيق الألباني ٤٢٨
١٣٢) مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري. تحقيق الألباني ٤٢٩
١٣٣) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١١/٣٣٣

تهديداً بل كان ابتلاء فإنه لذلك لم يحصل له ما يحدث طبيعة لمن يلتقمه الحوت بل أخرجه اللّه من بطن الحوت بشكل معجز تكريماً له؛ وذلك أنه ظن أن لن يُضيّق عليه الأرض إذ ترك قومه فاختبره اللّه بأن وضعه في أضيق مكان لا يكاد يستطيع مد رجليه فيه اختباراً له فكان أن نجح في الاختبار ووصلته الرسالة التي أراد اللّه إبلاغه إياها وصلى في بطن الحوت وسبح اللّه واتخذ من بطن الحوت مصلى فرضي اللّه عنه وكان جديراً بأن يرسله ثانية إلى مائة ألف أو يزيدون أسلموا جميعهم للّه.

الأمر الآخر في قوله تعالى "لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ" ٤٩ القلم؛ يدل النص القرآني صراحة على أنه لم يفعل فعلا يُذم عليه، فلولا هذه تفيد امتناع نبذه بالعراء مع كونه مذموماً وذلك أنه لو مات في بطن الحوت لكان الناس ظنوا أنه ارتكب ذنباً يُذم عليه ويعاقب عليه فأراد اللّه أن يُبرّئ ساحته ويُري الناس أنه لم يفعل ما يُذم عليه بل فعل ما يُلام عليه (أي فعل خلاف الأولى) فالنبي إذا فعل خلاف الأولى يُلام ولا يُذم!

فأنعم اللّه عليه بتبرئته وإخراجه من بطن الحوت وإنبات شجرة اليقطين عليه واجتبائه وإرساله إلى مائة ألف أو يزيدون.

إذن: فلولا نعمة ربه عليه ولوجود كونه من المسبحين لالتصقت به تهمة الذنب الذي يُذم عليه لكن هذه التهمة امتنعت بوجود "لولا" تماماً كما امتنع أن يكون سيدنا يوسف عليه سلام الله قد هم بامرأة العزيز لوجود رؤيته برهان ربه:

"وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" ٢٤ يوسف أي لوجود رؤيته برهان ربه امتنع وجود أن يكون هم بها، فحرف لولا هذا عند وجوده في جملة ما فإنه لا بد من امتناع وجود شيء لوجود شيء، فالموجود هو رؤيته برهان ربه، والممتنع هو حصول الهم، وفي هذا رسالة عظيمة: إذا كان هذا النبي قد تعلم وعلمه ربه، وأخلصه واصطفاه وصرف عنه السوء، فإذا كان من بحال مثل حالته ليفعل الفاحشة فإنه حتى لم يحصل منه ولا مجرد الهم بها، ولاحظ أيضاً هنا مقدار الشطط الذي جاء به بعض المفسرين هنا متناسين حرف لولا في الجملة وما يفعله، وكقوله "وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً" ٧٤ الإسراء فتدبر، فلولا: حرف شرط يفيد امتناع لوجود. فامتنع أن يكون المصطفى عليه السلام قد ركن إليهم الشيء القليل لوجود تثبيت الله له.

وهنا في الآيات المتعلقة بيونس عليه السلام: أي امتناع الذم وامتناع النبذ بالعراء (وحاله مذموم) لوجود رحمة ربه فتنتفي قطعياً عنه التهمة

وحاشاه ألف مرة أن يكون متهماً ولإثبات ذلك قطعاً قال الحق تعالى في الصافات: "فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ" ١٤٥ فالمنفي عنه هو الذم، فقد نبذه في العراء سقيماً لا مذموما يا عباد الله!.

ثانياً: لم أفهم معنى قولهم: ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم؛ فهذه الأخيرة توحي أنه وجد في نفسه شيئاً من الاعتراض على حكم الله وحاشى لنبي أن يفعل ذلك فالله هو الذي رفع عنهم العذاب أفكان النبي يفعل ما يقولون، ثم إن الآيات في القران صريحة في تكذيب من يفتري هذه الفرية "فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ٩٨ يونس فالآية صريحة في أنهم ءامنوا قبل نزول أي عذاب فلا أفهم كيف ومتى دخل الإيمان قلوبهم إذا كان الله أظهر نبيه أمامهم بمظهر الكاذب ولم ينزل عذابه في الموعد الذي حدده نبيه لهم فبذلك يتبين لهم كذبه فكيف ومتى ءامنوا؟؟

الأمر الآخر أن الله رفع عنهم العذاب لما ءامنوا أفكان النبي يغضب لذلك؟ ألديه مثلا رغبة في الانتقام؟؟ حاشى لله ولا يفعل ذلك مؤمن فكيف بنبي!

ثالثاً: لم يحفل أحد بمعنى أنه ظن أن اللّه لن يقدر عليه بمعاقبته فهذه فيها كفر صُراح حاشى لنبي أن يمر بخاطره هذا الوهم وقد استثناه المفسرون من وجوه تفسير الآية، وما كان ذكرهم له إلا من قبيل الولع بالإكثار من النقل غفر اللّه لهم.

أما قولهم ظن أن لن نُقدّر عليه عقوبة ففيها إيحاء شديد الوضوح بأنه كان يعصي اللّه وهو يعلم أنه يعصيه وفوق ذلك يجهل أن معصية العالم ليست كمعصية الجاهل في العقوبة فهذا قول مردود وسيتبين إن شاء اللّه بالتفسير الذي ذهبت إليه أن هذا القول لا يرقى للطرح في خضم الحديث عن هذا النبي الكريم.

رابعاً: في قولهم أنه خاف من قومه إذ أنذرهم بالعذاب وحدد لهم تاريخه وموعده فلما أزف الموعد لم يأت العذاب وكان من أخلاق قومه قتل من جرّبوا عليه الكذب فخاف منهم وهرب!! ومن هنا ننطلق إن شاء اللّه لتبيين حقيقة ما حصل:

سبق أن ذكرنا ما روي عن ابن مسعود في تسلسل الأحداث –وهذا ما يهمنا من هذه الرواية فقط- أن اللّه بعث يونس إلى أهل نينوى فكذبوه فوعدهم بنزول العذاب في وقت معين وخرج مغاضباً لهم.

إلى هنا يتبين أنه خرج قبل موعد نـزول العـذاب علـيهم –بـزمن يسـير- لأنه لم ير بوادر خوف منهم فعلم أن العذاب نازلٌ فتركهم ورحل.

ثـم يتـابع: فلمـا رأوا آثـار ذلـك خضـعوا وتضـرعوا وآمنـوا فـرحمهم الله فكشف عنهم العذاب وذهب يونس فركب سفينة.. الخ ومن هذا الجزء نتبين أن بوادر العذاب جاءت في الموعد ولكن القوم –وكـانوا قريبـي عهـد بـأقوامٍ أنبياءٍ أنزل الله عليهم عقابه- اتعظوا بغيرهم فتضرعوا وءامنوا ولكن نبـيهم وقتها لم يكن بين ظهرانيهم.

إذن لفهم القصة على وجهها لا بد من استنباط الأمور التالية:

١) أنـه خـرج مغاضـباً بعـد إنـذارهم بنـزول العـذاب وتحديـده لموعـده واقتراب ذلك الموعد دون أن يرى منهم بوادر الاستجابة ولـم يخـرج بعـد أن جاء موعد العذاب وقد رأى أن العذاب لـم ينـزل وذلـك لأنّ: لأن قومـه ءامنـوا عندما رأوا بوادر العذاب وكان يونس وقتها غائبـاً عـنهم وكـونهم رأوا بـوادر العذاب فقد اطّلعـوا علـى صـدق نبـيهم ففـيم الكـلام عـن خوفـه مـن أنهـم يقتلون من جرّبوا عليه الكذب؟

يذكر الإمام ابن كثير في تفسيره القصة بقدر كبير من الدقة والبعد عن وصف رسول الله بما لا يليق ويهمنـا هنـا قولـه: "وذلـك أن يـونس بـن متـى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه

وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه.. فرفع الله عنهم العذاب."[١٣٤]

قال الفخر الرازي: ..."(قولهم) أنه ذهب مغاضباً وذلك كان محظوراً ألا ترى أن الله تعالى قال "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ" فذلك يقتضي أن ذلك الفعل من يونس كان محظوراً... والجواب أن الآية دلت على أنه ذهب مغاضباً ولم تدل على أنه غاضب الله وكيف ومغاضبة الله تعالى لا تجوز على أحد من المسلمين فكيف على النبي عليه السلام فلعله إنما خرج مغاضبا لقومه فلم قلتم إن ذلك معصية؟ أما قوله "**وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ**" فليس لأنه ثقلت عليه أعباء النبوة لضيق خلقه بل المراد أنه لم يقو على الصبر على تلك المحنة التي ابتلاه الله بها ولو صبر لكان أفضل فأراد الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها ".[١٣٥]

لو كانوا –كما قيل- لم يؤمنوا بالعذاب، وحان موعده الذي حدده لهم نبيهم ولم ينزل عليهم فخافهم يونس، إذن كيف وأين ومتى ءامنوا؟ ولماذا

---

١٣٤) تفسير القران العظيم. ابن كثير. دار الجيل٣/ ١٨٦-١٨٧

١٣٥) عصمة الأنبياء. الفخر الرازي١١٥

لا ينزل اللّه عليهم العذاب في موعده الذي حدده نبيه لهم؟ ألا ترى أنه إذا لم ينزل في ذلك الموعد ثم جحدوا وعلموا أن نبيهم كاذب ثم جاءتهم بوادر العذاب بعد يوم مثلا هل كانوا ليصدقوا ويؤمنوا ويتضرعوا؟؟

لا بد إذن أن العذاب كان لينزل في موعده كما أن اللّه تعالى لا يضع نبيه أمامهم في موقف الكاذب!!

إذن فكل ما كان من أمر يونس عليه السلام هو أنه عندما حدد لهم موعد العذاب ورآى أن الموعد قد أزف ولم يتبدل حالهم ولم يعطوا أمارة واحدة على أنهم سيؤمنوا، علم أن العذاب نازل بهم ففيم بقاؤه؟ فخرج مغاضباً للّه بمعنى غضب كيف يستهان بوعيد اللّه أو مغاضباً لهم بهذا المعنى ولكنه نسي أن يستأذن اللّه في الخروج إذ لو كان تذكر لما تأخر في الاستئذان.

إذن فهذا هو مفتاح فهم ما كان من النبي يونس عليه السلام واللّه اعلم.

نعود إلى جو الآيات العام وهو جو الابتلاء العظيم الذي ابتلى اللّه سبحانه به أنبياءه، أصفياءه عليهم السلام وصبرهم على ما كانوا عليه من كرب ومرض ومعاناة وحنين إلى الولد... قصة أيوب عليه السلام في مرضه وابتلائه في أهله وماله وصبره العظيم على ذلك كله ثم دعاؤه ربَّه بأدب جم

مستحيياً أن يطلب الشفاء صراحة خشية أن يُظنّ أنه لم يصبر ولم يشكر، فقد نعّمه اللّه تعالى السنين الطوال أفلا يصبر على مرض استمر على بعض الأقوال ثماني عشرة سنة؛ وتنبؤنا الآيات عن صبر إدريس وذي الكفل وإسماعيل عليهم السلام وصبر زكريا –وقد اشتعل رأسه شيبا – وحنينه إلى الولد بهذه الأدعية التي ذكرها القران عنه "قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا" ٤ مريم، في هذه الأجواء المفعمة بالصبر وبالعلاقة الحميمة الوطيدة برب العالمين تأتي قصة يونس عليه السلام ونتساءل هنا هل لهذا الإدخال لهذه القصة من معنى إن لم يكن لبيان صبره العظيم في ضمن من صبروا بل لبيان أنواع من الصبر صبرها أنبياء اللّه فأيوب صبر على الأذى والمرض وفقد الأهل والمال، وزكريا عاش يرجو رحمة ربه بأن يرزقه ولداً تقر عينه به، ويونس عليه السلام كان المثل العظيم في الصبر على حمل الدعوة وتكبد مشاقها فكان المثل الذي يضربه اللّه للدعاة ليصبروا على حمل الدعوة صبره.

ولذلك استحق بجدارة هذه الخاتمة التي ختم اللّه بها هذا القصص القرآني "إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" فأي وصف بليغ فيه بيان شاف واف لسيرة هذا النبي! لذلك عندما نسي هذا الخاشع المسارع في الخيرات وثيقُ الصلة باللّه استئذانَ اللّه كان

هذا الأمر البسيط بالنسبة لمن هو دونه عظيماً؛ عند الله ابتلاه عتاباً له عليه رفعاً لمنزلته. وكما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين!!

ولا أجمل من ذكر قصته في سورة القلم مثلا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليصبر صبره بعد أن بين له أن هذا النبي قاسى ما قاسيت وكان من قومه ما كان من قومك فاستأنس بقصته وقوّ عزيمتك!!

وبيان ذلك أن أجواء سورة القلم مشحونة –كفلك ذي النون!- بالصراع الفكري العقائدي مع المشركين في مكة ومحاولاتهم الجاهدة لصرف النبي عليه السلام عن الحق حتى قال الله عن ذلك "وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ" ٥١ القلم ؛ وفي الإسراء "وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ٧٣ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً" ٧٤، إلى هذا الحد وصل الصراع بين الحق والباطل، ومعاناة رسول الله عليه سلام الله فكان لا بد من ضرب مثل له يشد من أزره، فالرسول الكريم في القلم يصف المشركين في مكة تارة بالضلال وتارة يبين لهم أن بعض زعاماتهم ما هو إلا هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد.. وتارة يذكرهم بنعم الله عليهم وكيف كفروا الله وضرب لهم مثلا أصحاب الجنة لما كفروا نعمة ربهم أصبحت جنتهم كالصريم!!

ثم يشتد الصراع الفكري وتأخذ الحجج القوية الدامغة موقعها مشحونة بالترهيب والترهيب والسخرية المريرة من عقولهم! "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ٣٥؟؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ" ٣٦؟؟! أهذا حكم عقل؟.." أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ٣٧؟ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ"!! ٣٨ تنتقون أفكاركم الضالة حسب أهوائكم "أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟! إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ"!! ٣٩ بعد كل سؤال متضمن حجة دامغة يأتي بتقرير فيه الاستهزاء بهم فيا له من صراع!! سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ"؟! ٤٠ "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ"... حجج دامغة وتحد رهيب وسخرية مريرة مشوبة بالاستخفاف بعقولهم وترهيب ووعيد!!

لا مكان فيه للترغيب تحد بشركائهم الذين نافحوا عنهم وقضوا حياتهم يؤذون المصطفى فيهم!! "خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ "... ثم يأتي بعد ذلك الإنذار الشديد العظيم بالعذاب الأليم الذي ليس كمثله إنذار لمشركي مكة إن لم يرتدعوا ولم يرعووا "فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ"!!! جبار السماوات والأرض الرب العظيم القوي المنتقم يواجه هذا المخلوق الضعيف الذي لا يقوى على ترويض ذبابة "ذرني" خل بيني وبينه!! أي إنذار رهيب وأي وعيد شديد اللهجة "فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ"!! ٤٥ مثل

هذا الوعيد جاء من يونس لقومه بعد أن صارع هذا الصراع الفكري الرهيب وبعد أن أوذي هذا الأذى الرهيب وما ذكر هنا إلا لبيان أنه قاسى مثلك يا محمد فاصبر صبره إذ لا يمكن أن يعضد الله صبر نبيه في هذه الأجواء بذكر نبي هارب لا يصبر على أذى يخاف القتل فينجو برأسه تاركا الدعوة ...أيعقل هذا؟ سيفتُّ هذا من عزيمته ويخذله لو كان المثل المضروب في هذه الأجواء الحساسة من غير هذه الشاكلة من المعاناة والابتلاء والصبر خاصة وأن الله ذكر قصة يونس هنا بعد الإنذار العنيف وما ذلك إلا ليقول لنبيه إن هذا النبي بعد أن وصل إلى هذه المرحلة التي وصلت إليها وأنذر قومه هذا الإنذار الذي أنذرته ترك قومه قبل نزول العذاب عليهم مستعجلا بعد أن أيس منهم فلا تفعل فعله في ترك قومك قبل أن يقضي الله أمراً كان مفعولا!! "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ" (إذ لم يصبر لحكم ربه وقضائه الأخير في قومه بعد أن أنذرهم) "إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩ (لولا تفيد امتناع أن يكون أتى ما يُذم عليه) "فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" ٥٠ وأدل ما يدل على ذلك سرعة إيمان قومه لما رأوا بوادر العذاب فقد كان وصل بهم إلى حافة الإيمان، مما يدل على عظيم فعله فيهم، وما يكون ذلك إلا نتاج صبر وكفاح وصراع فكري أثمر.

فليس الصبر المذكور هنا هو الصبر على حمل الدعوة كما توهم من نقل الأخبار الملفقة عليه ولكنه الصبر على قضاء اللّه الأخير في قومه بعد الإنذار!! وإلا فأين الإشارة إلى الصبر على الدعوة هنا بعد ذكر الإنذار؟ فاصبر لحكم ربك! ولم يقل اصبر على الدعوة هنا فذكر حكم اللّه أي قضاءه ولم يذكر الدعوة مقرونة بالصبر ليبين أن الصبر المقصود هنا هو الصبر على الحكم لا على الدعوة، وليس عبثًا أن تكون الآية السابقة تماماً لذكر قصة يونس وخبره في سورة القلم "أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ" ٤٧ وفي ذكر الغيب هنا تذكير لطيف للنبي الكريم بأن الغيب عند اللّه واللّه يصرّف القلوب كيف يشاء ولا تدري يا محمد متى تنقلب قلوب كفار مكة لتصبح قلوباً مؤمنة فها هي قلوب قوم يونس انقلبت حين رأوا أول بوادر العذاب فكما صبرت على حالهم وهم منكرون فاصبر على حالهم وهم منذَرون؛ "أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ" ٤٧ : ليس عندهم الغيب ليعلموا ما سيكون ومتى سينزل العذاب عليهم ليتداركوا أنفسهم قبل نزوله بهم وهم غافلون وفي هذا إمعان في التهديد وقد جعل الحق بذلك موعد نزول العذاب مفتوحاً قد يأتي في أية لحظة كل هذا قبل ذكر قصة نبي هدد قومه بالعذاب فالدلائل كلها تقوي الرابطة بين قصة محمد في قومه ويونس في قومه عليهما السلام!

يبرز مقدار الصراع الفكري العقائدي والجدال والصبر في دعوة سيدنا يونس عليه سلام الله من أجواء سورة الصافات أيضاً والتي تنطلق في إبرازها لقضايا هامة جداً في الصراع بين الأنبياء والكفرة من أقوامهم تنطلق من فكرة خلق السماوات والأرض وعظمة الخالق سبحانه ثم التذكير بالتفكر في ذلك ثم يسخر الكفار ولا يتذكرون!

ويشتد الصراع مع الرسل باتهامهم بالسحر والسخرية منهم في مسألة البعث –وكل هذا بشكل عام كسنة للصراع بين الرسل وأقوامهم حتى إذا جاء ذكر يونس بينهم علمنا أنه لاقى مثل ذلك- ثم تتحدث السورة عن يوم الدين وجزاء من سخر من الأنبياء وكيف سيُسألون وكيف ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله ويتتابع الصراع الفكري مع الكفرة "وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ" ٣٦ ثم يهددهم بالعذاب ثم يصف تكذيبهم لرسول الله خاصة وللرسل عامة فهذه سنة الله في الدعوات ...الخ وهكذا ينطلق من هذا المنطلق لبيان الصراع بين الرسول الكريم وقومه مذكراً بالصراع بين من سبقه من الرسل وأقوامهم "وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ٧٢ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ" ٧٣ يبدأ بقصة نوح بأسلوب طرح يتكرر مع من بعده من الأنبياء وهذا ما يهمنا جدا هنا؛ بعد صراع شديد طويل مع قومه كيف نادانا فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم!! ثم جزاؤه على صبره؛ ثم قصة إبراهيم

عليه السلام مع قومه وحججه الدامغة وأنه من شيعة نوح ليقول بوضوح أن للأنبياء سنة في صراعهم مع أقوامهم –ولعمري إنها لسنة اللّه في الدعوات إلى الحق أبدا- وكيف كادوا له ليلقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ثم هجرته عنهم وجزاؤه في نهاية المطاف؛ ثم قصته مع إسماعيل في ابتلاء عظيم ليس له مثيل في التاريخ! لإبراز أعظم أنواع الالتزام بأوامر اللّه لتستحق الأسرة كلها أن تفضل على العالمين وأن تخلد لقطات من سيرتهم في أعمال الحج إلى يوم الدين؛ ثم نجاة موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم وجزاؤهما لأنهما ككل الأنبياء من المحسنين ثم جدل إلياس مع قومه وتكذيبهم له ولوط مع قومه...

ثم تأتي قصة يونس في خضم هذا الجو المشحون بكثافة شديدة بابتلاءات الأنبياء وجدلهم وصبرهم ومكر قومهم بهم وجزاؤهم من اللّه بعد صبرهم بأسلوب عرض متشابه على اختلاف المواقف والمحور الرئيس لأخبارهم هو الصراع الفكري العقدي والإيذاء الشديد والتهديد والوعيد والعاقبة فهل لهذا الإدخال لخبره هنا من معنى لولا أنه في طليعة الصابرين دعا وصبر وجادل وثابر ليستحق بعد ذلك جزاءه –كما درجت السورة على ذكر جزائهم بعد صبرهم- ليقول "وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ١٤٦ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ" ١٤٨ وأظنه النبي الوحيد الذي ءامن معه كل قومه والأدل هو أن

قومه ما أن تركهم حتى رأوا أول بوادر العذاب حتى تضرعوا وءامنوا وهذا يكشف بجلاء أنه كان قد وصل معهم إلى درجة من الإقناع ما كان ليصل إليها لولا مثابرته وصبره وقوة حججه وإلا فقد جاءت بوادر العذاب أقواماً قبلهم "قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ" ٢٤الأحقاف ولم يؤمنوا وفي هذا حجة ودليل لا مجال للتشكيك بعده! وهكذا تعضد سورة الصافات سورة القلم في بيان ابتلاءات وصبر ودعوة يونس عليه السلام وتتشابه السورتان في بيان الحجج والإنكار والتهديد والإنذار ليكون في ذلك رد على من يقول أن "وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ" في عدم صبره على حمل الدعوة ولتعضد أيضاً رأينا في أن ذكر خبر يونس في سورة القلم إنما هو لتذكير الرسول صلى الله عليه وسلم أن يونس واجه ما واجهت وصبر فاصبر مثل صبره في كل شيء إلا في الاستعجال بالخروج قبل أن تستأذن عالم الغيب. والله أعلم.

أما وصف يونس عليه السلام نفسه بأنه كان من الظالمين فمن باب: سيئات الأبرار حسنات المقربين! ولذلك استحق بجدارة الخاتمة التي ختم الله بها هذا القصص القرآني "إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" لذلك عندما نسي هذا الخاشع المسارع في الخيرات وثيقُ الصلة بالله استئذانَ الله كان هذا الأمر البسيط بالنسبة لمن

هو دونه عظيماً عند اللّه ابتلاه عتاباً له عليه ورفعاً لمنزلته واعتبر نفسه من الظالمين فتأمل ما قيل عنه بعد ذلك!

يقول الفخر الرازي: "وأما الرابع وهو أن اللّه تعالى سماه ظالماً فقد أجاب عنه من يُجوّز الصغيرة (أي في حق الأنبياء) بأن كل ذنب يأتي به المكلف كبيراً كان أو صغيراً فهو ظالم لنفسه وأما من لم يجوزها فأجاب بأن ترك الأولى ظلم لأنه لما كان متمكناً من فعل الأولى حتى يستحق به الثواب العظيم فلما تركه من غير موجب فقد ترك حظ نفسه ومثل هذا يجوز أن يسمى ظالماً لنفسه لأن حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه وها هنا كذلك"[١٣٦] وسنأتي إن شاء اللّه بتسعة أدلة دامغة على عظيم صبره وعلى أنه بذل جهداً خارقاً في دعوة قومه بعد قليل.

فمن الآيات الكريمة من الأنبياء في قول الحق سبحانه "فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ" نتبين أن نبي اللّه يعتبر إذ يخرج من قومه مغاضباً لهم أن مهمته معهم قد انتهت – فالعذاب نازل بهم- لكن مهمته كنبي لم تنته بل ستبقى حتى آخر رمق في حياته، فهو يظن باللّه الظن الحسن أنه سيكرمه على ما فعل في دعوته وعلى ما صبر وعلى ما أوذي وهو العالم بكل ذلك سبحانه، فسيبعثه إلى قرى أخرى، فهو يظن أن لن يقدر اللّه عليه.

---

١٣٦) عصمة الأنبياء. الفخر الرازي ٤٠ باب عصمة آدم عليه السلام.

والقدر هنا نوعان: قدر بمعنى تضييق الأرض عليه ففيها أقوام آخرون وقرى أخرى يبعثه اللّه إلى بعضها وعنده طاقة ولديه عزم وصبر على بدء الدعوة من جديد وهذا جَلَد ما بعده جلد وهمة تنوء تحتها الهمم العظام! والنوع الثاني من القدْر هو أن لن يُضيّق اللّه عليه نفسه فإنه إذا سلبه اللّه مهمته كنبي وداعية بعدم بعثه إلى أقوام آخرين فإن ذلك سيضيق عليه نفسه أشد الضيق فهو لا يتصور نفسه إلا نبياً وداعية وصابراً وفي هذين المعنيين الذين استفدناهما من الظن "فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ" رد على من يقول أنه لم يصبر على مشاق الدعوة ألا ترى أن من قطع شوطاً عظيماً في الدعوة مع قومه فأبلغهم رسالته ونصح لهم وبشرهم وأنذرهم وحاورهم وصارعهم عقدياً وسفه أحلامهم وعرفهم وعرفوه وعرفوا ما عنده من الحق وكسر كثيراً في الحواجز التي بينه وبينهم وأحياناً اقتربوا من الحق (بدليل أنهم لما رأوا بوادر العذاب أسلموا وتضرعوا للّه: فكان ذلك دليلا على أنه قد وصل معهم باطنياً إلى حافة الإيمان وإن كانوا ظاهرياً قد بلغوا شفا حفرة من النار أنقذهم اللّه منها!)

وكان من أوسطهم نسباً، فبعد أن بلغ كل ذلك معهم وشارف على اليأس (استيأس من إيمانهم) وتيقن أن العذاب واقع بهم لا محالة فلا مجال للاستمرار معهم فتراه يضع نفسه بين يدي ربه وتحت تصرفه ليبعثه إلى قوم آخرين لم يعرفهم ولا عرفوه ولم يعرفوا عن طبيعة دعوته شيئاً فهو

إذن سيبدأ معهم من جديد وهذا يعني أنه سيبدأ الرحلة الشاقة من جديد بظروف أصعب فمن كانت هذه همته فلا شك أن الصبر لديه سجية وعلو الهمة خصيصة والدعوة طريقة عيش لا يحيا بدونها!!

بل إنه يظن أن لن يضيق اللّه عليه وفي ظنه نلمس ظلال الرجاء فهو لا يتخيل نفسه إلا في خضم الصراع العقدي مع الكفار وإلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه التي بين جنبيه.

إن وجود خبر ذي النون وسط أنبياء كان محور الحديث عنهم صبرهم ما كان إلا لأنه في طليعة الصابرين وكان أبلغ ما في خبره أن يقول اللّه تعالى عنه "فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ" ليعطي الحق بذلك مثلا لكل صاحب دعوة فهذا رجل استنفد غاية ما عنده من الطاقة ووصل بقومه إلى ما وصل ومع ذلك ها هو ذا يضع خده للّه ليكلفه بمهمات جديدة عظيمة وهو مستعد للصبر عليها صبراً عظيماً وكذلك هو لا يتصور نفسه إلا داعية إلى اللّه فإذا سلب منه هذه المهمة الجليلة ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه فأي صبر أعظم وأي همة أعلى ولا أجد هذه القصة إلا أروع مثل للدعاة ليحتذوا حذوه صلى اللّه عليه وسلم.

ثم صبره عليه السلام وهو في جوف الحوت وهو في حالة الكظم والكرب الشديد مثلٌ يكفي لإدراكه أن تتخيل نفسك في جوف حوت مظلم

يهوي بك إلى قعر بحر مظلم في ليل بهيم أما كنت حينها وأنت تنتظر الموت تستعجله لترتاح من العذاب خاصة وأن كميات هائلة من الحامض تهوي من كل صوب نحوك كاللظى المستعر؛ إن صبره في جوف الحوت لعجيب حقاً يدل على أن الصبر سجية من سجاياه العظيمة فهو وهو على هذه الحال يشكر ربه ويسبحه ويتقرب إليه وكان أقرب إلى اللّه وهو على هذه الحال من أي وقت مضى لأن ذلك بكل وضوح ليس عقوبة كما توهم الواهمون بل ابتلاء لرفع الدرجات وبرهان من اللّه للناس إلى يوم الدين أن أنبياءه هم صفوة خلقه أينما كانوا!!

وكما أن الرسول عليه سلام اللّه وهو عند سدرة المنتهى لم يطغ (بسؤاله ربه أن يرفع الحجاب) لم يطغ سيدنا يونس بسؤاله ربه عن العلة أو الحكمة من مجازاته على ما كان منه من دعوة للّه وإيمان به وصبر وما لاقاه في سبيله بإلقائه في جوف الحوت كما أنه حتى لم يخطر بباله أن اللّه خيب ظنه فقدر الأرض عليه أيما قدْر بل حمده أن ترك له بحبوحة يستطيع السجود فيها! قام يصلي للّه دره!!

ثم صبره وقد ألقى الحوت به على اليابسة وهو لا يقوى على دفع ذبابة عن نفسه كل هذه الابتلاءات تثبت لأصحاب الدعوات أن هذا النبي قد صبر صبراً يوازي صبر أيوب على مرضه عليهم السلام!

لذلك نقول بقوة أن الله إذ يذكره في سورة القلم إنما يكون بذلك مثلا على الصبر وقدوة للدعاة.

إذن فالأنبياء معصومون عن المعصية وعن الزلل والعقاب لا يكون إلا لمن أذنب!!

دليل آخر على عظيم صبره وعلى أدائه دعوته على أكمل وجه ؛ نرجع إلى كلام الأستاذ سيد قطب في كلامه عن آية "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" ١١٠ يوسف وبيانه أن النصر يتنزل عليهم بعد اشتداد البلاء والأذى "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ" ٢١٤ البقرة لتعلم أن نصر الله تنزل عليه بعد أن كان حاله كما وصفته الآية وبعد أن استحق النصر بتجاوزه المحن والإحن وبالصبر العظيم فجاءه النصر بإيمان قومه وبعثه إليهم وبذلك لا تضيق الأرض عليه ولا تضيق نفسه ولا أدل من حادثة غزوة أحد على ذلك إذ أن النصر لا يأتي مع معصية ولا يتنزل النصر إلا على من كان مؤمناً عاملا صابراً.

نلخص الأدلة التسعة التي تثبت صبره عليه السلام:

١. ذكره في سورة الأنبياء وسط أنبياء كان القاسم المشترك بينهم الصبر وفي سورة الصافات كما بينت ومحور الحديث هناك هو الابتلاءات والصراع العقدي والصبر والجزاء وفيها "وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ" ١٤٨ وفي سورة القلم كذلك مثلا للرسول يأنس إليه حين اشتد الأذى.

٢. الخاتمة التي عقب بها على مراده من قصص الأنبياء إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين.

٣. صبره في جوف الحوت

٤. صبره بعد إلقاء الحوت له على اليابسة لا يقوى على شيء يدل على أن الصبر من سجاياه.

٥. عصمة الأنبياء وحسن اختيار اللّه تعالى لهم.

٦. بقاؤه مع قومه حتى آخر نَفَس قبل نزول العذاب فإنه تركهم مغاضبا وفي هذا التعبير دليل على اشتداد غضبه إذ رأى العذاب يوشك أن يحل موعده وما ارتدعوا وهذا يدل على عظيم صبره معهم لولا أنه نسي!

٧. النصر الذي تنزل عليه بعد كل هذه الكربات دليل على استحقاقه له.

٨. فظن أن لن نقدر عليه! وهي مفتاح فهم ما عنده من عزم وعزيمة!

٩. قول الرسول الكريم عنه "ولا أقول أن أحداً أفضل من يونس بن متى" فهو يضعه في أعلى المراتب التي يتنافس عليها الأنبياء ليبلغوها.

# فصل: "وإنا لنظنك من الكاذبين"

# "وإني لأظنه كاذباً"

"وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ" ٦٦ الأعراف

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ" ٣٧ غافر.

"فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ" ٢٨ هود.

"قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ" ١٨٦ الشعراء.

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ

الْكَاذِبِينَ ٣٨ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ" ٣٩ القصص.

نرى دائما الأسلحة نفسها، والاتهامات نفسها والتسفيه والشتم والإيذاء وعندما يصل الأمر إلى العقل يغلب على الظن أنه من الكاذبين!!

تصف حالة الظن هذه عن مكامن النفوس المريضة المستكبرة عرفت الحق فأعرضت عنه ولولا الظن هذا المستخدم هنا لما استخرجنا ما في أعماق نفس فرعون مثلا من تصديق موسى عليه السلام فهو أمام القوم (يعلم) ويتحدث بلهجة الواثق ولا يدع مجالا للشك (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي) ثم عندما يخلو إلى من يعرف حقيقته أو يخلو إلى نفسه: ينتقل العلم هنا إلى الظن بأنه من الكاذبين وما يصرفه عن الحق إلا الكبر والدنيا والسفاهة.

كذلك نرى ابتلاء الأنبياء دائما باتهامهم بالسفاهة وهم أصدق الناس وأعلم الناس وما يصرفهم ذلك عن مقارعة الباطل وبذل أقصى طاقاتهم في الدعوة.

# فصل: "وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ "

# دفاع عن نبي الله داود عليه السلام

"وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ٢٠ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ٢١ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ٢٢ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ٢٥ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ٢٦ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ٢٧ ص.

روي أن واحداً ذكر ذلك الخبر (الفرية التي يفترونها على داود) عند عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذّب المحدث به وقال: "إن كانت القصة على ما في كتاب الله تعالى فما ينبغي أن نتلمس خلافها وإن كان

على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فلا ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت الشمس عليه!"[١٣٧]....

أستحيي وأترفع أن أنقل هنا الخرافات التي نقلها كثير من المفسرين في هذه القصة العظيمة؛ ورحم الله الأستاذ سيد قطب رحمة واسعة إذ قال: "وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً تتنزه عنه طبيعة النبوة ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً وهي لا تصلح للنظر من الأساس ولا تتفق مع قول الله تعالى "وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ"[١٣٨]

مرة أخرى تبرز أهمية وضع الآية في نطاق النص الذي وردت فيه لتنسجم معه مع ربط ذلك بالعقيدة.. عصمة الأنبياء! وبعدهم عن الفاحشة والمنكر والذنوب والخطأ والزلل عصمة الأنبياء الذين اصطفاهم الله ليبلغوا رسالته وما كان لمبلغ رسالة ربه أن يخطئ أو يزل! وإلا لكان احتمال الخطأ في مسألة باباً لتسرب الخطأ إلى الرسالة كلها.

علاوة على أن يفعل ما افتراه عليه الملعونون من بني إسرائيل والذين لا نستغرب عليهم هذا الافتراء على الله وأنبيائه ونحن نعرف عنهم قتلهم

---

١٣٧) عصمة الأنبياء. الرازي ١٠١

١٣٨) في ظلال القران. سيد قطب ٣٠١٨/٥

الأنبياء وتنكيلهم بهم ولكن الغريب أن ينقل المفسرون –غفر الله لهم- هذه الخرافات عنهم ويضعونها في صورة المُسَلّمات فلا يكاد كتاب تفسير يخلو منها حتى من يميل إلى عدم تصديقها لا يكاد يجرؤ على ردها إلا عند بعضهم فمثلا يروي أبو السعود قصة داود بشكل حيي ثم يقول: "هذا وأما ما يذكر من أنه عليه السلام دخل ذات يوم محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ في الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت في كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة"...الخ من هذه الخزعبلات؛ إلى أن يقول: "وأتاه خبر مقتله [أي زوج المرأة ] فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فإفك (يقول أبو السعود) مبتدَع مكروه وهو مَكر مختَرَع بئسما مكروه تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتباً لمن اخترعه وأذاعه ولذلك قال علي رضي الله عنه: من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وذلك حد الفرية على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم"[١٣٩].

وكذا قال البيضاوي في تفسيره: "وأقصى ما في هذه القضية الإشعار بأنه عليه السلام ودّ أن يكون له ما لغيره وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه

---

١٣٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم. تفسير أبي السعود ٢٢٢/٧

القصة فاستغفر ربه وأناب عنه وما روي من أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان إن صح!!!! فلعله خطب مخطوبته أو استنزله عن زوجته وكان ذلك معتاداً فيما بينهم وقد واسى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى وما قيل أنه أرسل أوريا إلى الجهاد مرارا وأمر أن يقدّم حتى قتل فتزوّجها هزء وافتراء ولذلك قال علي رضي الله عنه: من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة"[١٤٠].

وشر البلية أن تضطر إلى مناقشة هذه السفاهات التي لو قيلت عن عربي جاهلي ذي نخوة لما صُدّقت فكيف بها وقد قيلت عن نبي عظيم. والغريب أنك تجد في كثير من كتب التفسير هذه الحكاية: "وكان (أي داود) يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال يا رب إن الخير كله قد ذهب به آبائي. فأوحى الله تعالى إليه إنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها... وابتلي إسحاق بالذبح".. الخ[١٤١]

---

١٤٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تفسير البيضاوي ٢/ ٣١٠

١٤١) الجامع لأحكام القران. القرطبي ١٥/١٦٧

كيف لهم أن ينقلوا ذلك حتى بلا مناقشته مع علمهم أن الذبيح هو إسماعيل عليه وعلى أنبياء الله السلام، ومن يقرأ كتاب الله بتمعن يعلم أن قصة الذبح كلها حصلت قبل ولادة إسحاق وليس هنا موضعه.

يقول سيد قطب: "وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك كان يخصص بعض وقته للتصرف في شئون الملك وللقضاء بين الناس ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة.. وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل عليه أحد حتى يخرج هو للناس وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه ففزع منهما فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يطمئنانه "قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ" وجئنا للتقاضي أمامك "فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ" وبدأ أحدهما فعرض خصومته "إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا" (أي اجعلها لي في ملكي وكفالتي) "وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ" (أي شدد علي في القول وأغلظ) والقضية –كما عرضها أحد الخصمين- تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل، ومن ثم اندفع داود يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ولم يطلب إليه بياناً ولم يسمع له حجة ولكنه مضى يحكم "قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاءِ" (أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض) "لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ" ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم وقد اختار أن يعرض عليه القضية في صورة صارخة مثيرة ولكن القاضي عليه ألا يستثار وعليه ألا يتعجل وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته فقد يتغير وجه المسألة كله أو بعضه عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء "وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ" وهنا أدرك طبيعته إنه أواب"فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ؛ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ" وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً تتنزه عنه طبيعة النبوة ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا وهي لا تصلح للنظر من الأساس ولا تتفق مع قول الله تعالى "**وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ**" والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" فهي الخلافة في الأرض والحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى؛ واتباع الهوى –فيما يختص بنبي- هو

السير مع الانفعال الأول وعدم التريث والتثبت والتبين.. مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال.

أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب؛ ومن رعاية الله لعبده داود أنه نبهه عند أول لفتة وردّه عند أول اندفاعة وحذره النهاية البعيدة.. وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض وفي الحكم بين الناس وقبل أن تمضي قصة داود إلى نهايتها في السياق يرد هذا الحق إلى أصله الكبير أصله الذي تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما أصله العريق في كيان هذا الكون كله وهو أشمل من خلافة الأرض ومن الحكم بين الناس وهو إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ" ٢٧ وهكذا في الآيات الثلاث تتقرر تلك الحقيقة الضخمة: إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلا ولم يقم على الباطل.. فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض."[١٤٢]

---

١٤٢) في ظلال القران. سيد قطب ٥/٨/٢٠١٨-٣-٢٠١٩ بتصرف يسير

لله در الشيخ ما أروع استنباطه وفهمه إذ يربط النص بالجو العام للسورة ليتسق ويتناسق ويفسر بعضه بعضا.

## المطلب الأول: إثبات أن محور الآيات ليس فيه شيء عن القصة الفرية

وأول ما نتناوله هنا هو الرد على من زعم أن هذه القضية في زواجه من امرأة حسناء بعد قتل زوجها الذي لا ذنب له إلا أنه زوج حسناء بزجه في مقدمة جيش المرة تلو المرة ليُقتَل ليخلي مكانه لزوج آخر لا يكتفي بتسع وتسعين زوجة، أعود لأقول هل لو قيل ذلك عن عربي جاهلي ذي نخوة يُصدّق؟ علاوة على أن يصدّق إذ وصف به نبي وصف الله مكانته عنده "وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ".

والسؤال الكبير هنا هو ماذا سيقول هذا النبي لله يوم الحساب عند سؤاله عن قتل هذا الرجل هل يدّعي بأنه دفعه للشهادة؟ فالله أعلم بخفايا الصدور! وما كان الله ليصطفيه لمقام النبوة والملك والخلافة في الأرض ليحكم بين الناس بالعدل وهو متصف -حاشاه عن كل ما وصفوه- باتباع شهواته مستغلا لسلطانه لا أجد ذلك كله بحاجة إلى مناقشة فكلها ترّاهات وأباطيل لا ترقى إلى مستوى النظر فيها.

وبالنظر إلى السياق العام للآيات نرى أن الموضوع الأساسي للآيات هو قضية الحق الذي قامت عليه السماء والأرض ومن أجله خلق الله الخلق ويتفرع منها الحق في خلافة الأرض وإقامة العدل فيها والذي يجب أن يقوم

على أساس الإيمان بالله سبحانه والعمل الصالح والبعد عن الشهوات والبعد عن اتباع الهوى فمن قام به نجا وأصلح ومن حاد عنه خاب وخسر.

ويضرب الله لنا المثل في نبي ملك آتاه الله ملكاً عظيماً سخر له الجبال والطير وألان له الحديد وعلمه الصناعة وآتاه إلى جانب ذلك وغيره ما شدد ملكه وأقامه: الحكمة ومنها رجاحة العقل وحسن إقامة الأحكام والقضاء **وفصل الخطاب** وهذا المثل الذي ضربه الله للناس إنما هو ليقول لهم: هذا عبدي الذي آتيته كل ذلك فلم يطغ ولم يستغل سلطته ولم يظلم بل أقام الحق وعدل وكان حكيماً عليماً لذلك استحق أن أقرّبه فأجعل له لدي الزلفى وحسن المآب وبعد إقامة الحق كان منيباً لله مستغفراً له شاكراً لأنعمه "اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" ١٣ سبأ، إذا كان هذا هو السياق فهل يتسق معه أن يكون المثل المضروب للناس لإقامة الحق في الدنيا هو نبي مقرب يعتدي؟ نبي، ملك، خليفة، علمه الله وآتاه ما شاء وبعد هذا يظهر في هذا السياق بصورة المعتدي البعيد عن العدل والحق المتبع لشهواته؟؟

هل سيكون أي إنسان بعد ذلك ملوماً إن هو تجاوز وأفسد وبغى وطغى ما دام النبي فعل ذلك؟

هذا بلا شك يدل دلالة صارخة على أن الآيات لا يمكن أن تكون بأي صورة تظهر هذا النبي بالشكل الذي صورته به الإسرائيليات ولا يمكن أن يكون الخطاب فيها عن نساء وشهوات وقتل ومكائد واستغلال للسلطة وهذا السياق يشهد على أن هذه الخرافات ما هي إلا اعتداء صارخ على اللّه وأنبيائه وتدحض هذا التفسير الذي ما هو إلا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف! يستحق القائلون به الجلد حداً!

وفي قول الحق سبحانه أيضا "وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ" أدلة كثيرة قوية على دحض هذه المزاعم وذلك أن العلم الذي علمه اللّه سبحانه أنبياءه ليس كالعلم الذي يعلَمُه من هو دونهم "وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ" "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا"١٥ النمل، فاللّه تعالى هو الذي علمهم فعلمهم لدُنّي من لدن عليم حكيم فعلمه وحكمته التي نصت الآيات عليها تؤهله لإدراك حقيقة الأمور وماهية الأشياء فيحكم عليها بالحكم الصحيح المناسب للظرف ويعلم ما يُراد من الأشياء خاصة إذا كانت رسائل توجيهية من رب العالمين فبعد هذه الحادثة المذكورة في قضية النعاج وصف النبي الكريم عليه السلام تحليله لما حدث على أنه **ظن** أنه امتحان "**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ**" يعني أنه يرجح أن الذي حصل أمامه كان امتحاناً وكونه قال "**ظن**" ولم يقل "وعلم" يعني أيضا أنه كان في نفسه شيء من هذه الحادثة (سنعرفه إن شاء اللّه بعد قليل) فلو كان في الحادثة تلميح أو تصريح أو

وصف لفعل اقترفه تُذكره به كأن تعظه أنه أخطأ مثلا أو أنه ظلم، قتل، استغل منصبه... الخ لعلم عليه السلام بما علمه الله تعالى من علم أن هذه تذكرة جلية في شأن استغلال المنصب مثلا وما كان فهمه ليقصّر بعد هذه الرسالة الواضحة بعد هذه البينة ليقول إني أظن ذلك اختباراً بل –لو كانت كذلك- كان ليدرك أنها تذكرة فيقول: أعلم أنني أذنبت وأعلم أنها تذكرة لكن القران بين أنه ظن أنه اختبار، ولا مجال لأحد أن يدعي أن الظن هنا يقين لأنه في آيات أقترب الظن فيها من اليقين أكثر من هذه أثبتنا أن الظن ظن واليقين يقين!

الأمر الآخر هو وصفه للأمر بأنه فتنة أي اختبار ولم يصفه بأي وصف يبرز ظلمه للآخرين بفعلة اقترفها. فغاية تقديره إذن للمسألة أنها قد تكون على الأرجح اختباراً له من الله في هذه المسألة التي سئل فيها! أو تذكرة لكونه يتفرغ للعبادة تاركاً الحكم في أوقات معينة وليس شأن الحكم بأقل من شأن العبادة! (وهذا الفهم الأخير استقيناه من الدكتور أحمد نوفل)

والدليل الثالث: هو عصمة الأنبياء عليهم السلام هذه العصمة التي بدأت ترتفع أصوات في أوساط المسلمين حتى في علمائهم بنفيها ولا حول ولا قوة إلا بالله نقول تقتضي هذه العصمة التي عصم الله بها أنبياءه من أن يضلوا أو يزلوا أو أن يطغوا وإذا ثبت خطأ النبي مرة فتتسرب إمكانية الخطأ لأي مكان في النبوة مما يهدمها.

ننقل رأي الفخر الرازي: "إن الذي حكاه المفسرون عن داود..لا يليق بالأنبياء بل لو وصف به أفسق الملوك لكان منكراً.

الثاني: أن الدخول في دم أوريا أعظم من التزوج بامرأته فكيف ترك الله الذنب الأعظم واقتصر على ذكر الأخف.

الثالث: أن السورة من أولها إلى آخرها في حاجة [ولعلها محاجّة] منكري النبوة فكيف يلائمها القدح في بعض أكابر الأنبياء بهذا الفسق القبيح؟ ... أنه لما وصف بالقوة فأي قوة لمن لم يملك نفسه عن الفجور والقتل؟...قوله "وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ" والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علماً وعملا فكيف يجوز أن يقول الله "وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ" مع إصراره على ما يستنكفه أخبث الشياطين من مزاحمة أفضل أصحابه في الزوج المنكوح... أنه قال بعد تمام القصة (جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) وترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم فعلى ما ذكروه يلزم أن يكون تفويض خلافة الأرض إليه بسبب إقدامه على القتل والفسق وذلك مما لا يقول به عاقل... قول داود عليه السلام "وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ" استثنى الذين آمنوا من هذا البغي

فإن كان هو الفاعل لذلك وجب أن يكون حاكماً على نفسه بعدم الإيمان."[١٤٣]

١٤٣) [ عصمة الأنبياء. الفخر الرازي ١٠٠-١٠١]

## المطلب الثاني من البحث هو محاولة الاقتراب من أجواء الآيات أكثر

لأحاول الاقتراب من تفسيرها أكثر مما فعل الأستاذ سيد قطب رحمه الله وإن كان ما قاله يحتمل أن يكون صواباً إلا أنني لا أستطيع أن أكتم الخواطر التي تجول في صدري عن هذه الآيات فلعل غيري ممن أوتي الحكمة والعلم أن يستفيد فيبيّن والحق أحق أن يتّبع! ولذلك سأطرح أولا هذه الأفكار ثم سأحاول الوصول إلى صورة الوضع:

ثلاثة احتمالات لمغزى الآيات: الأول: يقارب ما قال به سيد قطب، ولكن يقوم على أساس المقاربة بين مهمة الحاكم ومهمة النبي، والثاني: على أساس أنه عليه السلام قضى في المسألة بعد سماع الخصمين وأنه حكم بالحق ولم يخطئ أبداً في الحكم وكل ذلك ندلل عليه من الآيات، والثالث: أنه قضى بالحق وأن الفتنة كانت لتذكرته بأن شأن الحكم ليس بأقل من شأن العبادة.

أولا: لو حصل أن قضى النبي في القضية قضاء باتاً نهائياً لدى سماعه طرفاً واحداً فإنه يعني أنه ظلم كليهما وحاشى لنبي أن يظلم إذ يحكم خاصة في هذا السياق الذي مادته العدل والحق.

ولتناقض ذلك مع عصمة الأنبياء، ثم نفي الله تعالى في ختام الآية عنه أن يكون اتبع الهوى في حكمه وبين الحق سبحانه عاقبة من يتبع الهوى وتوعده بالعذاب الشديد وما كان لنبي أن يضل عن سبيل الله في صغيرة أو كبيرة وهذا التعقيب يشبه قول الحق "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وفي ذلك نفي لوقوع الغلول في حق أي نبي ثم قال حُكماً عاماً للناس كلهم بعد نفي الغل عن الأنبياء "وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" ١٦١ آل عمران، كذلك هنا يتكلم عن الحق والعدل "وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ" فيها نفي قاطع عن أن يكون اتبع الهوى لأنه لا يمكن أن يضل عن سبيل الله؛ خاصة وقد عقب بقوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" فلا هو بالمعذّب ولا هو بالذي ينسى يوم الحساب.

ثم أعود لأكرر بأنه ظن أنما قد فتناه وذلك يوحي بأنه ما كان قد أصدر حكماً نهائياً بل سمع الأول وعلّق على ما سمع وكان ينتظر سماع الآخر ليحكم الحكم النهائي فتفاجأ باختفاء الرجلين -وقد يكونا ملكين والأرجح أنهما ليسا كذلك- قبل انتهاء الحكم والبت النهائي فيه فظن أن في المسألة اختبار ولو كان ما قطعه من حكم هو حكمه النهائي في القضية واختفى الرجلان بعدها لعلم أنه أخطأ وأنه كان تحت امتحان ومن هنا نقول بأن في الظن دليلا قوياً على أنه كان لم يبت نهائيا في المسألة ووجه ذلك -والله أعلم- هو أن سيدنا داود كان نبياً ملكاً فكان يريد التوفيق بين

المهمتين العظيمتين وهنا لا بد من ملاحظة الطريقة التي طرحت فيها القضية والجو العام الذي حام حولها نتأمله لأول وهلة فنجده جواً أخوياً ودياً فالذي طرح مظلمته هو الجانب الضعيف وليس الجانب المتسلط القوي وهو يقول في طرحه "إِنَّ هَذَا أَخِي" ويقول "فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا" فهو لم يعتد علي بضربي وغصبي مالي ولم يقل ملكنيها "وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ" إتبع معي أسلوب التخجيل وأنا استحييت منه لعلاقتنا المتينة فلم أستطع رده لما بيننا من الود!!

في هذا الجو الأخوي برزت القضية على أنها استفتاء أكثر من كونها خصومة لذلك أراد النبي أن يستغل هذا الجو الودي ليحولها إلى قضية أخوية يصلح فيها ويربط كليهما بالآخرة - وقد رآى الدنيا تفرق بينهما- وبالعمل الصالح فأمسك هنا

طرف الخيط فيما عرض عليه من الأمر وهو قضية الظلم القضية التي تنافي المبدأ الأساس الذي قامت عليه السماء والأرض وما بينهما وهو العدل والحق المبني على الإيمان بالله والعمل الصالح ليبين أن علاج الظلم لا يكون إلا بربط الأعمال بالله لا بالمصالح الدنيوية فتحل القضية بشكل ودي ويرتدع عندها الظالم منهما وكان عند ذلك يريد سماع الطرف الآخر لكنهما اختفيا بدليل أنه فوجئ بذلك وظن الأمر اختبارا له! وربما لم يختفيا وحصل أمر ظن من ورائه داود أن في الأمر اختباراً له ولم يذكر الله حال

الرجلين لأن عرض القضية –الفكرة - قد حصل وليس فيما وراء ذلك فائدة، أو أنه أدرك أن في الخصومة تذكرة من الحق سبحانه بأن عليه أن لا ينقطع عن الحكم، فتنبه من الحال إلى هذه التذكرة فظن أن الأمر فتنة تحوي تذكرة.

والمغزى من هذه القضية هو عظة لهذا الحاكم العادل الذي أراد أن يصل بالعدل إلى غاية ما يستطيع عن طريق ربط المفاهيم الدنيوية –وهذا النزاع على الدنيا- بالآخرة بالتقوى فترتدع النفوس وتهدأ الخواطر ويُرجع إلى الحق ولا يعود الظالم إلى ظلم إذا خاف اللّه، وهذا غاية العدل وهو أفضل من التدخل بالسلطان والقوة لردع الظالم، والتذكرة هنا في أنّ تدخلك بالقوة لدى سماعك الطرف الأول وقبل سماع الثاني قد تربك الطرف الآخر فلا يستطيع الإتيان بحجة قوية تضمن له حقه.

وقد نفهم أن حكمه في القضية معلق بصحة ادعاء الفقير فيكون الحكم إذا كان ما قلتَ صحيحاً فقد ظلمك. يقول الرازي: "هب أن لا دلالة في الآية على الذنب البتة ولكن مسارعته إلى تصديق أحد الخصمين حال حكمه يكون الآخر ظالماً غير جائز (قلنا) ليس في القران أنه صدقه من غير ظهور الحجة إذ المراد إن كان الأمر كما ذكرت فقد ظلمك"[١٤٤] وعذر سيدنا داود

١٤٤) عصمة الأنبياء الرازي ١٠٤

فيما فعل هو هذا الجو الأخوي الذي ساد القضية والشيء الآخر هو أن الطرف الذي ابتدأ الطرح هو الطرف الأضعف صاحب النعجة الواحدة فالطرف الأقوى –صاحب النعاج الكثيرة - ما كان ليتأثر بهذا البيان إلا تأثراً إيجابياً يرجعه إلى الحق ويصرفه عن الظلم ولكن العدل المطلق المطلوب اللائق بحكم النبي الملك لا يقتضي أن يؤثر على أحد الخصمين حتى ولو كان بإرجاعه إلى الحق إلا بعد أن يدلي بأقواله كلها.

كما أنه عليه السلام يُذكرهما بأن تخالطهما تخالطاً ودياً إن لم يكن أساسه الإيمان بالله والعمل الصالح فإنه سيؤدي إلى اعتداء بعضهما على بعض مذكّراً بضرورة بناء العلاقة بينهما على الإيمان بالله والحب فيه لا على أساس مصالح الدنيا ومنافعها.

إذن فغاية ما فعله النبي داود عليه السلام هو أنه غلّب ناحية النبوة في شخصه كحاكم على جانب كونه قاضياً قاصداً الإصلاح والهداية ليزول الخلاف بالتراضي فكان هذا الامتحان عظة له في أن عليه الوصول إلى هذه الغاية بعد سماع الطرفين وهو بذلك فعل خلاف الأولى. أما توفيق ذلك مع السياق فذلك أن الآيات تطالب الناس بإقامة الحق والعدل كاملا فتذكرهم بهذا النبي الذي من شدة حرصه على العدل والحق كاد أن يخطئ وما كان لنبي أن يخطئ!

"ولما قال بعد تمام القصة (جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) وترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم فعلى ذلك يلزم أن يكون تفويض خلافة الأرض إليه بسبب هذا الحكم الدقيق الذي لم يبغ فيه ولم يظلم؛ قول داود عليه السلام "وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ" استثنى الذين آمنوا من هذا البغي فإن كان هو الفاعل لذلك وجب أن يكون حاكماً على نفسه بعدم الإيمان"[١٤٥]

أما استغفاره فعندما ترجح لديه أن ما حصل كان اختباراً من الله علم أنه كنبي ما كان له أن يؤثر على أحد الطرفين ولو بإرجاعه إلى الحق وتذكيره بالآخرة قبل سماع حجته عندما غلب على ظنه أنه ظالم لأخيه فاستغفر ربه وأناب إليه من كونه كاد يقع في الظلم واستغفار الأنبياء ليس بالضرورة أن يكون لخطأ منهم فهم لا يخطئون وإنما شكراً لله لذلك أتبع استغفاره بالركوع –السجود- وداود كما نعلم من عباد الله الشاكرين!! كما أن حسنات الأبرار سيئات المقربين!

كذلك استغفر عن كونه تفرغ للعبادة كما سيأتي. وفي قوله تعالى "وَأَنَابَ" لطيفة أخرى من كونه عليه السلام إما أناب إلى الله بمعرفة مراده

---

١٤٥) عصمة الأنبياء. الفخر الرازي ١٠٠-١٠١ بتصرف.

منه أو أن إنابته كانت إلى سابق عهده بالحكم أي بأنه كان يسمع الطرفين قبل البت في القضايا فعاد بعد هذه القضية إلى سابق عهده كذلك نجد في ظنه أنه ابتلاء لطيفة أخرى من أنه يعلم في نفسه أنه ما بت في القضية بتاً نهائياً بل هو ما زال في طور المداولة وهذا الظن منشأه من علمه بأن الحكم الذي أصدره ما هو بالحكم الذي يريد البت فيه في القضية.

أو أنه تنبه بعد أن بنى ما بناه على قول الأول أن الثاني عندما بدأ طرح الخصومة طرحها من منطلق آخر كما سيأتي إن شاء الله فقال "خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ" وما فيها من دلالة على أن الأمر وصل بينهما إلى حد الخصومة فظن أنه الابتلاء لحكمته بهذه القضية المعروضة بهذا الشكل الغريب فاستغفر ربه أنه نسي ما كان من الأول من طرح.

واللطيفة الأخرى هي أن موقفه هذا يذكرنا بموقف النبي الكريم يوسف عليه السلام إذ سأله السجينان عن الرؤى فكان ما كان منه من تذكير بالله وبالدعوة إليه قبل إجابتهما على سؤالهما وهو كما أسلفنا ولج إلى موضوع الدعوة من هذه القضية العامة التي فيها ما سيأتي بيان بعضه من شمولها لأكثر الجوانب التي تصرف عن الآخرة من حرص على الحياة والطمع والتسلط وغيره فبدأهما بالدعوة خاصة وأنه في المحراب وليس في مجلس القضاء فليس عبثاً ربط أجواء المحاكمة بقول الحق في أولها "إِذْ تَسَوَّرُوا

الْمِحْرَابَ" ٢١ أي دخلوا عليه في مجلس عبادة بقضية دنيوية فيها البغي والظلم والتهالك على الدنيا من كليهما وما صاحب النعجة ببريء في الحكم الذي قضى به داود وإنما شأنه شأن صاحبه مدان "وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ" فالغني بغى بسلب مال الفقير والفقير بغى بتعلقه بأسباب الغني ناسياً أن التعلق لا يكون إلا بالله وسيتضح هذا أكثر عند طرح الوجه الآخر لتفسير الآية بعد قليل إن شاء الله. فلا أجد داود عليه السلام مخطئاً لا من قريب ولا من بعيد.

لطيفة أخرى هي أن الفقير وهو الجانب الأضعف في المسألة إذ ابتدره بالسؤال وبالطرح فإنه كان يرغب في حماية حقه بسلطة القانون كما يقال فأراد داود عليه السلام أن يردعه بأن الرادع الحقيقي لا يكون بالسلطان الناشئ عن القوة وإنما بالسلطان الناشئ عن التقوى أي سلطان الإيمان كذلك بغي القوي لا يردعه إلا التقوى والتخويف بالله فكان في جوابه رادع لكليهما ولعمري إنه القران الذي لا تنقضي عجائبه فلا تنفك الأذهان إذا ما أُعملت فيه تستنبط وتستنبط وتعجب لهذا البلاغ الكثير الذي جاء بألفاظ يسيرة!!

إذن فخلاصة الوجه الأول من تفسير هذه الآيات هو أن انسجام الآيات مع السياق لا يكون بإظهار من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب والحجة القوية والعلم بمظهر الظالم الباغي المجانب للصواب بل تظهر لنا ببلاغ

راق أنه من شدة حرصه على العدل بربطه القضايا المطروحة عليه بالدعوة والإيمان ليرد المتخاصمين إلى مفاهيم الدين لكي لا يكون همهم فقط هو حل النزاعات والمشاكل بل ليسيروا حياتهم بأوامر الله ونواهيه وهذا يعني تحقيق منتهى العدل الذي من أجله قامت السماء والأرض وما بينهما لا بقوة السلطان فقط بل بالتقوى النابعة من القلب فمن شدة حرصه على العدل والحق كاد يزيغ عنه!!

## أما الوجه الثاني لتفسير هذه الآيات فيما أراه

فإن كان حقاً فمن اللّه وإن كان غير ذلك فمن نفسي أستغفر اللّه على كل زلل زللته إنه هو الغفور الرحيم، أرى هذا الوجه لصيقاً بالآيات يقوم على أن كلا الطرفين كان حقاً قد طرح خصومته وأعطاه نبي اللّه داود الجواب على ما طرح وبيان ذلك أننا لو دققنا في الآيات لوجدنا فيها نوعين من الطرح على طرفي نقيض ونوعين من الإجابة تناسب هذين النوعين من الطرح؛ فطرح الأول يبين أن العلاقة بينهما علاقة خصمين بغى بعضهما على بعض (وإن كان البغي الذي بغاه الغني على الفقير واضحاً والبغي الذي بغاه الفقير غير جلي من السياق وإن كنا نستطيع تلمس بعض صوره لا على وجه الدقة) ويريد الحكم العدل ولا يريد الشطط ويطلب الهداية إلى سواء الصراط وما في هذا الطرح من غضب وطلب وصخب!

والطرح الثاني أخَويّ مستكين: "إنَّ هَذَا "أَخِي" فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا؛ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ، وما في ذلك من علاقة أخوية ودية وصداقة إلى جانب ما سبق ذكره آنفا وواضح أن الغني هو الذي يصخب ويصيح ويطلب عدم الشطط كعادة الأغنياء في ظنهم أن الدنيا ما خلقت إلا لهم ولا حق لغيرهم في أن يحيا إلا إذا كان تابعاً لهم خادماً! فلا يرضى إذن أن يشطط القاضي بمنعه

هذا الحق الذي يدعيه لنفسه لمجرد أنه غني والثاني صاحب الطرح الودود الأخوي الذي يطالب بحقه على استحياء فالفقير صاحب النعجة الواحدة!

وأما الجوابان اللذان وردا في حكم النبي عليهما فجواب صاحب النعجة بأنه مظلوم لأن له الحق بالتملك وإن كان فقيراً ولكليهما كما أسلفت في قوله "وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاءِ" وفي هذا الحكم بيان موجز بليغ يصف أحداث القضية من وراء السطور ويرينا أن هذه القضية البسيطة في طرح ملابساتها تحوي تحليلا بالغ الأهمية لنفسيات أهل الدنيا من فقير وغني وتوضح سبب بعدهم عن الآخرة وتعلقهم بأسباب الدنيا وترشدهم إلى الحل بآيات معجزات من لدن حكيم خبير! على لسان نبي علمه الله من لدنه علماً!

وذلك أن الطرفين كانا متوادين متآلفين وربما مع شيء من استعلاء الغني وطمع الفقير أراد الغني فيهما استغلال العلاقة والمنزلة ليسلب الفقير ماله طمعًا في الدنيا فأحرجه وعزه في الخطاب حتى سلبه ما عنده وهنا يمكن أن نستنبط وجهة نظر الغني في حقه مثلا كأن تكون النعجة قد أنجبت له بمخالطتها لما عنده وبالتالي رأى أن له الحق بالجمل وبما حمل كما يقولون فقد أطعمها وتعهدها وسمنت...الخ أو أنه كغني يرى أن له الحق في كل شيء وأن الفقير إنما خلق لخدمته كحال معظم الأغنياء من أهل الدنيا خاصة في ذلك الزمان الغابر ويظن هذا الغني أنه بإثارة الجلبة والصياح فإنه سيأخذ حقه (فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ..الخ).

والثاني الفقير يصف بهدوء أنه صاحب حق (وقد قيل أن أحد الصالحين دخل مجلساً فيه نقاش يعلو فيه صوت أحد الخصمين فاحتكموا إليه ولمّا يسمع ما تناقشوا حوله فقال إن الحق مع الشخص المتحدث بهدوء لأن صوت الخصم ما ارتفع إلا بانقطاع حجته فالدلائل تشير إلى أن النبي إنما حكم بعد أن وُجدت لديه القرائن الكافية) فصاحب النعجة الواحدة يعلم أنه صاحب حق أُخذت منه النعجة بالإحراج ونستشف من وراء السطور أن الآخر لم يعترض على ما قيل لأن همه يكمن فيما استجد من وضع بعد أن وُجدت النعجة لديه خاصة وأن الفقير أقر بأنها ما أُخذت منه بالإكراه والإجبار بل تتضمن "وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ" أن يكون غير قادر على رعايتها وأن تنجب له فبموتها ينقطع ماله وهذه نقطة في صالح الغني!! وفي قوله "بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ" إقرار منه بأنه ظلم الفقير ولكن له حق فيما نتج عن الوضع الجديد من وجود النعجة وسط نعاجه فالخصومة كما ترى كاملة والقضية بملابساتها واضحة ونحن نعلم من أسلوب القران الكريم وبلاغته وإعجازه هذا التلميح وعرض لقطات من القصة تاركاً للقارئ أن يربط ويفهم ويستنبط فمثلا في سورة العاديات بعد وصف بليغ رائع معجز لمعركة في عشر كلمات حوت ما حوت من البلاغة والدقة قال "فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا" ٥ فلك أن تتخيل ما تفعله خيل العدو إذ يباغت عدوه بهذه القوة صبحاً بغير مقاومة والقوم عزل نائمين...الخ فبثلاث كلمات وصفت نتائج معركة كاملة مثيرة!!

ولم نعهد في أسلوب القران الإسهاب في الشرح والعرض والتفصيل وفي هذه القصة من جهة المظلمة التي ذُكرت قصتها عرض للظلم الصارخ الذي يطغى به الإنسان الغني والفقير فيه سواء والبعد عن منهج الله هو السبب في الطغيان والظلم فكانت هذه القصة مثلا صارخاً على ظلم الإنسان لنفسه ولغيره فالغني الذي يملك تسعةً وتسعين ضعفاً للمال الذي يملكه الفقير يطمع بما عند الفقير من حطام الدنيا ليأكله إلى ماله لا عن حاجة، ويستبد به الظلم لينكر على الفقير ماله وما آل إليه ماله بل إنه مستعد لقطع حبل الود إن كان ثمن وصله إرجاع الحق لصاحبه ويتهمه بالبغي عليه إذا ما طالبه بحقه ألا ترى أن هذا هو مثل أغلب أهل الأرض من الذين لا يقيمون مصالحهم على أساس الدين!! وهو محور الآيات!!

والفقير الضعيف بعدما سُلب ماله ما زال متعلقاً بأسباب الغني لا يريد صرم مودته حتى بعدما غصبه ماله وهذا نجده في "إِنَّ هَذَا أَخِي" وهذا من أهم النتائج الناشئة عن ضعف الإيمان (أقصد بالتحديد وصل الأسباب بالمخلوق طمعاً وخوفاً مع نسيان الخالق سبحانه وهو ما ينطبق هنا) إذن فهو يخشى إن قطع الغني مودته أن يجوع ويعرى!

لذلك كان هذا البعد الشديد عن الله وحبهما للدنيا وبغيهما بعضهما على بعض وأكلهما مال بعضهما بعضا بالباطل أول ما لاحظه داود عليه السلام من خصومتهما وآلمه ذلك فاتخذه منطلقاً لحديثه إليهما فبين أن

أساس خصومتهما هو المفاهيم الخاطئة عن الحياة إذ لم تُبن على الإيمان لذا انهارت وهذا البيان يمليه عليه واجبه كنبي وهذا هو استغلاله للسلطان الذي عنده في التأثير عليهما لكيلا يعودا إلى البغي.

قول داود عليه السلام "وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ" استثنى الذين آمنوا من هذا البغي فإن كان هو الفاعل لذلك وجب أن يكون حاكماً على نفسه بعدم الإيمان فينتفي بذلك أن يكون ظلم في الحكم كما مر عن الرازي. وهنا قد يتساءل من لا يرى هذا الوجه حقاً فما هو استغفاره إذن ومغفرة اللّه له؟

فالجواب على ذلك: يقول الفخر الرازي "لعل الاستغفار إنما كان لأن القوم لما تسوروا ظن داود عليه السلام بهم أنهم يقصدون قتله فلما لم يظهر الأمر كما ظن ندم على ذلك الظن فكان الاستغفار عليه ...أو أنهم تسوروا قصره قاصدين قتله والإساءة إلى أهله فدخلوا قصره في وقت ظنوا أنه غافل فلما رآهم داود عليه السلام خافهم لما تقرر في العرف أنه لا يتسور أحد دار غيره بغير أمره إلا لسوء يريده من قتله ...فلما رأوه مستيقظاً انتقض عليهم التدبير فاقترح بعضهم خصومة لا أصل لها زاعماً أنهم قصدوه لأجلها ..."وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ" أي امتحناه لكنه لم يعمل على ظاهر الحال ولم ينتقم منهم مع كونه ذا أيد وقوة.. بل صار مستغفراً للقوم الذين قصدوه وطالباً من اللّه أن يعفو عنهم وذلك أن اللّه تعالى لم يقل إنه

أذنب ولا أنه استغفر لنفسه فإن المستغفر قد يستغفر لنفسه تارة ولغيره أخرى ... ثم قال الله تعالى "**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ**" معنى غفرنا لأجل حرمة داود لأولئك وقبلنا شفاعته في التجاوز عنهم"[146] يقصد فغفرنا ذلك له أي لأجله!

---

١٤٦) [عصمة الأنبياء. الفخر الرازي ١٠١-١٠٢]

## الوجه الثالث: مغزى الآيات وشأن الحكم والعبادة:

أو أن استغفاره كان لأن مغزى القصة كلها أن هذا النبي انصرف أوقاتاً طويلة عن الحكم إلى العبادة، فلمن ترك التصرف في شؤون الحكم؟ لذلك كان التعقيب على هذه القصة بهذه الآية "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ" فليس شأن العبادة بأهم من شأن الحكم بين الناس بالعدل وهذه هي التذكرة ولأجل ذلك استغفر وأناب، فنجمع بين التفسيرين الثاني والثالث أنه بعد حكمه بالعدل تبينت له الغاية وذكر المحراب في معرض القصة، وكيف أنهم تسوروه وكابدوا في سبيل الوصول إليه ليحكم بينهم بالعدل، يثبت ذلك.

# فصل: "مَن كَانَ يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ"

يقول الحق سبحانه في سورة الحج "مَن كَانَ يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ" ١٥ الحج.

ننقل ما قاله الأستاذ سيد قطب في الظلال: "واللّه يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله حتى لو خسروا ذلك العَرَض كله في الفتنة والابتلاء.

"إنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ" ١٤ فمن مسه الضر في فتنة من الفتن وفي ابتلاء من الابتلاءات فليثبت ولا يتزعزع وليستبق ثقته برحمة اللّه وعونه وقدرته على كشف الضراء وعلى العوض والجزاء.

فأما من يفقد ثقته في نصر اللّه في الدنيا والآخرة ويقنط من عون اللّه له في المحنة فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء وليذهب بنفسه كل مذهب فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء "مَن كَانَ يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ" وهو مشهد متحرك لغيظ النفس وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ يجسم هذه الحالة التي يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه عندما ينزل

بها الضرر وهي على غير اتصال بالله والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة وكل نسمة رخية! وكل رجاء في الفرج ويستبد به الضيق ويثقل على صدره الكرب فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء.

فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النَفَسَ فيختنق.. ثم لينظر هل يُنقذه تدبيره ذاك مما يغيظه!؛ إلا أنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر والكفاح ولا خلاص إلا بالاستعانة بالله وكل حركة يائسة لا ثمرة لها إلا زيادة الكرب ومضاعفة الشعور به والعجز عن دفعه بغير عون الله فليستبق المكروب تلك النافذة التي تنسم عليه من روح الله"[١٤٧]

وفي قول الله من كان يظن أن لن ينصره الله تنبيه للغافلين اليائسين أن لو استبقوا في أنفسهم حتى الظن بنصر الله فإن ذلك سيكون مفتاحا لتفريج كرباتهم والله عند حسن ظن عبده به؛ إلا أن الآية تصف من يغلب على ظنه أن لن ينصره الله وذلك الذي يشتد بعداً عن الله هائماً على وجهه

---

١٤٧) [في ظلال القران. سيد قطب٤/٢٤١٤]

موغلا في عالم الظلمات فليفعل هـذا الجاهـل مـا يظنـه مفرجـاً لهمـه ولكـن هيهات فلا نصر إلا لمن يربط الأسباب بالله!!

# فصل: "وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ"

# "فما ظنكم برب العالمين"

يقول الحق سبحانه "قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ٦٠ يونس.

وأول ما أحب لفت الأنظار إليه هو تقديمه التحريم على التحليل فقال "فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً" أي أن الأصل فيه أنه كان حلالا فحرمتموه وما كان اللّه أخرجه عن أصله بتحريمه أحللتموه فالأصل في الأشياء الإباحة!

ويقول رب العزة سبحانه في الصافات "وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ٨٣ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ" ٨٧ الصافات.

أنقل بتصرف كبير تفسيراً قيماً للدكتور محمد جميل الغازي رحمه اللّه وأعلى درجته في هذه الآيات من شريط مسجل لمحاضرة له عن التوحيد ثم تفسير سيد قطب عليه واسع رحمة اللّه: "ينقل لنا القران الكريم مناقشة جرت بين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مع الكهنة من قومه عندما جاء

بفكر جديد حاجّه قومه أي خوفوه ولا يكون جدل الكهنة إلا بالتهديد كحالهم في كل زمان خوّفوه بالآلهة "قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ"؟ ٨٠ الأنعام أتخوفونني وأنا مع الله وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨١ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ" ٨٢الأنعام بظلم أي: (بشرك) من الذي عليه أن يخاف أنا أم أنتم؟ الموحد أم المشرك الذي يعبد مع الله آلهة أخرى؟ ... ويقول: "وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ٨٣ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" ٨٤... الآيات "فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ" ٨٧؟! ما ظنك بالله؟" ما ظن من يعصي الله وهو يعلم أن الله يراه ولو رآه أي مخلوق مهما كان تافهاً لا قيمة له لما تجرأ على المعصية أمامه ما ظنه بالله أجعله أهون الناظرين عليه؟! ما ظن من يشرك بالله شيئاً بالله؟ ما ظن من يدعو مَن هو دون الله ولا يدعو الله؟ "من يذهب إلى ميت ليقول له اشفني وعافني ما رأيه بالله؟ ألا يستطيع الله أن يشفيه ليلجأ إلى من هو دونه أم يحتاج الله إلى واسطة؟" ما ظن من يضع دينه في خدمة الملوك والسلاطين خوفاً منهم؟ ما ظنه برب العالمين؟ ما ظن من يظنون الرزق بيد العباد فيتركون الدعوة إلى الله خوفاً من أن يقطع العباد رزقهم ما ظنهم بالله؟ من يأكل من رزق الله ويتنعم بأنعمه ويُسيّر حياته

ودولته بشريعة غير شريعة اللّه بل ويحارب شرع اللّه والـداعين إليـه مـا ظنـه باللّه؟ من يحتكم إلى الطاغوت ويترك شرع اللّه مـن يظلـم ويطغـى ويفسـق ويتعالى على عباد اللّه في أرض اللّه؛ من يغش ويكذب ويفتري ما ظنه بـاللّه؟ ألم يعلم أن اللّه سبحانه قد طرد إبليس مـن الملكـوت الأعلـى وحكـم عليـه بالخلد في النار بتركه سجدة واحدة أمره بها فما ظننا باللّه وقـد تركنـا مئـات بـل آلاف الأحكـام التـي شـدد علـى فعلهـا "قُـلْ إن كَـانَ آبَـاؤُكُم وَأبْنَـآؤُكُمْ وَإخْوَانُكُمْ وَأزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أحَبَّ إلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِـي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِـأمْرِهِ وَاللّـهُ لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِـقِينَ" ٢٤ التوبـة "يَـا أيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إذَا قِيلَ لَكُـمُ انفِـرُواْ فِـي سَـبِيلِ اللّـهِ اثَّـاقَلْتُمْ إلَـى الأرْضِ أرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا فِـي الآخِـرَةِ إلاَّ قَلِيـلٌ ٣٨ إلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَـذَابًا ألِيمًـا وَيَسْـتَبْدِلْ قَوْمًـا غَيْـرَكُمْ وَلاَ تَضُـرُّوهُ شَـيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ" ٣٩ التوبـة؛ "يَـا أيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـواْ أطِيعُـواْ اللّـهَ وَأطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنكُمْ فَـإن تَنَـازَعْتُمْ فِـي شَـيْءٍ فَـرُدُّوهُ إلَـى اللّـهِ وَالرَّسُولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأحْسَنُ تَأْوِيلاً ٥٩ ألَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِـن قَبْلِـكَ يُرِيـدُونَ أن يَتَحَـاكَمُواْ إلَـى الطَّـاغُوتِ وَقَـدْ أُمِـرُواْ أن يَكْفُـرُواْ بِـهِ وَيُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ٦٠ وَإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلَى مَا أنزَلَ اللّـهُ وَإلَـى الرَّسُـولِ

رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا" ٦١النساء... وغيرها مما حفل به القران من البيان؛ فما ظننا بالله وقد احتكمنا إلى غير أحكامه ورضينا بأحكام الكفر ولم نغير؛ حتى أصبحت الأصوات تصدر بشكل طبيعي بحرب الله ورسوله من غير نكير!! فما ظننا بالله؟ أليس الله بعزيز ذي انتقام؟! بلى وربي!

"إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" ١٥٩ البقرة. لنتأمل:

يقول الغازي: "إن الذين يكتمون.. يكتمون فقط ولم يقل يحرفون أو يؤولون على حسب هواهم لم يقل يصدرون الفتاوى حسب الطلب لم يقل هذا بل اختار ما هو دونه إثماً فقال: يكتمون؛ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً؛ فأولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وكيف لا نلعن من لعن اللّهُ في كتابه؛ إلا الذين تابوا ولكن هل لهم من توبة؟ لقد اشترط عليهم شروطاً صعبة لتوبة نكاد نجزم معها أن لا توبة لعالم كتم أو حرف أو تلاعب في دين الله إرضاء لمن هم دونه وبيان ذلك أن العالم إذ يكذب على الله عالماً بكذبه وهو يجلس إلى قوم يحدثهم ويحرف الدين لهم ويصدقونه لجهلهم أو لشخصه ومكانته عندهم ثم يتركهم فيفشو الكذب ويدافع عنه الرعاع ويتبعه الغاوون وهو كذب والشرط الذي اشترطه عليهم ليتوب عليهم هو أن يصلحوا ويبينوا: "إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ

فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" ١٦٠ فكيف يبين وقد انتشرت كذبته في جنبات الأرض ولم تعد تقتصر على من حدثهم وكذب عليهم فكذبة العالم بلقاء مشهورة. لو كان العالم حين يضل يأخذ ضلاله معه حين يترك من كذب عليهم لهانت وليذهب في داهية لكن كذبته ستنتشر ليأخذ وزره ووزرهم معه إلى يوم القيامة قال عليه السلام: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ. صحيح مسلم.

لذلك عندما عدد الله الذنوب والجرائم تصاعدياً كالآتي: "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" ٣٣الأعراف "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ": أقل درجة – على عظمها- هي الفواحش ما ظهر منها وما بطن كالزنا والخمر والسرقة وذلك بمقارنتها بما هو أفظع منها وهو "وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ" مثل الاعتداء على خلق الله أي الظلم ولكن الذي هو أصعب منهما هو "وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا" كاتخاذهم آلهة من دون الله كالهوى والمال والنساء والسلطان والحاكم والأصنام... ولكن ثمة إثم وجريمة أصعب وأدهى وأنكى من عبادة الأصنام والشرك بالله وألعن من ذلك وهي: "وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ

مَا لاَ تَعْلَمُونَ" كقولك هذا حرام وهذا حلال بغير علم "وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ" ١١٦ النحل ويا ويل من يفتي بغير علم والأدهى منه أن يفتي كذباً على اللّه وهو يعلم أنه يكذب على اللّه فالمفتي بغير علم يكذب على اللّه والذي يعلم ويكذب ينصب نفسه إلهاً مع اللّه وهو الذي وصفناه بأنه أعظم من الشرك باللّه!!

لذلك قال اللّه تعالى "قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ" ٦٠ يونس؛"

يقول سيد قطب: "فركن الإسلام الأول أن نشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وهذه الشهادة معناها القريب إفراد اللّه- سبحانه- بالألوهية... وأولى خصائص الألوهية حق الحاكمية المطلقة الذي ينشأ عنه حق التشريع للعباد وحق وضع المناهج لحياتهم وحق وضع القيم التي تقوم عليها الحياة... وكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج لحياة جماعة من

الناس فقد ادعى حق الألوهية عليهم بادعائه أكبر خصائص الألوهية وكل من أقره منهم على هذا الإدعاء فقد اتخذه إلهاً من دون اللّه."[148]

""وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على اللّه الكذب وتنتظمهم جميعاً فما ظنهم يا ترى؟ ما الذي يتصورون أن يكون في شأنهم يوم القيامة!! وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجِبلّات الصلدة الجاسية"[149]

وفي قول الحق سبحانه فما ظنكم برب العالمين فيه حجة كاملة على البشر جميعاً في كل تصرف في حياتهم فوصف الرب سبحانه للعالمين فيه معنى الرب والرب هو المالك المتصرف السيد المربي لم يخلق العالمين (الخلائق) ليتركهم هملا –كما يقول سيد قطب- فهو يقول أيحسب الإنسان أن يترك سدى ففي كل شأن من شؤونهم رباهم ووضع المنهج لهم فعليهم إن خالفوه أن يتفكروا فما ظنهم برب العالمين ما ظنهم بالمنهج الذي وضعه رب العالمين لهم أم عندهم ما هو أفضل منه؟ فما ظنكم إذا رجعتم إلى ربكم وما حجتكم يوم لا يغني عنكم كيدكم شيئا ولا تنصرون!!

---

١٤٨) هذا الدين. سيد قطب ١٨

١٤٩) في ظلال القران سيد قطب ١٨٠٢/٣

# فصل: "وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ"

# "وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون"

# "إِنَّهُ ظَنَّ أن لَّن يَحُورَ"

# "أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ"

نتناول بالبحث ثلاث آيات من كتاب الله العزيز في موضوع الظن:

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٣٨ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ" ٣٩ القصص

وقال تعالى في الانشقاق "وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا" ١٥

وفي المطففين يقول الحق سبحانه "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" ٦

آيات لها دلائل في غاية الخطورة!! استكبار صريح وعلو في أرض اللّه على عباده وطغيان وظلم صرف أصحابه عن الحق فاستغرق أصحابه في متع الحياة الدنيا ونسوا الآخرة تماماً استحبوا الحياة حتى ظنوا أنهم لا يرجعون إلى اللّه!! ظنٌّ أوردهم موارد الردى والهلاك! وفيها دليل عقلي على وجوب قيام الساعة فليس من عاش في هذه الدنيا براً رحيماً مؤمناً ملتزماً متواضعاً هيّناً ليّناً مع عباد اللّه عزيزاً على الكفار، كمن طغى وبغى واستكبر وغش وخدع وكفر واستغرق في متع الدنيا وشهواتها أو كما في الأثر عن أحد الصالحين أنه سمع القارئ يتلو في قصة موسى مع فرعون "فَحَشَرَ فَنَادَى ٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" ٢٤ النازعات ومن ثم سمع آخر يتلو "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" ١ الأعلى؛ فقال: اللهم لا تسوي بين من قال سبحان ربي الأعلى وبين من قال أنا ربكم الأعلى.

كما أنه في هذه الآيات تثبيت لصفة العقيدة السياسية للعقيدة الإسلامية من أول أيامها بوصفها جاءت لترعى شؤون الناس وجاءت لفضح الطغم الحاكمة المتسلطة على رقاب الضعفاء وجاءت لتحرض المظلومين على الانتصار!!

عندما يتحدث معظم الدعاة عن الفترة المكية في دعوة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فإنهم يتحدثون عنها على أنها اقتصرت على أمر العقيدة والجدل فيها لتثبيت أركان التوحيد ولم تتطرق إلا نادراً لقضايا التشريع والصراع السياسي وشؤون الحكم ولسنا نسلم بدقة هذا الفهم أبداً!

صحيح أن التوحيد هو الدين كله ومنه يتفرع التشريع وكل قضايا الدين الأخرى إلا أن الشكل الذي أخذته هذه الدعوة كان من أول يوم هو الشكل السياسي باعتبار السياسة هي رعاية شؤون الناس فالعقيدة من أول يوم أخذت شكل رعاية الشؤون وتسيير حياة الناس بناء على مفاهيم منبثقة عن العقيدة فكانت سياسية بخلاف ما نعلمه عن النصرانية الحالية التي لا تتدخل في شؤون الرعية!

كما أنها صبغت أسلوب الدعوة بالأسلوب السياسي أي أن طريقة الإسلام في الدعوة طريقة سياسية فقد اصطدمت بالأفكار المتحكمة في المجتمع صداماً ينفيها ويهدمها على رؤوس أصحابها ببيان عوارها وفضح سخافاتها وفضح زعامات مكة فوصفت أحدهم بالعتل الزنيم وأبا لهب فضحته بهجاء مرير من أول يوم اعترض طريقها وفضحت الوليد بن المغيرة والأخنس بن شريق وأبا جهل ولم تترك من هؤلاء الزعماء أحداً اعترض

طريقها إلا هزّأته ليسقط من أعين الضعفاء المضبوعين بجاهه وسلطانه لتفتح أعينهم على الحق.

فإن لم تكن هذه هي السياسة في أرقى أنواعها فما هي السياسة؟؟

وهذه سنة اللّه في الدعوات فموسى كذلك فضح فرعون "قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا" ١٠٢الإسراء

وقد فصلت في هذه الآية الأخيرة في كتاب الإيمان الذي أشرت إليه، فما عند فرعون هو اليقين والعلم بصدق النبي عليه السلام، ولكنه طغى وتجبر وآثر الدنيا، وما زال الطغيان به حتى غير ما بقلبه من العلم إلى العداء السافر الذي أرداه، وفي هذه الآية لما لم يقده علمه إلى الحق قاده إلى الثبور.

وما من نبي إلا كان صراعه الأكبر مع الطغم الحاكمة لأنها هي التي تصرف العامة عن الحق بجاهها ونفوذها وسلطانها ومن أجل ذلك شرع الجهاد ليكسر الحواجز التي تقيمها الدول في طريق وصول الإسلام إلى العامة من رعايا تلك الدول.

فطريقة الدعوة إلى الإسلام اتخذت الشكل السياسي من أول أيامها في مكة المكرمة وركزت هذا الشكل في طريقتها إلى يوم الدين.

"باستقراء السور المكية والآيات التي نزلت فيها نجد المواضيع التالية:

١. موضوع العقيدة: إثبات وحدانية اللّه من جهة الألوهية أي توحيد العبادة والصفات وبعض مفاهيم الربوبية كالنفع والضر وإثبات أن هذا القران كلام اللّه وإثبات نبوة النبي الأمي عليه السلام وإثبات البعث والنشور...الخ.

٢. الصراع الفكري العقدي وتضمن الرد على مشركي العرب على اختلاف مذاهبهم وعلى اليهود والنصارى وتسفيه أحلام المشركين وتعريتها أمام المنبهرين بها.

٣. الكفاح السياسي: وتضمن التصدي لأئمة الكفر وقادة المجتمع وفضحهم وبيان فسادهم الفكري والأخلاقي وطغيانهم وجورهم وظلمهم.

٤. التصدي للمارسات الفاسدة والعادات السيئة كوأد البنات والتطفيف في الكيل.

٥. بناء الشخصية الإسلامية وتقويتها بأفكار العقيدة والصبر على الابتلاءات وربطها بالآخرة.

٦. القصص والأمثال لتثبيت قلب الرسول الكريم عليه السلام والمؤمنين ولبيان أن ما يلاقونه من ظلم وتعنت إنما هو سنة اللّه في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلا"[١٥٠]

وهذه الموضوعات كلها منبثقة من العقيدة من التوحيد بل هي معالم يقوم عليها التوحيد. ما يهمنا الآن بصدد الآيات التي نحن بصددها هو أن آيات المطففين المكية تلفت الانتباه إلى معاملات تقوم عليها العلاقات في المجتمع المكي (مجتمع الجاهلية) وهي من السور المكية التي نزلت بعد جولات من الصراع الفكري العقائدي بين التوحيد والشرك نهجت نهج كثير من الآيات التي فضحت قادة الشرك في مكة." وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" ٣ وطبعاً لو كان كيلهم في الشق الأول لحق لهم يستوفونه لما عاب القران عليهم ذلك اللهم إلا إن قدر على أن معنى ذلك أنهم لا يعامِلون الناس كما يحبون أن يعامَلوا ولكن المعنى الأقوى هو أن في الآية إشعار بأنهم يستغلون سلطانهم بالبغي على الضعفاء من جانبين جانب الكيل الذي لهم وجانب الكيل الذي عليهم كما يُقال كانوا كالمنشار يقطع في غدوه ويقطع في ذهابه لذلك عابهم في كلا الكيلين وتوعدهم.

---

١٥٠) نهج القران الكريم في الدعوة. حافظ صالح. ٤٧ بتصرف

إذن فثمة جشع واستغلال سلطة للتسلط على الفقراء والبغي على الآخرين بشكل عام وهذا من الأعمال السياسية للحزب الذي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الخير – حزب محمد بن عبد الله عليه السلام ولا يقتصر هذا الفضح لجشعهم وخبثهم بل إنه بعد ذلك يفضح عقولهم وعقائدهم فهم حتى لا يظنون علاوة على أن يستيقنوا قضية البعث والحساب!!

وهذه فضيحة أنكى وأمرّ من الأولى فأي إنسان هو هذا الذي يعيش في هذه الدنيا دون أن يتساءل عن الغاية من وجوده فيها وعما وراءها أي لا يحاول حل العقدة الكبرى في وجود الكون والإنسان والحياة وما قبلها وما بعدها أي في مسألة العقيدة!! أولئك كالأنعام بل هم أضل!! تقول عنهم الآيات تصور أنهم وجدوا أنفسهم في هذه الدنيا ورأوا الموت يقضي على كل نفس فيها ورأوا نظام الكون ورأوا ما رأوا مما لا مجال لتعداده من الآيات الدالة على الله وعلى عظمته سبحانه رأوا ما يفعل الظالمون في هذه الدنيا ورأوا القهر الذي نغص عيش المقهورين ولم يتساءلوا بعد ذلك عن الحقوق أتضيع بموت الظلمة؟ أوتهدر بموت المظلومين؟ فما الغاية من وجود الإنسان إذن في هذه الدنيا؟ أخلقه الله عبثاً بلا غاية؟ تعالى الله الحكيم عن ذلك علواً كبيراً!! أوليسوا بالأنعام؟!

هذا العمل السياسي الهام في فضح سادة مكة إلى جانب كشفه للغطاء عنهم ونزعه أوراق التوت عن عوراتهم لكيلا يغتر الضعفاء والمخبولون بهم إلى جانب ذلك فالآيات تحمل رسالة عظيمة قوية ذات طابع سياسي ثوري إلى هؤلاء الضعفاء مضمونها: كيف تتركون من هم دون الأنعام عقلا والذئاب جشعاً يتحكمون بكم ويأمرونكم وينهونكم ويسرقونكم ويمنعونكم من هذا الدين العظيم الذي جاء ليخرج الإنسان من عبادة الإنسان إلى عبادة رب الإنسان!!

ولربما ينطبق هنا عليهم من قبيل السخرية بهم القول بأنهم حتى لم يحتاطوا لأنفسهم حيطة الظان؛ وذلك لا من باب دعوتهم إلى الظن الذي بيّنا كم ذمه القران وذم أهله!!

فلا يقبل الله من عبد ظناً ولا جهلا بل لا بد من اليقين كما لا بد من العلم! ففي الظن هنا استهزاء بهم في سؤال استنكاري فيه سخرية مريرة بهم لأنهم غفلوا عن قضية هي أعظم قضايا الوجود التي على الإنسان أن يتفكر فيها ألا وهي البعث والنشور والحساب!! وتفضحهم الآيات أيضاً بأن ذلك كله والغفلة هذه ما هي إلا نتاج طبيعي لاستغراقهم في شهواتهم وفي جهلهم وطغيانهم "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ" ١٤ تراكمت على قلوبهم طبقات فوق طبقات حجبت عنهم نور الحق فكانوا في أشد حالات الكفر؛ الكفر الذي لا يخالطه حتى ظن صغير بإمكانية حدوث البعث

والنشور وبالفعل كان استغرابهم فكرة البعث كبيراً وهذا هو جو الظن في المطففين لا معنى معه للقول بأنه يطلب منهم الظن بالبعث أو الاحتياط له كما يفعل من يظن!!

وعندما يختلي فرعون بهامان الذي يعلم أسراره كذلك عندما يخلو إلى نفسه نراه يظن موسى كاذباً وفي ذلك نلمح نوعاً من الإعجاب بما عند موسى وعدم الجزم بكذبه فيقول "وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ" (كيف لا وقد قال تعالى عن مكنون نفسه على لسان موسى: "لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ" أما هؤلاء الكفرة في مكة فحتى مجرد هذا الظن الذي ظنه فرعون استكبروا عليه!! أي إنكار هذا!!

وسببه واضح هو أن مشركي مكة من علية القوم أدركوا أن ما جاء به الرسول عليه السلام ما كان ترفاً فكرياً ولا وازعاً يسكن أعماق الضمير يستيقظ حيناً ويدخل في البيات الشتوي أعواماً إنما جاء بعقيدة حيّة تُسَيِّر الحياة وتمنعهم الظلم الذي كانوا يعيشون به شأنهم شأن من أخضع المسلمين في هذا الزمان لأعدائهم واستأسد في حرب كل صوت يعلو ليعيد للمسلمين مجدهم! فالمطففون في هذا الزمان يقاسمونك رغيف الخبز من غير أن يمر بميزان ولا حول ولا قوة إلا بالله! لذلك حارب أسلافهم الإسلام وعلموهم أن حياتهم بالقضاء على دعاة الإسلام!

الرسالة القادمة من الانشقاق "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ" ٦

ويا لها من آية!! تعجز كل عقول البشر أن تصف بمثل هذه البلاغة والفصاحة حياة الإنسان والغاية منها مع تحذير شديد اللهجة له إن بغى أو ظلم رغم أنه سيجد في الدنيا ما يدفعه إلى الظلم آلاف المرات في كدحه هذا. فاللطيفة الأولى أن أنفاسه معدودة وسكناته وحركاته وسيلاقي ذلك كله بلقائه ربه، وفي استعمال "رب" هنا بلاغة أخرى فالرب هو المسيطر الذي عليه أن يهابه، والمربي الذي يضع القوانين الكفيلة بالتربية ليسير العبد وفق منهجه القويم فلا يضل ولا يشقى والرب هو الذي يعيل فلا يجعل الحياة همه ما دام الرب هو الذي يعيل ...الخ وفي استعمال "إلى" إعجاز آخر فالحياة تسير باتجاه هذا الرب وملاقاته فكل لحظة تمر تقرب الموعد ولكن الإنسان يمعن في غفلته من جهة وتزداد مسؤولياته وهموم حياته فيزداد كدحاً من جهة أخرى وكلاهما يبعده عن "**إِلَى رَبِّكَ**"!

وفي الفاء إعجاز آخر فالملاقاة فوراً تحصل له بانتهاء حياته فلا يتوهمن أن الحساب بعيد فمن كان بقي له في هذه الدنيا يوم أو بعض يوم فثم حسابه؛ ولا تنسى "إنّك" ففي التأكيد ما نجده في حياة حتى المرفهين فليس الكدح فقط في تحصيل المال ومتع الدنيا ولكن الصراع على الدنيا والتكالب عليها والهموم والمكائد كلها تقلب حياة الإنسان كدحاً يلاقيه!

"يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ"! وهذه الآية من أخطر ما وُصفت به حياة المؤمن فهو كذلك يكدح، يعرق لا ينام الليل يتفكر يدعو يصبر يُؤذى يُحارَب يُضيّق عليه مع أنه صاحب الحق وفي المقابل يأتي الكافر مسروراً إذا ما نال حظاً من الدنيا ظاناً أنه لن يحور فلا هو علم الغاية من وجوده في الدنيا ليكدح كما المؤمن ولا هو قنع بما قسم له فيرضى فهو يكدح بلا فائدة! وظنه أن لن يحور كظن صاحب الجنة في الكهف الذي لا يظن الساعة قائمة ولكن إذا كان ثمة ساعة فإن له فيها الحظ الوافر والحظوة الكاملة!!

قال ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القران: "ما كنت أدري: ما يحور؛ حتى سمعت أعرابية تدعو بُنيّة لها: حوري أي ارجعي إلي؛ فالحور في كلام العرب الرجوع ومنه قول الرسول عليه السلام "اللهم إني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر" يعني الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة؛ وقوله تعالى "**بلى**": أي ليس الأمر كما يظن بل يحور إلينا ويرجع"[١٥١]

وفي هذه الآية تحليل نفسي لنفسية الكافر يخطر بباله أحياناً انه قد يكون هنالك رجوع إلى الله ولكن يسارع إلى نفيه واستبعاده من حساباته فيظن أن لا رجوع!!

---

١٥١) [الجامع لأحكام القران. القرطبي١٩/٢٧٤]

أي يغلب بشكل واضح أنه لا رجوع فلا ينشغل ولو قليلا بالتفكير بالبعث! وهذا الظن وإن كان في ناحية الظن السلبي بالرجوع إلا أنه مرحلة متقدمة قليلا على مشركي مكة الذين حتى لم يظنوا لا بالحور ولا بأن لا حور!

وقد أردى هذا الظن هذا الكافر ليأخذ كتابه من وراء ظهره؛ ولعل من ذهب إلى أن من يأخذ كتابه وراء ظهره هو الذي يحاسب ويعذب ثم يخرج من النار لعله جانب الصواب فهذا الوصف جاء بعد وصفه بأنه ظن أن لن يحور وهذا كفر والله تعالى أعلم.

# فصل: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ

وبعد أن يذكر الله قصة سبأ وعقابه لهم يقول في سبأ "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٢١ سبأ.

إلى جانب ما ذكره سادتنا المفسرون في هذه الآية أحب أن أبرز معنى يجول في خاطري حول "ظن إبليس" وإمكانياته تجاه هذا المخلوق المكرم الذي نفخ الحق سبحانه فيه من روحه.

إن إبليس يظن أن بإمكانه غواية هذا الإنسان فلماذا يظن؟ ولماذا فرح بإغواء غالبية سبأ (إلا المؤمنين وهم قلة) وسجل هذا النصر عليهم؟!!

أقول والله أعلم: إن الله سبحانه أودع في الإنسان العقل وهو سلاح خطير جداً لا يقوى إبليس عليه إذا ما استخدمه الإنسان كما ينبغي وقد يكون كذلك سلاحاً يستخدمه إبليس نفسه ضد مالكه! ولكن عندما علم إبليس ما عند الإنسان من سلاح خطير ظن أن بإمكانه غواية الناس وصدق ظنه مع هؤلاء البغاة ومع من هم على شاكلتهم من المستمتعين بالدنيا الناسين حق خالقهم ورازقهم وبعد تسجيله هذا النصر يبرز هو أيضاً أنه غلبهم وما له عليهم من سلطان فهم بذلك في غاية الجهل فكيف لمن لا

سلاح له أن ينتصر على من لديه أعظم سلاح؟ وهذا يدل على مدى إضعاف شهوات الإنسان لسلطة عقله فتتغلب عليه ليصبح من لا سلاح له قادراً على هزيمته مسيِّراً له!!

ولا أريد هنا الخوض في موضوع تلبس الشياطين والجن للبشر وصرعهم لهم فالآية توضح أنه ليس له عليهم سلطان فكيف نوفق بين هذا وتسييره لمن يتلبسهم بحيث لا يقدر أحدهم على معرفة ما يحصل له؟ علماً بأن المس هذا لا يمكن أن يصيب المؤمنين وقد عبر الله عن ابتلاء عبده أيوب بأنه مس من الشيطان ليكون للمس معنى آخر غير الذي فهمه الناس من آية الذي يتخبطه الشيطان من المس – في الربا – كذلك فالمس سابق لتخبط الشيطان في آية الربا، أي أن الشيطان يتخبط الإنسان الممسوس، كما يفهم من تفسير المهندس أبي الرشتة لسورة البقرة، ففي الآية إذن دعوة للبحث في هذا الموضوع ليس هنا مجالها.

# فصل "وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً"

يتبقى من صلب الموضوع الذي نبحثه آيات سورة الجن المحتوية على الظن:

"وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا" ٧الجن ويقول الحق سبحانه وتعالى في السورة نفسها "وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ١١ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا" ١٢ الجن.

الجو العام للسورة يتناول المواضيع التالية:

١. بيان عقائد الجن وتصوراتهم قبل إسلام نفر منهم وتبليغهم الدعوة ومقارنتها بعقائد مشركي مكة خاصة وبيان القواسم المشتركة بينهما.

٢. بيان العلاقة بين الجن والإنس وتصحيح مفهومها بناء على العقيدة الإسلامية الصحيحة مع بيان بعض طبائع الجن وأحوالهم.

٣. نفي أن يكون الرسول عليه السلام قد أخذ شيئا عن الجن بل العكس إن الجن لم يكونوا قبل ذلك يعرفون بخبر هذا النبي الكريم عليه سلام اللّه ولا هو درى باستماع نفر منهم القران إلا بعد أن انصرفوا وأنذروا قومهم وأخبره اللّه بالوحي عن هذه الأحداث.

٤. بيان الطريقة التي من استقام عليها فاز ونجا ومن حاد عنها خاب وخسر وأساسها التوحيد.

٥. الضر والنفع والخير وما إلى ذلك كله بيد اللّه وحده وعلم الغيب لا يعلمه إلا اللّه حتى الرسول نفسه صلى اللّه عليه وسلم لا يعلم منه إلا ما يبلغه اللّه به.

٦. الخطاب إلى الرسول المصطفى بأن ينسب إلى ربه وحده جل وعلا أمر النفع والضر وأنه عليه السلام لن يجد من يجيره من اللّه إن قصر في أداء الأمانة –ونشهد أنه عليه السلام أداها على أكمل وجه جزاه اللّه عنا خير الجزاء- وما في ذلك من تكليف صارم له عليه السلام من ربه يتضمن وعيداً وتهديداً لمن ظن أنه يعجز اللّه في الأرض أو يعجزه هرباً.

٧. العقائد المبنية على الخرافات أو على الأهواء أو على الضلالات أو حتى التي يتبع أصحابها عقولهم وما تهديهم إليه دون الأخذ بمنهج اللّه وبالتصور الذي كون مصدره إلهياً عن الكون والإنسان والحياة كلها

عقائد فاسدة يجب التبرؤ منها وتركها بل ونبذها فالاعتقاد يجب أن يكون عقلياً نقلياً أساسه النقل الصحيح والهدى الذي جاء من اللّه نتذكر هنا قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه في إقامته الحجة عليهم في عبادتهم النجوم وتقلبه في استدلاله من رب إلى رب حتى أثبت لهم أن هذه ما هي بآلهة تعبد ووضح لهم في نهايتها أن الهداية يجب أن تكون من عند اللّه مضافة إلى الفكر المستنير عن الكون والحياة.

نلمس في أسلوب السورة نوعين من الأداء أولهما يتحدث عن الماضي مشوباً بالأسى والندم هو ما شعره الجن إذ أسلموا بتذكرهم ماضيهم ويتناول عقائد الجن وتصوراتهم قبل إسلامهم يبدأ من قول الحق سبحانه "وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا" ٧

والنوع الثاني يتحدث عما آل إليه حالهم بعد الهداية أو بصيغة تثبيت حقائق عقدية أو منهجية صائبة تبين ما استجد عندهم من أفكار صحيحة أو يتحدث بنفس الأسلوب عن قضايا التوحيد من نفع وضر واستعانة واستعاذة وما إلى ذلك باللّه وحده "قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ٢٢ والآيات التي تتحدث عن ظن الجن بأمور معينة جاءت من النوع الأول بصيغة الماضي أي تتحدث عن

عقائد كانت لديهم منها: ظنهم قبل إسلامهم أنه لا يجرؤ أحد على الكذب على اللّه أبداً لذلك عندما ادّعى سفيههم (ولعله إبليس وقد يكون أي مشرك فإن المشرك باللّه سفيه، وأي سفيه!) ادعى أن للّه صاحبةً وولداً فكان أن صدّقوه لعدم توقعهم أن يتجرأ أحدٌ على أن يكذب على رب العزة وفي قوله تعالى "وَأَنَّا ظَنَنَّا أن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا" إشراك للإنس في هذا المعنى ليشملهم الأمر وتعمهم النتائج المترتبة من أن المشرك من الإنس كالمشرك من الجن عليه أن يتبرأ من هذا الوهم ويثوب إلى رشده.

نقف هنا وقفات هامة أمام هذه الآية "وَأَنَّا ظَنَنَّا أن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وكذلك قوله تعالى"وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا" وفي كلا الآيتين يشترك مشركوا مكة مع الجن في هذه التصورات الفاسدة فالحجة قائمة عليهما معا.

أولا: نستنبط من الآية الأولى معرفة الجن باللّه وتعظيمهم له سبحانه لذلك كان يغلب على ظنهم أن لا أحد يجرؤ على الافتراء عليه، ومثلهم مشركوا مكة كانوا يتصورون أن اللّه أعظم وأجل من أن يبعث رسولا، "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً" ٩٤الإسراء، أو من أن يعبدوه من غير وسائط (الأصنام) "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" الزمر؛..الخ

ومن هذا نصل إلى قضية هامة وهي ضرورة ربط الاعتقاد بمنهج رباني يحميه من الضلال والتصورات الفاسدة فلا يقع المرء عندها فريسة أوهام تصرفه عن الحق.

ثانياً: أن الجن عند سماعهم للقران كانوا أصحاب قلوب نظيفة وفطر سليمة أهلتهم للإيمان والانطلاق للدعوة وصحيح أن بعض أهل مكة كانوا كذلك كساداتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم عليهم رضوان ربي إلا أن غالبية أهل مكة كانوا أصحاب قلوب ران عليها حب الدنيا وطمس أعينها عن فهم الحق أو عن اتباعه أي كانوا متكبرين! والكبر أصل أكثر المعاصي والجهل!!

ثالثًا: أن الفرق بين ظن الجن وظن المشركين (اعتقادهم المبني على الظن) أن ظن الجن كان مبنياً على جهل وغرور غرهم فلما جاء الحق ارتدعوا ونفضوا عنهم غبار الجهل والعمى فأبصروا؛ وأما ظن المشركين فكان ركامًا متحجراً يجثم على قلوبهم مادته الكبر والتكبر وحب الدنيا فتبلدوا في وجه الدعوة وجاهروها العداء وناصبوا أهلها الإيذاء.

رابعاً: أن لهؤلاء الجن حس مرهف وذوق رفيع وقلوب منفتحة منشرحة ما أن لامسها الحق حتى استقامت على الطريقة وأن لأهل مكة الذوق الرفيع فقد علموا واستيقنوا أن هذا القران ليس شعراً ولا سحراً ولا كهانة (كالوليد

بن المغيرة مثلا) ولكن استكبارهم وعنادهم أرداهم فلم يتبعوا الحق حين عرفوه بل استكبروا.

خامساً: أن الجن لم يتفكروا ملياً في أمر اعتقادهم قبل سماعهم الحق فهم كانوا يظنون أن لن يبعث الله أحداً مثلا وهذا التصور يدل على أنهم لم يضعوا قضية الاعتقاد موضعها الصحيح فاكتفوا بالظن في قضايا مصيرية وتابعوا حياتهم أي أنه لم تكن لديهم عقائد تجعل استبدال عقيدة الحق بها أمراً صعبا على أنفسهم بل غلب على ظنهم أن لا أحد يفتري الكذب على الله مثلا وهذا يدل على أنهم لم يفهموا الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق ومن كانت هذه حساباته فنجزم أنه لا يتفكر في الكون والحياة ليتوصل إلى حل العقدة الكبرى ليدرك معنى وغاية وجوده في الكون!

أما أهل مكة فدين الآباء والأجداد والأحلام والكهانة والتنجيم كل ذلك كان مسيطراً على عقولهم فصرفهم عن الحق وأبعدهم عن منهج الله وهذا يفسر لنا سهولة اقتناع الجن بالحق واتباعهم له وصعوبة ذلك عند الإنس.

أنوّه هنا إلى أن هذا الفهم تكون لدي من خلال فهمي لآيات سورة الجن أما أن يكون لدى كفار الجن عقائد فهذا أمر آخر إذ تذكر السورة

الكريمة أن هنالك قاسطون من الجن كانوا لجهنم حطباً لكن هذا حال من أسلم.

أما قولهم "وَأَنَّا ظَنَنَّا أن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا" فيكشف لنا عن ظن آخر لديهم وهو أنه حتى مع كثرتهم وقوتهم وقدراتهم فإنهم كذلك يظنون أن الله محيط بهم قادر عليهم لا يعجزونه؛ أما الكفار فلديهم تصور آخر لذلك كان الخطاب الموجه إليهم يحمل تهديداً يناسبهم "وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ٢٣ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا" ٢٤

يقول سيد قطب: "فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ.

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين القلائل معه فسيعلمون حين يرون ما يوعدون –إما في الدنيا وإما في الآخرة- "مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا"... وأي الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل!..

نعود إلى مقالة الجن فنجدهم يقولون "وَأَنَّا ظَنَنَّا أن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا" فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها ونجد القصة تمهيداً للتعقيب فيجيء في أوانه وموعده المطلوب."[١٥٢]

نخلص إلى أن ظن الجن في الأمور التي ظنوها كان ناتجاً عن جهل وقلة إعمال للفكر للخلوص إلى الاعتقاد الحق الصحيح المبني على المنهج الرباني ولكنه لم يكن حاجزاً بينهم وبين تقبُّل الدعوة والدعوة إليها أما المشركون فالحواجز عندهم إسمنتية منيعة! لذلك سارع الجن إلى نفض غبار الظن عنهم وأوهامه ليتبعوا الحق.

ولما كان القصص القرآني للعبرة في واقع الحياة فلا بد من الاستفادة من هذه المقارنة بين عقائد الجن قبل الإسلام وعقائد مشركي مكة لنستفيد منها في أسلوب دعوتنا وطريقة تعاملنا مع المجتمعات والأفراد فمثلا هذا الجهل الفظيع المستشري في الأمة هذه الأيام من جراء وجود فكرة الديمقراطية بينهم وظنهم أنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ماذا سيحصل لهذه الفكرة الغبية لو نزع المفكرون عنها أوراق التوت التي تستتر خلفها ليبصرها المسلمون على حقيقتها كما أبصروا أختها الاشتراكية؟

---

١٥٢) [في ظلال القران. سيد قطب٦/٣٧٣٧].

ما أحوج المسلمين الآن إلى اليقين بعقيدتهم بعلمهم بغيرها من الأفكار ليدركوا ما عندهم من عقيدة عقلية توافق العقل وما عند غيرهم من أوهام لا ترقى للنظر فيها لولا أن أصحابها أصحاب سلطة يستميتون في الانتصار لها ولترويجها ولا حول ولا قوة إلا بالله.

# فصل: الشواهد الشعرية

كما أن المفسرين إذ وقفوا أمام الآيات التي اشتبه عليهم أن الظن فيها بمعنى اليقين فأولوها على أساس أن الظن في الشعر جاء بمعنى اليقين فإننا نستطيع بيان أن الظن الوارد في هذه الأشعار لا يمكن أن يكون معناه اليقين وإلا لضعف البيت وتردى إلى معان سقيمة لا تليق بالشعراء الذين قالوها.

ولنلحظ ما للفظة الظن من طبيعة خاصة لا تتوفر في الشك ولا في اليقين ليسهل علينا شرح البيت والأبيات التي تليه ولنسجل هنا ما للظن من علاقة خاصة بالنفس ومشاعرها وبالقلب وتقلباته وبالشعراء وظنونهم التي توقد في أنفسهم جذوة الشعر المستعرة وهي بذلك أبعد ما تكون عن أن تكون لفظة معجمية يُبحثُ لها عن معنى قاموسي نتوقف عنده وقد لمسنا كثيرا في الآيات السابقة أن وجود الظن في السياق أثراه ومنحه آفاقاً وآفاقاً رحبة تتسع لأفهام متعددة تبعاً لما يحسه كل من كانت له تجربة متشابهة تشترك مع الحال المذكورة بشكل أو بآخر أو كان له نصيب من معاناة تلمسها ظلال الظن.

وهنا تكمن العظمة التي تميز النصوص الراقية عن الموغلة في السطحية فالنص الفني يكون أعظم كلما اتسع لأفهام أكثر وغطى مساحات

أوسع من نفوس المتلقين وهو بذلك يتجدد كلما قرأته الأذهان وتفكرت فيه وقد يفهمه متلقيان بطريقتين مختلفتين يجادل كل منهما عن فهمه ويجد له البراهين وليس المجال هنا للاستطراد في هذا الموضوع الذي يعرفه كل من يتعاطى الأدب والنقد الأدبي وإن كان من واجب المفسرين – فيما أرى- أن يراعوا هذا الجانب الهام لدى تناولهم لمثل هذه النصوص فلا يتوقفوا عند حدود التشبيه وأركانه مثلا ليروا بلاغة النص من خلال قواعد بلاغية عامة لا تميز بين بليغ وأبلغ ولا يتوقفوا عند المعاني القاموسية بل عليهم أن يعيشوا النصوص روحاً ومعنى ليجدوا ما أثراه اللفظ بوجوده في ضمن سياق متسق فني فريد.

الأمر الآخر المتعلق بالظن هو أثره الشديد على النفس فلنتصور مثلا حال طالب ينتظر نتيجة امتحان مصيري بعد أن بذل جهده فتتنازعه آمال النجاح وما يخالطها من أحلام بالآتي لتأتي الظنون باحتمال الرسوب لتجتاح كيانه الهموم ولتجثم على صدره أفكار قاتمة عن الآتي وأثر ذلك الفشل على مجريات حياته المستقبلية وعلى موقفه من نفسه وموقف الناس منه فإذا ما جاء النجاح كانت له فرحة مضاعفة ضِعفٌ جاء فرحةً بالنجاح ومطابقته للأحلام والآمال وضِعفٌ لتنحي الفشل وانقشاع الغيوم المتلبدة التي كانت لتمطره بمطر أسود لو رسب.

المثال الثاني الذي يهمني إيصاله للقارئ اللبيب هو الآتي: تخيل مثلا أن أمّا قد أضاعت ابنها الغر ولم تعرف لـه مكاناً فما هو فعل الظنون بنفسها؟ ستتقلب على جمر الأفكار والمخاوف حتى تحترق روحها: تراه كذا؟ تراه كذا! وكل ظن يجول أفق خواطرها يضاعف أساها ويكاد يودي بها وما أن تأتيها بادرة أمل حتى يهاجمها ظن آخر وأفكار أخرى سوداء تشيب لها وهي في غير وقت مشيبها! فهل إذا علمت هذه الأم أن ابنها ميت يكون حالها أرحم أم والظنون تجتاح كيانها؟ إنه الظن الذي يفتك بالنفس والذي وصف بأنه أقوى المخلوقات إذ أنه الأب الشرعي للهموم! فمثلا قول دريد بن الصمة:

فقلتُ لهم ظُنّوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ　　　سَراتُهُمُ في الفارسيِّ المُسَرَّدِ

غاية ما وصل إليه من شرحه هو قوله: وإنما يخوف عدوه باليقين لا بالشك!!.

يقول العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله في تحقيقه لتفسير شيخ المفسرين الطبري: "في الهامش عن بيت دريد: الأصمعيات٢٣؛ شرح الحماسة ٢:١٥٦؛ مجاز القران لأبي عبيدة ٤٠ وقبل البيت برواية الأصمعي:

وقلت لعارضٍ وأصحاب عارض　　　ورهط بني السوداء والقومُ شُهَّدي

علانية ظنوا بألفي مدجج　　　سَراتُهُمُ في الفارسيِّ المُسَرّدِ

وهذا الشعر قاله في رثاء أخيه عبد الله بن الصمة وهو عارض المذكور في شعره؛ المدجج: الفارس الذي قد تدجج في شكته أي دخل في سلاحه، كأنه تغطى به؛ والسُّراة: جمع سرى، وهم خيار القوم من فرسانهم؛ والفارسي المسرد: يعني الدروع الفارسية، والسرد: إدخال حلق الدروع بعضها في بعض؛ والمسرد: المحبوك النسج المتداخل الحلق؛ ينذر أخاه وقومه أنهم يلقون عدوا من ذوي البأس قد استكمل أداة قتاله"[١٥٣]

إذاً فهو هنا يحذر قومه حسب هذا الفهم ينذرهم من عدو استكمل عدته ليتأهبوا له بعدة مشابهة بينما في لسان العرب يقول أنه إنما يخوف أعداءه!! باليقين لا بالشك!

على كل فهي روايات وأفهام والشعر يصعب تحديد مراد قائله على وجه الدقة وإلا تحول خطباً حماسية لا ينطبق عليها مسمى الشعر وإن كانت موزونة مقفاة!

ما يهمني هنا هو أداء فعل الظن في هذا البيت سواء أكان يخاطب عدوه أم أخاه فالفهم بأن التخويف باليقين لا بالشك وجعل ذلك أساساً لفهم

---

١٥٣) تفسير الطبري. تحقيق محمود محمد شاكر. طبعة دار المعارف ١٨/٢

البيت يدل على أن الشارح ليس بشاعر وإنما يفهم من الشعر المعاني السطحية التي تطفوا على سطح الألفاظ!!

ولا عجب في ذلك ولا انتقاص لقيمة ذلك الرجل العلمية فلكلٍّ علم وفن أهله فقد ترى عالم الحديث المبدع في علمه ليس بنفس القوة في الفقه مثلا وهذا لا يحط من قدره.

ولنبدأ بصياغة البيت بالصيغ التالية: فقلت لهم شكوا بألفي مدجج؛ تيقنوا؛ ظنوا.

ففي الحالة الأولى لا يوصف البيت إلا بالتهكم والضعف فلا يبعث الشاعر الهمة في نفوس قومه لملاقاة عدو بقوله: شكوا! وأما تيقنوا: فما الذي تؤديه من معنى؟ إعلموا بأن ألفي فارس مدجج سيأتيكم! ينتهي الخبر عند هذا الحد ويتفكر القوم بالعدد الذي سيأتيهم مدججا بالسلاح وحسب؛ أما بقوله: ظنوا فإن الشاعر يُحلّق عاليا في استنهاض هممهم بأن يتفكروا في فعل ألفي مدجج يأتونهم: ظنوا؛ ظنوا فِعلهم فيكم في نسائكم وأموالكم وهم العدو المدجج المدرع بالدروع المنتظمة حلقة في داخل أختها فلا سهامكم ولا رماحكم بالتي ستنصركم إن لم تحملوا الأمر على محمله؛ ظنوا وكلما استولت عليكم الأفكار التي يستطيع خيالكم أن يصل إليها فعليكم أن تتأهبوا بعدة تفوق عدتهم لتحموا أعراضكم وأموالكم!

ظنوا: وأطلقوا لخيالاتكم عنانها لترى الهوان والذل الذي سيلحق بكم إن تركتموهم يتفوقوا عليكم بعدد أو عتاد! وكلما عظُم تصورك لقوة عدوك واستعداداته وكانت لديك القدرة على مجابهته كلما اتخذت احتياطاً أليق يقيك شر عدوك وإنما كانت الاستهانة بالعدو في أغلب الأحيان السبب الرئيس في الانكسارات والتاريخ حافل بالعبر فهو يحذر قومه بأن عليهم حمل الأمر محمل الجد وأن عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم لمواجهته! ولا يقال هنا أنه يثبط من عزائمهم؛ لأنهم سيُهاجمون في عقر دارهم فلا بديل عن الاستماتة لدفع الذل فلا مجال هنا للخضوع ولا بديل عن الاستعداد خاصة وأن قبيلته من أقوى القبائل وأشدها بأسا في القتال.

أما لو كان الخطاب موجهاً لعدوه فإنه يثبطهم ويلعب على وتر الحرب النفسية والتي تشكل عصب الحرب الناجحة في كل زمان والأمر لا يحتاج إلى إطناب في الشرح. فاللعب على وتر الظن هو أداة الشاعر في إيصال فكرته وفي استفزاز الخيالات واستنفار الهمم والعلاقة أكثر من وثيقة بين الظن والخيال.

ويجلي الأمر بشكل أوضح بيت أبي داود:

رُبَّ هَمٍّ فَرَّجْتَهُ بِغَرِيمٍ          وغُيوبٍ كَشَفْتَها بِظُنونِ

أقول: يتجلى الفرق بين الظن واليقين في هذا البيت الذي اتخذوه دليلا على أن الظن هو اليقين!! وأظهر هذا البيت بوضوح أن فكرة أن الظن هو اليقين فكرة ملفقة بعُد الشرّاح بها عن الدقة في الفهم واقتربوا من تلبيس الألفاظ معاني ما خلقت لها! كما بين البيت أيضاً أن الظن كذلك ليس بالشك الذي عرفناه بأنه التردد بين النقيضين لا يميل لأحدهما على حساب نقيضه! فقد قابل الشُراح بين الهم الذي فرّجه الغريم وبين الغيب المجهول الذي كشفه بظنون ليكون الكشف باليقين لا بالشك! فكما أنه لم يجد من يفرج الهم به إلا آخر من يمكن أن يكون مصدرا لتفريجه وهو نقيضه أو غريمه فإنه لم يجد من يكشف الغيب به إلا نقيض الغيب الذي هو اليقين الذي يرى به الأمور على حقيقتها ويجلي به الغيب الذي خفي بأصدق ما يجليه بما لا يدع مجالا للشك، وهنا كانت المغالطة!

فلو كان البيت بهذا المعنى لما ارتقى لأن يكون شعراً ولا كان قائله خلد به أبداً؛ ولكنه بيت شعر وأي بيت! بيت قاله شاعر يعرف الشعر حق المعرفة! وما ارتقى إلى درجته تلك إلا بهذا الأداء العظيم الذي أدته لفظة "الظنون" كما لعب الغريم دوره في رقيه.. ويتضح أن ما ذهبوا إليه باطل وأي باطل باستبدال اليقين بالظن ليصبح البيت:

رُبَّ هَمٍّ فَرَّجْتَهُ بِغَرِيمٍ وغُيوبٍ كَشفْتَها بيقين

تأمل أولا معنى البيت الأصلي: يقول إن الهم استبد به وأخذ عليه جماع نفسه وملك أمره حتى أن الغريم الذي في العادة يحب أن يزيد همه هذا الغريم من شدة ما رآه من همه رقّ قلبه له فراح يفرّج عنه همه وما زال يخفف وطأة ذلك الهم عن نفسه حتى فرّجه عنه وهو غريمه:

رُبَّ هَمٍّ فَرَّجْتَهُ بِغَرِيمِ وغيوب.. كشفتها بظنون!

نعود إلى مثل الأم التي أضاعت طفلها لنتأمل فعل الظنون بها هذه الظنون التي رأيناها تفتك بهذه الأم لما رأتها في غاية الهم واليأس يقول الشاعر إن الظنون التي في العادة تعمل على زيادة الهموم ومضاعفتها هذه الظنون لما رأت من حالي ما لا يوصف تحننت علي وعطفت على حالي فراحت تكشف الغيوب لي بدلا من أن تزيدها قتامة كما هي عادتها فالظنون هي التي كشفت الغيوب لي من شدة ما رأت من همي ويا له من معنى راقٍ راقٍ راقٍ!!

إذن فالشاعر يقول إنه حتى الظنون التي من طبعها زيادة الغيب إظلاما ووحشة والنفس هماً وكرباً هذه الظنون نفسها، ويا للعجب من شدة ما رأت من حالي كشفت لي الغيوب لتخفف عني!!

نعود إلى البيت المعدل:

رُبَّ هَمٍّ فَرَّجْتَهُ بِغَرِيمِ وغُيوبٍ كَشفْتَها بيقين

لنرى ما الذي آل إليه معنى البيت في شقه الثاني: الغيوب التي عصفت بي وتلبستني حتى ما عدت أرى غيرها هذه الغيوب كشفتها باليقين أي انتظرت حتى انكشف الغيب وتجلى الأمر على حقيقته فاكتشفت ما خبأته الغيوب لي!

ولا بد من ملاحظة حرف الباء الذي اقترن بالغريم وبالظنون لنرى أن الذي فرج همه وكشف غيوبه هما الغريم والظنون فبالظن نفسه انكشف الغيب وبالغريم نفسه انفرج الهم وهُما آخر ما يتصور المرء أن يكونا عونا له على هذا الأمر! فيا له من بيت ويا له من شاعر!!

الصورة نفسها معكوسة في بيت عميرة بن طارق

بأنْ يَـغْـتَـزوا قومي وأقعدَ فيكمُ وأجْعَلَ مِنِّي الظنَّ غيبا مُرَجَّما

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري:"

بأنْ تَـغْـتَـزوا قومي وأقعدَ فيكمُ وأجْعَلَ مِنِّي الظنَّ غيبا مُرَجَّما

يقول: نقائض جرير والفرزدق: ٥٣؛ ٧٨٥؛ والأضداد لابن الأنباري ١٢ ؛وهو عميرة بن طارق بن ديسق اليربوعي قالها في خبر له مع الحوقزان ورواية النقائض "وأجلس فيكم..."و" وأجعل علمي ظنَّ غيبٍ مرجماً" وقبل البيت:

فلا تأمُرَنّي يا ابن أسماء بالتي تجرُّ الفتى ذا الطعم أن يتكلما

ذو الطعم: ذو الحزم. وتجر من الإجرار: وهو أن يشق لسان الفصيل إذا أرادوا فطامه لئلا يرضع يعني يحول بينه وبين الكلام! وغزا الأمر واغتزاه: قصده ومنه الغزو: وهو السير إلى قتال العدو وانتهابه؛ والمرجّم: الذي لا يوقَف على حقيقة أمره لأنه يقذف به على غير يقين؛ من الرجم وهو القذف؛ هذا –يتابع الأستاذ شاكر- والبيت كما رواه في النقائض ليس بشاهد على أن الظن هو اليقين ورواية الطبري هي التي تصلح شاهدا على هذا المعنى.إ.هـ."[١٥٤]

إذن فنحن أمام روايتين لو كنت مكان الشاعر لاخترت أن أقول رواية النقائض: وأجعل علمي ظن غيب مرجماً؛ لأنها أبلغ مع التسليم أيضاً ببلاغة الرواية الأخرى؛ والذي أراه في هذا البيت هو أنه يكره أن يعرف ما سيحصل لقومه عند غزوهم وهو عنهم ناء فقد يعلم ما يحدث لهم لكنه يريد لهذا العلم أن ينقلب وهماً وظناً وغيباً مرجماً! إذن فهو لا يريد أن "يعلم" كما توهم من أراد إلباس "ظن" معنى "علم" بل على العكس يهرب من العلم إلى الظن والغيب والوهم ليشتد بعداً عن العلم اشتداد الريح العاصف بالرماد! ولكأنه يعلم ضعف قومه وقلة قدرتهم على صد الغزو فيتمنى أن

١٥٤) تفسير الطبري. تحقيق محمود شاكر. طبعة دار المعارف ١٨/٢.

تنقلب وساوس نفسه غيباً لا يتحقق! وأما رواية الطبري فإننا قد نجد فيها معنى اليقين إن كان ظنه في هذه الحال لما يحصل لقومه المُغْتَرَزونَ ظناً حسناً لكن –فيما أرى- أن دلالة الظن فيها أقوى وأوثق صلة ؛ وذلك لأنه بعيد عن قومه وهم يُغْتَرَزون فتأخذه الظنون بما يحصل لهم كل مأخذ وعادة في مثل هذه الظروف يتغلب الظن بالأمر السيء على الظن الحسن كما لا يخفى ومن هنا يحب لهذه الظنون السيئة أن تستحيل غيباً مرجماً لا يوقف على حقيقته أي يشتد بعداً عن اليقين أي يتدافع عن نفسه ولا يجثم على صدره يدفع الألم الكبير ببصيص من الأمل والظن في هذه الحالة أشد فتكاً بالنفس وهو اللائق بالمقام.

وأغرب بيت رأيت التعليل فيه شديد الضعف: يقول ابن منظور في لسان العرب: "والظن شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر وأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم، ... والظن يقين وشك أنشد أبو عبيده:

ظنّي بهم كعسى وهم بتنوفة        يتنازعون جوائز الأمثال

يقول: اليقين منهم كعسى، وعسى شك قال أبو عمرو: معناه ما يظن بهم من الخير فهو واجب، وعسى من الله واجب،" أنظر إلى هذا التلفيق غير المقبول: عسى شك، هذه واحدة ثم يقول: اليقين كعسى أي كالشك، ثم ثالثاً: عسى انقلبت فجأة إلى أنها واجب أي يقين! وذلك لأن الحق سبحانه إذ

يقول عسى في القرآن فهو يوجب حصول ذلك الأمر، من هنا أصبحت لديهم المفاهيم متساوية فالشك هو الظن وهو اليقين!، أولا ظني كعسى أي أن ظني قريب من الشك، ولا دخل لليقين فيه لا من قريب ولا من بعيد، وقد بينا أن الظن يتراوح بين الاقتراب من اليقين أو من الظن، فهو هنا يقول بأن ظنه قريب من الشك، فأقحموا اليقين ليدللوا على أن الظن يقين، فتأمل! وما هو دخل عسى التي من الله سبحانه هنا؟ هل كل عسى في العربية واجب؟!

أما البيت الذي يثبت بشكل قاطع أن الظن ليس هو اليقين، وأنهما مفترقان، على الرغم من أن السادة المفسرين استشهدوا به على أن الظن بمعنى اليقين، فهو قول أوس بن حجر:

فأرسلتُهُ مستيقِنَ الظن أنه مخالطُ ما بين الشّراسيفِ جائِفُ

فالشاعر يقول بأنه أرسله وقد استحال ظنه –الذي عادة لا يكون من اليقين بمكان- استحال ظنه إلى يقين؛ كما مر بنا، فالاستفعال يقع على وجوه: يكون لطلب الفعل من الغير فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية يقال: استخرجت المال من غيري وكذلك استفهمت.

ويكون للاستفعال لصيرورة المستفعل على صفة غيره، وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم استحجر الطين أي صار كالحجر واستنوق الفحل أي صار كالناقة؛ واستأسد الكلب ففي أصله الطبيعي، لا يمكن أن يكون الكلب أسدا، فإن كان منه ما هو من صفات الأسد؛ كالشجاعة والإقدام وما إلى ذلك، قيل: استأسد الكلب، من هنا كان قولنا استيقن الظن، أي بلغ مبلغاً في العادة لا يبلغه، وهو اليقين، في هذه الحالة، لصفات المرسَل من الصدق والأمانة والإقدام وما له علاقة بالبيت، استحال الظن يقيناً مدحاً للمرسَل، استحال الظن يقيناً، أما في الأحوال الطبيعية، أي مثلا لو أرسل غيره لما استحال ظنه يقيناً، بل لبقي على أصله وهو الظن المفارق لليقين. وهذا البيت يدل قطعاً على افتراق الظن على اليقين، فالاستشهاد به حجة عليهم لا لهم لو أمعنوا النظر فيه.

# الخلاصة

ذهب بعض أهل اللغة إلى أن الظن قد يأتي بمعنى اليقين كما قد يأتي بمعنى الشك ونفى القران الكريم ذلك نفياً قاطعاً في آيات كثيرة صريحة الدلالة لا تحتمل تأويلا منها "وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ" ١١٦ الأنعام "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" ٣٢ الجاثية "إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ٢٣ النجم "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" ٢٨ النجم "أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ" ٦٦ يونس "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ" ١٤٨ الأنعام "وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا

لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا" ١٥٧ النساء "وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ" ٣٦ يونس.

وكلمة الظن هنا اسم جنس محلى بالألف واللام يستغرق كل جنس الظن فلا يغني أي ظن من أي علم شيئاً؛ ولئن كان قد اشتبه على كثير من المفسرين تفسير الآيات التي جاء الظن فيها في موضع اشتبه عليهم أنه بمعنى اليقين فقد تبين في هذا البحث أن للظن معاني أدق وألصق بالآيات وبما حولها تقوى معه دلالتها على الموضوع الذي تتناوله الآيات ويصرف عن هذا الذي ذهبوا إليه تأوّلا وصرفا لمعنى الظن الأصلي إلى غيره من غير صارف.

على أن استعمال الظن على أنه الشك أيضاً أمر مجحف ومناف للحق فالظن غير الشك كما أنه غير اليقين فالشك يستوي فيه النقيضان لا يميل الشاك إلى أحدهما على الآخر وقد بينا في تفسير آيات يونس التي جاء الظن فيها كما في آيات القيامة والكهف أن الظن لا يمكن أن يكون بمعنى الشك أو اليقين ولا يستقيم أبداً تفسير تلك الآيات لو كان الظن هو اليقين او الشك.

كما أن بعض المصطلحات الدالة على أمور معينة أتى الإسلام ليمنع استخدامها في هذه المواضع لئلا يلبس المفاهيم مما يكون مدخلا للبس الحق بالباطل كمصطلح راعنا مثلا وبينا في البحث أن استعمال المصطلح الذي يؤدي إلى لبس المفاهيم يمنع شرعاً وبالتالي فإن القران إذ بين في مواضع كثيرة أن الظن والحق لا يلتقيان أبداً فكان لا بد من قول الكلمة الفصل في هذا الموضوع بمنع استعمال الظن للدلالة على اليقين حتى ولو رأى البعض أن العرب تستعملها؟

خاصة وأن موضوع اليقين والظن في العقيدة وبالتالي لا يمكن أن نبني أصل الدين على مفاهيم تختلط على المسلمين كما أن الناس يتوزعون في هذه الدنيا ما بين مكذب وشاك وظان ومتيقن لذا كان ضبط المصطلح ضرورة لمنع أي صورة من صور الاعتقاد إن لم تكن تصديقاً جازماً مطابقًا للواقع عن دليل لا يتطرق إليها ظن ولا شك ولا تقبل حتى بغلبة الظن ولا تقبل إلا القطع والآيات واضحة الدلالة "وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" ٢٨ النجم والظن اسم جنس محلى بالألف واللام وبالتالي فلا نقبل تفسير الظن على أنه اليقين لنمنع لبس مسائل الاعتقاد على المسلمين فالشك هو الشك والظن هو الظن واليقين هو اليقين ولا يقبل الله من مسلم إلا اليقين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

اللهم اجعل هذا العمل مُتقبّلا واجعله خالصاً لوجهك الكريم ولا تجعل فيه حظاً للشيطان واجعله في ميزان حسناتنا اللهم آمين.

رب اغفر لي ولوالدي ولمن له حق علي وللمسلمين والمسلمات إنك سميع قريب مجيب الدعاء.

# خاتمة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

آمين

اللهم صل وسلم وبارك على خير خلقك نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة أهل السموات والأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا بفضل رحمتك وكرمك ولطفك يا كريم.

اللهم إني أسألك بك يا رب العالمين، أسألك باسمك الأعظم الذي إن سئلت به أجبت، وإن استغفرت به غفرت، وإن استرحمت به رحمت، وإن استشفيت به شفيت، يا مجيب دعوة الداعين:

أسألك يا رب بك يا أيها الذي ليسَ إلَّاهُ ربٌ يُدعى، سألتك يا مالك حوائج السائلين الذي يُعطِي إذا سُئل، ولا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما، وعلى كثرة الإلحاح إلا تفضلا وإحسانًا، يأتيه المُثقَلُ بالهموم شاكيا، فيفرج كرباته، والغارق في الذنوب مستغفرا، فيغفر زلاته، والمستيئس من النجاة، فيمد له يد نجاته، إذا أساءت العباد حَلِمَ وأمْهَلَ، وإن أحسنوا تفضلَ وقَبِلَ وإن عصوا ستر، وإن أذنبوا عفا وغفر، وإذا دعوه أجاب، فكان أقرب إليهم من حبل وريدهم، وأرحم بهم من والدهم على وليدهم، وإذا نادوه سمعهم، وإذا أقبلوا عليه أسرع إليهم، من تقرب إليه بشبر قربه ذراعا، ومن أتاه يمشي أسرع إليه هرولة، وإذا ولَّوا عنهُ تكرم وتفضل ودعاهم، ولم يوصد بابه أمامهم، شديد العقاب، وهو الغفور الرحيم، لكل مُسترحمٍ لديه رحمة، ولكل راغبٍ إليه زُلفى، تتابعت نعمه وآلاؤه، حتى اطمأنت الأنفس بتتابعها، وتظاهرت المنن منه حتى اعترف أولياؤه بالتقصير عن حقه، أسبغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، سألتك بمن تظاهرت العِبَرُ حتى نطقت الصوامتُ بحجته، ودل كل ما كُتب على صفحة نجوم السماء، وحبات رمل أديم الأرض على عظيم قدرته، وأظهر من الآيات حتى أفصحت السماوات والأرضون بأدلته، وقهر بعظيم قدرته حتى خضع كل شيء لعزته وعنت الوجوه لعظمته .

سألتك يا اللّه بك أن تنزل علينا شآبيب رحمتك، وأن تتقبل أعمالنا وان تجعلها خالصة لوجهك، وان تستر علينا في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك لنا وللمسلمين أجمعين من خير ما سألك الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم وعبادك الصالحون، وأعوذ بك لهم ولنا من شر ما استعاذ بك منه الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم وعبادك الصالحون

أسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد خير خلقك، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة أهل السموات والأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

الحمد للّه على نعمائه، ونسأله تعالى أن يكون أجرى الحق على ألسنتنا وبأيدينا، وأن يكون عصمنا من الزلل، وأن يتجاوز عنا برحمته، وفضله، وكرمه، فإنا واللّه لذاته العلية محبون، على ما فينا من التقصير، والشرود عن الجادة، والانغماس في الدنيا، ومع أن هذا كله يدل على تقصير من جانب المحب، إلا أننا نسأله تعالى أن لا يكون حبنا له ادعاء،

أنا مذنب أنا مخطىء أنا عاصي — هو غافر هو راحم هو عافي
قابلتهن ثلاثة بثلاثة — وستغلبن أوصافه أوصافي

حدثنا المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبدالله، كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلا، ولاخواني مفارقا، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردا، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى، وأنشأ يقول[١٥٥]:

إليك إله الخلق أرفع رغبتي — وإن كنتُ-يا ذا المنِّ والجود-مجرماً
ولَّما قسا قلبي وضاقت مذاهبي — جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوكَ سُلّمَا
تعاظمني ذنبي فلَّما قرنتهُ — بعفوكَ ربي كانَ عفوكَ أعظما
فَمَا زلْتَ ذَا عفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ — تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا
فلولاكَ لم يصمد لإبليسَ عابدٌ — فكيفَ وقد أغوى صَفيَّكَ آدما
فإن تعفُ عني تعفُ عن متمردٍ — ظَلُومٍ غَشُومٍ لا يزايلُ مأثما
وإن تنتقمْ مني فلستُ بآيسٍ — ولو أدخلوا نفسي بجُرْم جهنَّما
فَللَّهِ درُّ الْعَارفِ النَّدبِ إنَّهُ — تفيض لِفَرْطِ الْوَجْدِ أجفانُه دَمَا
يُقِيمُ إذَا مَا الليلُ مَدَّ ظَلاَمَهُ — على نفسهِ من شدَّة الخوفِ مأتما
فَصِيحاً إذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبِّهِ — وَفِي مَا سِواهُ فِي الْوَرَى كَانَ أعْجَمَا
ويذكرُ أياماً مضت من شبابهِ — وَمَا كَانَ فِيهَا بِالْجَهَالَةِ أجْرَمَا
فَصَارَ قَرِينَ الهَمِّ طُول نَهَارهِ — أخا السُّهدِ والنَّجوى إذا الليلُ أظلما

---

١٥٥) روى المزني بعض هذه الأبيات، وألحقت بها باقي القصيدة من مراجع أخرى.

يَقُولُ حَبيبي أَنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتِي ... كفى بكَ للراجينَ سؤلاً ومغنما

ألستَ الذِّي غذيتني وهديتني ... وَلاَ زِلْتَ مَنَّاناً عَلَيَّ وَمُنْعِمَا

عَسَى مَنْ لَهُ الإِحْسَانُ يَغْفِرُ زَلَّتي ... ويسترُ أوزاري وما قد تقدما

حَوالِيَّ فضلُ اللَّه من كل جانب ... ونورٌ من الرحمن يفترش السَّمَا

وفي القلب إشراقُ المحبِّ بوصلِهِ ... إذا قارب البشرى وجاز إلى الحمى

حواليَّ إيناسٌ من اللَّه وحده ... يطالعني في ظلمة القبر أنجما

أصونُ ودادي أن يدنسه الهوى ... وأحفظ عهد الحبِّ أن يتثلما

ففي يقظتي شوقٌ وفي غفوتي مُنًى ... تلاحق خطوي نشوة وترنُّما

ومن يعتصم باللَّه يسلم من الورى ... ومن يَرْجُه هيهات أن يتندَّما

كذلك ونسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، صائبة، خالية من حب الشهرة، وحب الذكر، وأن لا يكون نصيبنا منها إلا الخير في الدنيا والآخرة، وأن يغفر بفضله لسادتنا العلماء، ولمن أخذنا عنهم هذا الدين العظيم، وأن لا يجعل في صدورنا غلا للذين آمنوا، فإنا واللّه نحب المسلمين، ونحب لهم الخير، ونحب لهم أن يجتمعوا على ما جمع اللّه عليه قلوب من لو أنفق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما في الأرض جميعا، ما ألف بين قلوبهم، ولكن اللّه ألف بينهم، فاللهم ألف بين قلوب المسلمين

واجمعهم على محبتك وطاعتك وحسن الإيمان بك، وحَسَنِ العمل الخالص لوجهك الكريم.

وبعد، فهذا ما اجتهدنا فيه في هذه المسألة ، وهو جهد المقل، وللمسلم على المسلم حق النصح، فمن أراد مخاطبتي وأداء واجب النصح لي على زلة غير مقصودة، أو رأي مرجوح، أو استفسار عن شيء من ذلك، فعليه مكاتبتي على بريدي الالكتروني:

imammalek@hotmail.com

# المراجع


١. القران الكريم

٢. المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. الريان للتراث.

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني. دار الريان للتراث.

٤. مختصر صحيح مسلم. الحافظ المنذري الدمشقي. تحقيق الألباني. المكتب الإسلامي

٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة. الألباني. المكتب الإسلامي.

٦. الشخصية الإسلامية. للإمام تقي الدين النبهاني.دار الأمة. الجزء الأول

٧. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.ابن قيم الجوزية اختصار الشيخ محمد بن الموصلي الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية.

٨. الاستدلال بالظني في العقيدة. فتحي سليم. دار البيارق.

٩. عصمة الأنبياء. الفخر الرازي. دار الكتب العلمية

١٠. لسان العرب ابن منظور.دار صادر.

١١. القاموس المحيط. الفيروز ابادي. مؤسسة الرسالة. بيروت ط٥ (١٤١٦هـ)

١٢. فقه اللغة وسر العربية. أبو منصور الثعالبي. دار الحكمة.

١٣. مفردات ألفاظ القران. الراغب الأصفهاني. دار القلم والدار الشامية.

١٤. أساس البلاغة. معجم في اللغة والبلاغة. للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. مكتبة لبنان ١٩٩٦

١٥. معجم متن اللغة. للعلامة اللغوي الشيخ أحمد رضا. دار مكتبة الحياة ١٩٥٩

١٦. التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القران. عودة خليل أبو عودة. مكتبة المنار.

١٧. المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى. لأبي النصر السمرقندي المعروف بالحدادي.دار القلم. دار العلوم.

١٨. الدكتور محمد جميل الغازي في محاضرة له مسجلة عن التوحيد.

١٩. الديمقراطية وحكم الإسلام فيها. حافظ صالح. دار النهضة الإسلامية.

٢٠. فقه السنة. سيد سابق. دار الكتاب العربي

٢١. هذا الدين. سيد قطب. دار الشروق.

٢٢. نهج القران الكريم في الدعوة. حافظ صالح. دار النهضة الإسلامية.

٢٣. تصويبات في فهم بعض الآيات د.صلاح الخالدي. دار القلم

٢٤. روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني للعلامة محمود الألوسي. دار الفكر.

٢٥. دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق د.محمد السيد الجليد. مؤسسة علوم القران. دمشق.

٢٦. جامع البيان في تفسير القران. ابن جرير الطبري. الريان للتراث.

٢٧. تفسير الطبري. تحقيق محمود محمد شاكر. طبعة دار المعارف.

٢٨. الجامع لأحكام القران. القرطبي. دار إحياء التراث العربي.

٢٩. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. مكتبة العبيكان.

٣٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني. تحقيق د. عبد الرحمن عميرة. دار الوفاء.

٣١. التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي. دار إحياء التراث العربي.

٣٢. تفسير القران العظيم للشعراوي. الشركة الهندسية لتطوير نظم الحاسبات. أقراص مدمجة.

٣٣. الأساس في التفسير. سعيد حوى. دار السلام.

٣٤. تفسير القران الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل. الإمام النسفي. مؤسسة الرسالة.

٣٥. تفسير القران الحكيم الشهير بتفسير المنار. محمد رشيد رضا. دار المعرفة.

٣٦. النكت والعيون تفسير الماوردي. مؤسسة الكتب الثقافية.

٣٧. تفسير القران للشيخ العز بن عبد السلام اختصار النكت والعيون للماوردي. تحقيق الدكتور عبد الله الوهيبي. دار ابن حزم.

٣٨. تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل. دار الكتب العلمية.

٣٩. تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل. محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي. دار الكتب العلمية.

٤٠. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم. تفسير أبي السعود. محمد ابن محمد العمادي. دار إحياء التراث العربي.

٤١. في ظلال القران. سيد قطب. دار الشروق. الطبعة العاشرة.

٤٢. تفسير الجلالين. دار الكتب العلمية.

٤٣. تفسير القران العظيم. ابن كثير. دار الجيل.

٤٤. تفسير القران العظيم. ابن كثير. دار الفكر العربي.

٤٥. زاد المسير في علم التفسير. ابن الجوزي. دار الفكر.

٤٦. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. د.وهبة الزحيلي. دار الفكر.

٤٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي. تحقيق الرحالي الفاروقي وغيره الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ الدوحة.

٤٨. تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. دار الكتب العلمية.

٤٩. اللباب في علوم الكتاب. للإمام المفسر أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وغيره. دار الكتب العلمية.

٥٠. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. صنفه الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. عالم الكتب.

٥١. التيسير في أصول التفسير. المهندس عطا أبو الرشتة.

٥٢. تفسير الحسن البصري. جمع وتوثيق د.محمد عبد الرحيم. دار الحديث.

٥٣. الإيمان. ابن تيمية. دار الحديث. تحقيق السبابطي.

مفاهيم في العقيدة
الجزء الأول
مفهوم الظن
في القرآن الكريم وعلاقته باليقين
ثائر سلامة ( أبو مالك )
الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
مفاهيم في العقيدة
الجزء الثاني
القول الفصل في
مفهوم الإيمان شرعا
الجزء الثالث
أدلة الاعتقاد
مفاهيم في العقيدة
الجزء الرابع
ضوابط التعامل مع مسائل
صفات الله تعالى
ثائر سلامة ( أبو مالك )
الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
موقف العقل والعلم
من وجود من بيده ملكوت السموات والأرض
ثائر سلامة ( أبو مالك )
الطبعة الأولى : مزيدة ومنقحة